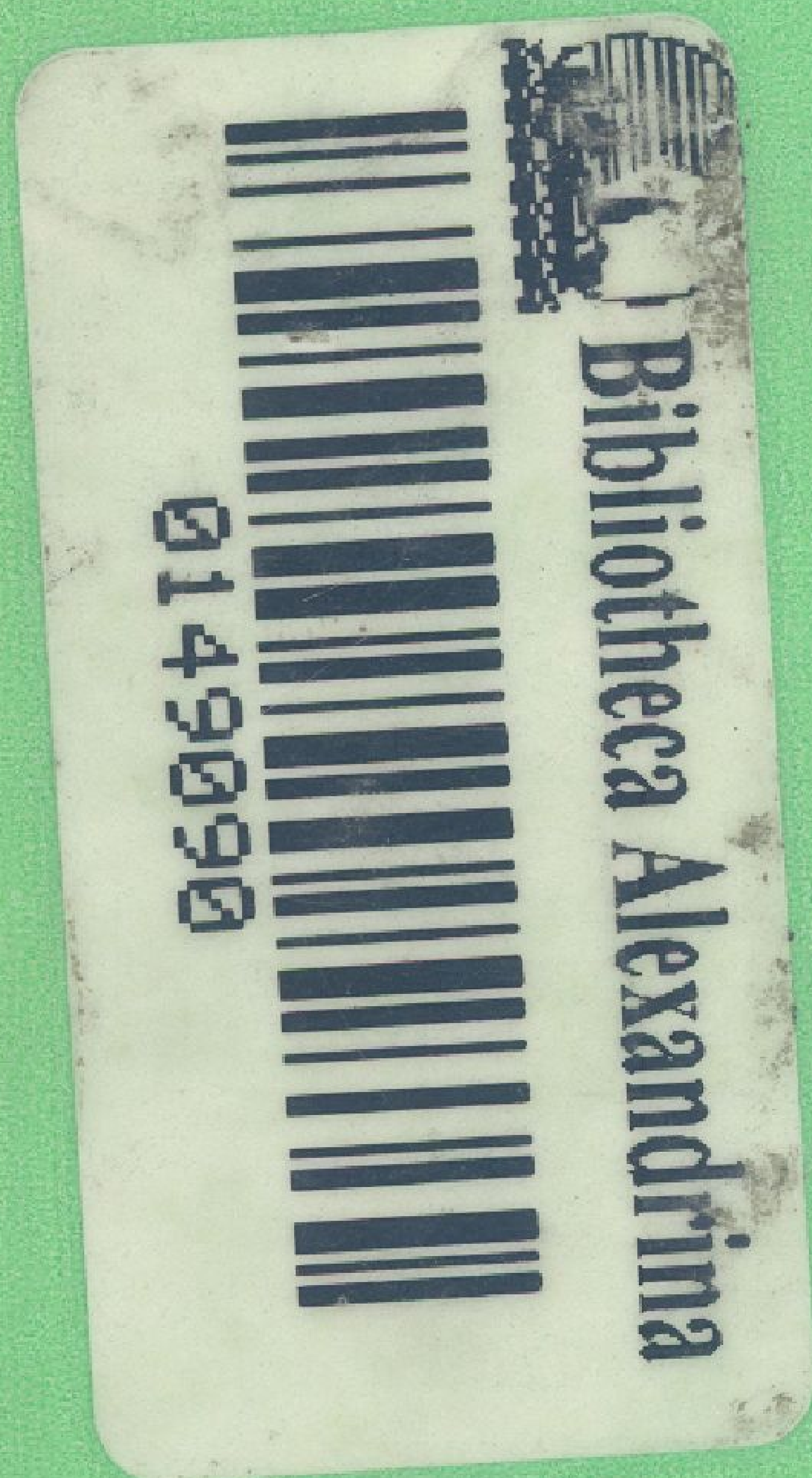
ديوان

بدر شاكر السيّاب





المجلّد الثاني

دار العودة - بيروت

ديوان
بدر شاكر السياب

ديوان

بدر شاكر السيّاب

دار العودة - بيروت

يُطلب من دار العَودَة - بَيرُوت
كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس MEREBI ٢٣٦٨٢_L_E
ص. ب ١٤٦٢٨٤

بدر شاكر السيّاب

بقلم : ناجي علوش

إن سنة ١٩٤٨ سنة حاسمة في التاريخ العربي الحديث ، فهي لم تشهد نكبة فلسطين فقط ، ولكنها شهدت بداية انهيار المجتمع العربي التقليدي، التي تمثلت فيما بعد بانهيار أنظمة الحكم الرجعية في سوريا ومصر ، وبالحركات الشعبية ضد السيطرة الاستعمارية في مصر والعراق .. وليس غريباً أن تشهد هذه السنوات ذاتها بداية حركة « الشعر الحر » في الوطن العربي .

إن انهيار المجتمع العربي التقليدي لم يكن انهياراً فحسب ، ذلك أن قِيَمَ هذا المجتمع المتخلف المحافظ أخذت تنهار أيضاً أمام الحركة النامية في أحشائه ، تحت تأثير عوامل داخلية وخارجية . وكانت هذه الحركة من العمق إلى درجة لم يستطع معها الشعر العربي – وهو الذي لم يستطع التجديد الجذري أن يقتحمه منذ الجاهلية – أن يبقى حيث أراد له الخليل بن أحمد. لقد بلغت الهزة الشعر العربي ، فعـــاد إلى مكانه من حركة التطور ، وبـــدأ يتفاعل معها ، لتبدأ تجربة « الشعر الحر » .

ولقد هيأت لهذه التجربة عوامل مختلفة أهمها :

أولاً : سقوط الوجود العربي التقليدي ، وزوال صفة القداسة عنه ، ذلك أنه سقط سياسياً ، وسقط اجتماعياً ، وسقط فكرياً .

ثانياً : دراسة تجـــارب الشعر الغربي ، ولا سيما الفرنسي والانجليزي ، والتأثر بتياراته المختلفة .

ثالثاً : تسرب الفكر الاشتراكي عامة ، والماركسي

خاصة ، إلى بلادنا وكفاحه من أجل التحرر والتجديد وربطه بينهما .

ولقد حدثت قبل سنة ١٩٤٨ ارهاصات في مجال التجديد الشعري أهمها محاولات الدكتور لويس عوض في « بلوتولاند وقصائد أخرى » ، وترجمة علي أحمد باكثير لمسرحية شكسبير . والجدير بالذكر ان هذه المحاولات ظلت سنوات دون نشر ، حتى قيّض لها أن تصدر سنة ١٩٤٧ . وتعتبر محاولات الدكتـــور لويس عوض جادة وهامة لأنها تخطت مفاهيم الشعر العربي تخطياً نهائياً ، إذ إنه حاول أن يبتكر أوزاناً جديـــدة سواء بالاستفادة من العروض العربي ، أو بالاستفادة من العروض الانجليزي ، كما حاول أن يحرر الشعر من اللغة الجامدة ، لغة المعاجم والفقهاء . وتضم هذه المجموعة قصائد فصيحة وقصائد عامية ، قصائد موزونة وقصائد غير موزونة [1].. انها مجموعة تجارب واعية . ولكن صدورها سنة ١٩٤٧ ، جعلها ذات

---

(١) – مجلة حوار – العدد ٢٠ ، صراع المتناقضـات في الشعر الحديث – غالي شكري .

أثر محدود في تجربة الشعر الحديث . لقد ضاعت في الموجة التي أخذت تتسارع في السنة التالية غير ملتفتة إلى شيء .

بدر والقصيدة الحديثة

كانت بغداد تشهد مداً يساريا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وكان في دار المعلمين العالية في بغداد طالب قدِم من جيكور في جنوب العراق ، يدعى بدر شاكر السيـــاب ، يدرس الأدب الأنجليزي ، وينتمي للحزب الشيوعي العراقي . كان بدر غريباً في المدينة ، وغريباً في نفسه ، ولكنه كان — وهو ابن الفلاح — ضد المدينة ... انه يرفضها سياسياً لأنهـــا تضطهده ، تحوله الى تابع مهان ، ويرفضها اجتماعياً لأنها تحوله الى عبد محروم . . فلم يكن بدعاً أن يرفضها ثقافياً ، خاصة والدعوة الشيوعية « دليله » ، والثقافة الغريبة مادة دراسته .

كان الفتى الغريب بطبعه ووضعـــه رومانسياً ، ولكن رومانسيته لم تكن رومانسية وطن يتقدم نحو

الأزدهار ، بل كانت رومانسية وطن يعيش مرحلة تخلخل سياسي واجتماعي ، وتعاني أكثرية الشعب فيه أقسى أنواع الإضطهاد والحرمان. الرومانسية هنا ليست مترفة ، ليست تهويمات برجوازية « صناعية » صاعدة ، ولا تأوهــات برجوازية وسطى تضيق بأطرحياتها وتقاليدها .. انهــا رومانسية برجوازية صغيرة مذلة مهانة محرومة ، ترزح تحت وطأة تقاليد اجتماعية قاتلة ، وتجابه تخلف مجتمع شبه إقطـاعي شبه مستعمر ، وهي هزيلة التكوين والفكر . من هنا كانت الرومانسية جزءاً من الثورة السياسية الاجتماعية فتحولت من « تبرم » الى « رفض » وتجــاوزت الضبابية والغموض — الى حد — لتطرح قضية التغيير الجذري للمجتمع .

وحين بحثت رومانسية البرجوازية الصغيرة هذه عن دليل للثورة،وجدت الماركسية فتبنتها ، واتحدتا معاً ...كان بدر ابن هذا الاتحاد القلق ، فآمن بالتغيير ولكنه ظل محافظاً على حرمة التراث ، وسمح لنفسه أن يتجاوز تقاليد العمود الشعري العربي ، ولكنه

ظل وفياً للتراث ، فلم يتجاوزه أبداً [1] . لم يكتب قصيدة النثر ، ولم يستعمل العامية ، ولم يتجـاوز الأسس المتعارف عليها في العروض العربي ، إلا في أقل القضايا أهمية ، وهي عدد التفاعيل .

ومع ذلك فقد كان بدر رائداً من روّاد التجديد .

هل كان أول الرواد ؟ ...

أنهـا قضية مختلف فيها . وهنالك ما يدعو الى الالتباس . ذلك أن القضية ليست واضحة تماماً . فمن الناحية التاريخية سهل علينا أن نحدد تواريخ كثير من القصائد التي تعتبر القصائد الأولى في تجربة « الشعر الحر »، ولكنه ليس من السهل أبداً أن نحكم »أي من هذه القصائد هي النموذج الأول لتجربة الشعر الحديث. ومع هذا فسنحاول أن نطرح القضية زمنياً، وشعرياً.

هنالك اتفاق من الناحية الزمنية على أن محاولات الدكتور لويس عوض وعلي أحمد باكثير هي الحائزة

(١) أكد لي صديقه محيي الدين اسماعيل هذه الحقيقة ، كما أكدها لي الشاعر شخصياً .

قصب السبق في هذا المجال . ولكن هذه المحاولات كانت كالصيحة في الوادي ، فالدكتور لويس عوض وعلي أحمد باكثير لم يخوضا معركة التجديد .. ولم يدخلا معركة التجربة الشعرية الجديدة بالشعر ... لقد توقفا من حيث كان البدء . ويبدو أن محاولاتهما لم تكن ذات أثر في العراق . نستدل على ذلك من المناقشات التي دارت على صفحات الآداب حول « الشعر الحر » ، والتي اشترك فيها السياب نفسه . فما من أحد أشار إلى محاولات لويس عوض وباكثير ، من المتناقشين ، إلا صلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب . أما السياب فقد مر مروراً عابراً بعلي أحمد باكثير ، معتبراً إيّاه أول من كتب « الشعر الحر » ، ولم يشر أبداً للويس عوض . وأما صلاح فقد ذكر لويس دون باكثير (١) يبدو أن بدراً لم يقرأ محاولات لويس عوض ، وإلا فما كان من سبب يدعوه لعدم ذكره ، ما دام يعترف بالأولوية لباكثير (٢) . ثم

---

(١) الآداب ، حزيران - تموز ١٩٥٤ رينابر ١٩٥٥ .

(٢) يذكر بدر في مقدمة « أساطير » اسمي الياس أبو شبكة وخليل شيبوب .

أن صدور محاولات عوض وباكثير سنة ١٩٤٧ ، وان كانت قد كتبت قبل هذا التاريخ بسنوات يجعل تأثيرها محدوداً - إن كان لها تأثير خارج مصر - ذلك أن التجربة في العراق كانت تعطي أولى ثمارها في هذا التاريخ .

تروي السيدة نازك الملائكة أنها نظمت قصيدتها الكوليرا يوم ١٩٤٧/١٠/٢٧ ، التي نشرت في أول كانون الأول من العام نفسه ، كما تذكر أن الشاعر بدر شاكر السياب أصدر ديوانه « أزهار ذابلة » في بغداد في منتصف كانون الأول من ذات العام ، وكانت فيه قصيدة بعنوان « هل كان حباً » ، « علق عليها في الحاشية بأنها من الشعر المختلف الأوزان والقوافي» (١). وهنالك اتفاق بين من كتبوا حول الموضوع على أن ديوان بدر « أزهار ذابلة » صدر في كانون الأول (٢).

(١) قضايا الشعر المعاصر - ص ٢٣ - ٢٤ ، ط ٢ مكتبة النهضة بغداد .

(٢) الآداب - شباط ١٩٥٤ ، حول الشعر المتحرر في العراق، صالح عبد الغني كبه ص ٥٠ - ٥١ .

ويذكر صالح عبد الغني كبه ان رفائيل بطي علق في مقدمة « أزهار ذابلة » على قصيدة متحررة فيه[1] ، ولكن بدر نفسه يذكر أن ديوانه « أزهار ذابلة » طبع في مصر ، وأنه وصل إلى العراق في شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ ، وان قصيـــدة « هل كان حباً » « المكتوبة على طريقة الشعر الحر قد كتبت قبل طبعه بما لا يقل عن شهرين– إذا كانت المسألة مسألة حساب فقط – وبأكثر من عـــام كما هي الحقيقة »[2] . وقد نشرت قصيدة « هل كان حباً » في مجموعة « أزهار وأساطير »[3] التي طبعت سنة ١٩٦٠ عندما كان بدر يعالج في بيروت، وقد وضع تحتها التاريخ التالي: ١٩٤٦/١١/٢٩ . وينسجم هذا التاريخ مع ما ذكره بدر أعلاه . ويذكر بدر أيضاً أنه نشر خمس قصائد من «الشعر الحر» في الفترة الواقعة بين ظهور « أزهار ذابلة » و « الكوليرا » . ولكن بدراً لا يذكر أسماء هذه القصائد ، ولا أين نشرت . ومن المفروض أن

(١) المصدر السابق .

(٢) الآداب - حزيران ١٩٥٤ ص ٦٩ .

(٣) إصدار دار مكتبة الحياة .

تكون قد نشرت في الفترة الواقعة بين كانون الثاني ١٩٤٧، وكانون الأول من العام ذاته ولا توجد قصائد « حرة » يعود تاريخها إلى سنة ١٩٤٨ . أما القصائد المنشوره فيعود تاريخهـا بالترتيب كما يلي : أساطير ٤٨/٣/٢٤ ، سراب ٤٨/٣/٢٧ اتبعيني ٤٨/٤/٢١ ، نهاية ٤٨/٥/٢٦ ، في القرية الظلماء ٤٨/٦/٢٠ ، سوف أمضي ٤٨/٢/٣٠ ، أغنية قديمة ٤٨/٧/٢٠ ، في ليالي الخريف، ٤٨/٩/١٧ ، في السوق القديم ٤٨/١١/٣ ، اللقاء الأخير ١٩٤٨ دون تاريخ محدد .

ومن الجدير بالذكر أن بدراً لم يجـد – حين نشر رده ، وبعد ذلك – من يناقشه في صحة المعلومات التي أوردها ، والغريب أن نازك الملائكة أصدرت كتابها « قضايا الشعر المعاصر » ، وأوردت وجهة النظر الواردة آنفاً ، والمخالفة لوجهة نظر بدر ، ولكنها لم تكلف نفسها عناء مناقشة ما أورده بدر ، مع أني أستبعد أن تكون غير مطلعة عليه .

هنالك فرق زمني يبلغ عشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً بين تاريخ قصيدة بدر « هل كان حباً » ، وتاريخ قصيدة نازك « الكوليرا ». وهذا يعني أن بدراً كتب

هذه القصيدة قبـــل صدور ترجمة باكثير لمسرحية شكسبير [1] ، وقبل صدور مجموعة الدكتور لويس عوض،ولكن هذا السبق الزمني لا قيمة له عملياً ذلك أنه وإن كان يسجل لبدر سبقه في هذا المضمار ، إلا أنه لا يجعله معلماً رائداً لأبناء جيله .. لنازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور وغيرهم .
لقد أعلن بدر إشارة البدء – بعد أن أعلنها الدكتور لويس عوض ولكنه لم يدخل الميدان – وما كاد يدخل الميدان حتى وجد عدداً من الشعراء يخوض الشوط معه . وكان كل شاعر من هؤلاء ذا تجربة خاصة ، وله من الامكانيات ما لبدر أو بعض ما لبدر، وخلال الشوط الطويل تكوّن هؤلاء الشعراء ، ونضجت تجربة « الشعر الحر » كان كل واحد منهم يأخذ من النهر ، منمياً طاقاته وامكانياته . وإن كان كل منهم يحتفظ بمصادر طاقته الخاصة . ولكن كل واحد منهم كان يحاول اللحاق ببدر ، ويتأثر به بشكل أو آخر.

* * *

لنعد إلى قصيدة بدر الأولى « هل كان حبا » ،

---

(١) كان بدر يعلم ان ترجمة باكثير التي نشرت سنة ١٩٤٧ كانت مهيأة للنشر منذ سنوات .

لنرى ما فيها من التجديد . انها تتكون من أربعة مقاطع من بحر الرمل (فاعلاتن مكررة ثلاث مرات بالأصل) . ولقد خرج بدر على قاعدة الخليل بن أحمد التي تقضي بالتزام ثلاث تفعيلات في الشطر الواحد إذا كان البحر تاماً ، وباثنتين إذا كان مجزوءاً ، فجاءت بعض الأبيات من تفعيلتين وبعضها من ثلاث وبعضها من أربع دون نظام معين . وإن كان يبدو من دراسة القصيدة أن بدراً حاول الالتزام بنظام معين فيها ، ولكن الزمام أفلت من يده . يدل على ذلك المقطع الأول الذي يتكون من سبعة أبيات[1] الثلاثة الأولى منها ذات ثلاث تفعيلات ، والبيتان التاليان أربع أما السادس والسابع فمثل الأبيات الثلاثة الأولى. ونلاحظ ان قافية الأبيات الثلاثة الأولى منسجمة مع قافية البيتين الأخيرين . إلا ان المقاطع الأخرى لا تخضع لنفس الترتيب في التفعيلات ، وان كان الثاني يخضع لنفس الترتيب في القافية . اما الثالث فقد كان مقدراً

---

(١) سميتها أبياتاً مع أن بعضها أشطر حسب الاصطلاح التقليدي أما في هذه الدراسة فالبيت والشطر شيء واحد .

له ان يكون مثل سابقيه من حيث القافية . ولكن الأبيات الأربعة الأخيرة التقت في قافية واحدة . ويخرج المقطع الرابع – من حيث القافية – عن إطار ما التزم في المقاطع السابقة ، إذ تتوالى القافية الواحدة في شطرين متتابعين ، ما عدا الشطر الثالث الذي ظل وحيداً.

ونلاحظ في هذه القصيدة :

١ – استعمال تفعيلات الرمل – كاملاً ومجزوءا – دون نظام معين .

٢ – محاولة التخلص من التزام قافية واحدة التزاماً محدداً .

ويبدو أن التطور الذي حدث في هذه القصيدة جاء عفوياً ، لأنها ابتدأت بنظام معين – وزناً وقافية – ولكنها تجاوزت ما بدأت به ، وإن كانت لم تنته إلى استعمال التفعيلة الواحدة في الشطر الواحد، ولا إلى تجاوز أي نظام للقافية . إن ما فعله بدر في هذه القصيدة هو انه أجاز لنفسه الانتقال من تفعيلتين إلى ثلاث فأربع انتقالاً غير منتظم .

وقد حقق بدر الانتقال إلى استعمال التفعيلة الواحدة في قصيدته « سوف أمضي »[1] لأول مرة ، فيما نعرفه من قصائده . إلا أن هذه القصيدة تلتزم نظاماً معيناً في الوزن والقافية ، ما عدا شطراً واحداً في المقطع الأخير . ولعل قصيدته أساطير[2] تحقق قفزة إلى الأمام في مجال التخلص من عمود الشعر التقليدي . فالقصيدة من المتقارب (فعولن مكررة أربع مرات في كل مرة) ولم يعرف الشعر العربي لهذا البحر مجزوءاً ، ولا مخلوعاً (استعمال ثلاث تفعيلات)[3] . وقد جاء بدر فحرر هذه التفعيلة من عمود الخليل ، لترد فرادى أو مثنى أو ثلاث أو رباع دون انتظام :

تعاليْ فما زال لون السحاب
حزيناً يذكرني بالرحيل
رحيل ؟...!

---

(١) أزهار وأساطير ص ٤٧ من هذه المجموعة وتعتمد هذه المجموعة كمرجع إلا حيث ذكر ذلك .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ .

(٣) تسمية اصطلاحية ليست له .

تعالي ، تعالي . نذيب الزمان
وساعاته في عناق طويل
ونصبغ بالأرجوان
شراعاً وراء المدى
وننسى الغدا
على صدرك الدافىء العاطر
فتهويمة الشاعر
تعالي فملء الفضاء
صدى هامس باللقاء
يوسوس دون انتهاء

ونستطيع أن نلاحظ هنا أن بدراً تحرر من اتباع نظام معين في تواتر القوافي ، وان كان يميل للاتيان بالقوافي المتماثلة في الأشطر المتتالية ، وكثيراً ما تتابع القوافي أو تتوالى .

ولقد تقدم بدر خطوات خلال سنة ١٩٤٨ ، وكانت « اغنية قديمة » و « السوق القديم » أفضل شعره « الحر » . أخذت قصيدة بدر تتحرر من مظاهر

القصيدة التقليدية ، وتسير نحو الوحدة والجريان ، وهي خلال ذلك تبحث عن أساليب التعبير المناسبة ، مثل التعبير بالصور بدل التعبير المباشر . ومع أن قصيدة نازك « الكوليرا » أقرب للشعر « الحر » من قصيدة بدر « هل كان حباً » ، إلا أن قصائد بدر التي يعود تاريخها لسنة ١٩٤٨ أكثر تفتحاً وانطلاقاً من قصائد نازك ، وأكثر جدارة باعتبارها لبنات أساسية في أساس تجربة الشعر « الحر » . وانه لضروري أن نسجل لنازك الملائكة قدرتها على إيضاح أسس التجربة الجديدة في مقدمة « شظايا ورماد » الذي صدر سنة ١٩٤٩ بينما عجز بدر عن أن يفعل ذلك في مقدمة مجموعته «أساطير» الصادرة سنة ١٩٥٠. وما ذلك في رأيي إلاّ نتيجة تفوق نازك في ميدان الدراسة . وهذا ما جعل نازك تتفوق ، فيما بعد في ميدان الدراسات الأدبية ، بينما تفوق بدر شاعراً .

وهنالك ثغرة مازالت تعترض سبيل الذين يدرسون شعر بدر . فشعره ليس كله منشوراً ، وليس — فيما قرأنا — أية قصيدة تعود لسنوات (٤٩ — ٥٢) .

وهذه السنوات الأربع هامة لأنها السنوات التي تلت تخرجه من جهة ، ولأنها سنوات نشاطه الشيوعي من جهة ثانية . ومع اني ما زلت أحاول أن أسد هـذه الثغرة إلا أني أتساءل لماذا لم ينشر بدر شيئاً من قصائد هذه الفترة ؟. (١)

ونستطيع أن نميز أربع مراحل في حياة بدر وفي شعره:

الأولى : الرومانسية ١٩٤٣ – ١٩٤٨ .

الثانية : الواقعية ١٩٤٩ – ١٩٥٥ .

الثالثة : التموزية أو الواقعية الجديدة ١٩٥٦ – ١٩٦٠ .

الرابعة: الذاتية ١٩٦١ – ١٩٦٤ .

---

١ – نشر اعلان في مجموعته «اساطير» عن قرب صدور ديوانه السياسي والاجتماعي بعنوان « زئير العاصفة » ولكن هذه المجموعـة لم تصدر . ولا يعرف أين ذهبت موادها .

بدر الرومانسي

بدأت الحرب العالمية الثانية، وبدر في أول بلوغه. وهكذا فتح الفتى عينيه على عالم يهتز. وكان الوطن العربي في هذا الوقت، يغلي بمختلف مشاعر التمرد والرفض، التي لا تتجه نحو الاستعمار فقط، بل نحو التقاليد البالية أيضاً. وكانت الحركة الرومانسية في الوطن العربي، قد بلغت ذروة مجدها، ممثلة في مدرسة أبولو ... وكان بدر في الوقت ذاته، يعاني مأساة خاصة. لقد توفيت أمه، وتزوج أبوه. ويبدو أن الحادثتين أثرتا كثيراً في نفسه، لنسمعه يقول من قصيدة عنوانها « خيالك »:

خيالك من أهلي الأقربين
أبرُّ وإن كان لا يعقل
أبي منه قد جردتني النساء
وأمي طواها الردى المعجلُ
وما لي من الدهر إلاّ رضاك
فرحماك فالدهر لايعدلُ ..[1]

وكانت جدته قد توفيت أيضاً ، ويبدو أنها حلت في ذهنه محل والدته ، فصدمه موتها صدمة عنيفة : وكان ان كتب قصيدة بعنوان « رثاء » جدتي بتاريخ ٤٢/٩/٩ جاء فيها :

جدتي من أبث بعدك شكواي طواني الأسى وقلّ معيني
أنت يا من فتحت قلبك بالأمس لحبي أوصدت قبرك دوني
فقليل علّي أن أذرف الدمع ويقضي عليّ طول أنيني
ليتني لم أكن رأيتك من قبل ولم ألقَ منك عطف حنون
آه لو لم تعوديني على العطف وآه لو لم أكن او تكوني ...[2]

---

(١) اقبال ط ، اولى ، حزيران ١٩٦٥ ، ص ٨١ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .

كانت مأساة بدر تكمن في غربته... غربته الأبدية عن أمه ، وعن أبيه ، وعن جدته . وكان يعيش في مرحلة اشتد الصدام فيها بين القيم والواقع ، بين الماضي والحاضر . وكان هذا كله ، يجعله دائماً يبحث عن مَثَل أعلى ، ليس موجوداً . انـه يرفض ان يقبل الواقعي ، لأنه مؤلم .. لأنه الموت ، لأنه فراق أمـه وأبيه وجدته ... ولأنه خيانة وغدر وبؤس . لقد أحب « لبيبة » وهي تكبره بسبع سنوات ، كما جاء في هامش كتبه بخط يده [١] ، ولكنه لا يخاطب لبيبة كما يخاطب الحبيب حبيبته ، بل كما يخاطب الطفل أمه ، وهو لا يخاطب لبيبة نفسها ، لأنه لا يريد أن يجعل من حبه واقعياً ، بل يخاطب خيالها :

خيالك من أهلي الأقربين   ابَرّ وإن كان لا يعقل

وليس هذا غريباً ، فهو لا يحب انسانة حية ... إنه يحب خيال انسان . فلا غرو إذا رأيناه بعد هذا كله ، يرفض أن يدنس نفسه بحب فتاة « الهوى والثرى » .

أعفرت من كبريائي النداء ؟   ورجّعت آمـادي القهقرى

---

(١) في دفتر مخطوط بجوزتي .

نسيت التي صورتها مناي وناديـ أنثى ككل الورى
وأعرضت عن مسمع في السماء إلى مسمع في تراب القرى
أتصغي فتاة الهوى والخيال وأدعو فتاة الهوى والثرى

في مثل هذة الحالة ، يصبح الحب ضائعاً، وتصبح « الحبيبة » سراباً ، تصبح مثل ذلك الطائر الخداع الذي يسمى « ملاهي الراعي[1] » . ويبدي بدر في قصيدته « ضلال الحب [2] » نقمته على المرأة ، فلا يجد أفضل من قصة آدم وحواء ، دليلاً على ما تصنعه بالرجل ، وكيف تقوده إلى الهاوية .

وزاد من شعور بدر بالغربة هجرته من الريف الى المدينة . هنا يبدأ الضياع الكبير الذي ترك آثاره العميقة في مستقبله كله . وعلى الرغم من أن قصيدتـــه « المساء الأخير » [3] التي كتبها ليلة مغادرة الريف ، وكتب تحت عنوانها « آخر مساء قبل مغادرة الريف » ، ليست حارة حادة ، فإنهـــا تمثل ارتباطه بالريف ،

---

(١) قصيدة همسك الهاني – اقبال صفحة ٦٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

وارتباط الريف بالحب . وهو قبل أن يغادر لا يطمع بلقاء ، لأن هذا مستحيل بل يطمح إلى نظرة ...

وهو في المدينة غريب ، هذا ما يحس به ، فيحلم « بالليالي المقمرات وبالنخيل » ... يحلم بالرحيل إلى الريف .

* * *

ليس في شعر هذه المرحلة ما يلفت النظر إلى أن بدر سيصبح شاعراً كبيراً ، إنه شعر عادي تقليدي فيما عدا القصائد التي ذكرناها . وقصائد هذه المرحلة غزلية على الأغلب أو من شعر الحنين . لقد كتبها بدر وهو في سن تتراوح بين السادسة عشرة والثالثة والعشرين . وليس في هذه القصائد ما يدل على أنه تأثر خطى أحد من الشعراء الرومانسيين العرب ، وذلك لأن رومانسيته من طراز فريد أولاً ، ولأن الرومانسية العربية رومانسية مترفة ، وكانت قد بلغت ذروة مجدها ، وأخذت في الأفول عندما بدأ بدر يتنفس شعراً . فبدر شاعر « مأزوم » ، وقد عانى الأزمة على صعيد المُثُل ، وعلى صعيد وجوده الفردي ،

بينما كانت الرومانسية العربية حالمة سابحة في خيالات حسية ومترفة . لقد وقف هذا الحاجز بين بـــدر والرومانسية العربية ، وإن كان على ما يبدو معجباً بعلي محمود طه ، وقد طلب منه تقديم قصيدته « بين الروح والجسد » ، ولكن علي محمود طه مات قبل أن يلبي رغبة بدر . ويبدو هذا التأثر أحياناً باستعمال الصور الحسية والصفات الحسية المترفة المتتالية مثل :

أمنيات دغدغت حسي باغماء طروب
وانتشاء فاتر الآماد نعسان الطيوب
الأريج الدافىء المغناج منغوم الهبوب
أسكرته الليلة القمراء في سهل رطيب(١)

غير أن عدم وقوع بدر تحت تأثير الرومانسيين العرب ناتج عن أنـــه اطلع على الآداب الأجنبية ، والانجليزية خاصة، خلال دراسته في دار المعلمين العالية في بغداد التي تخرج منها سنة ١٩٤٨ . كان بدر يدرس الأدب الانجليزي ، وقد أتاحت له دراسته التعرف إلى

---

(١) محيي الدين اسماعيل – ملامـــح من الشعر العراقي الحديث ـ مجلة الآداب ـ يناير ١٩٥٥ .

الأدب الانجليزي ، فتأثر به كثيراً ، وخاصة بشلي وكيتس . ويبدو تأثره واضحاً في بعض القصائد . فهو مثلاً في « ذكرى لقاء » يترجم مقطعاً لجون كيتس،مشيراً إلى ذلك في الهامش. وهذا هو المقطع :

وتمتد يمناك نحو الكتاب كمن ينشد السلوة الضائعة
فتبكي مع العبقري المريض وقد خاطب النجمة الساطعة

تمنيت يا كوكب
ثباتا كهذا – أنام
على صدرها في الظلام
وأفنى كما تغرب

والعبقري المريض – كما يشير الهامش المذكور – هو « الشاعر الانجليزي جون كيتس » الذي « مات مسلولاً في الخامسة والعشرين من عمره ، وآخر ما كتبه قصيدته التي يخاطب بها كوكباً في السماء »[1] .

ويرى الدكتور لويس عوض أن قصيدة « رئة تتمزق »[2] تعتبر تنويعاً على قصيدة كيتس « أنشودة

(١) أزهار وأساطير ص ٨٢ . ط اولى
(٢) أزهار وأساطير ص ٤٢ .

إلى بلبـــل » ، كما أن قصيدة « اتبعيني» [١] تعتبر تنويعاً على قصيدة شلي « اتبعيني .. اتبعيني » من بروميثوس طليقاً [٢] . ولكن السياب لم يقلد أحداً ، وكما لم يستطع أن يسير تحت راية الرومانسيين العرب، لم يستطع أن يحمل راية الرومانسيين الانجليز. فالسياب لم يكن يحلم فقط ، ولم يكن قانعاً بالخدر ... إنما كان يحلم بالثورة ... العاصفة الهوجاء الـــتي تمنحه الحرية والحب .

---

(١) أزهار وأساطير ص ٣٨ .

(٢) ملحق الأهرام الأسبوعي ٥ ـ ٣ ـ ١٩٦٥ .

أصبح بدر في أوائل الأربعينات عضواً في الحزب الشيوعي . متى أصبح شيوعياً ؟ ليس معروفاً حتى الآن بالضبط . انه يؤكـــد أنه أصبح شيوعياً ، هو وعمه الأصغر عبد المجيد عن طريق شخص ايراني ، ولكنه لا يذكر متى . وهو يؤكد انه خلال الحرب العالمية الثانية كان يقوم بالدعاية للشيوعية والنازية[1] . وقد اتصلت بالأستاذ محمد علي الزرقا أحد زملائه في الجامعة ،فذكر لي أن بدراً كانعضواً مؤازراً للحزب، من السنة الأولى لدخوله الجامعة ، وانه ظل كذلك

١)الحرية،العراقية العدد ١٤٤١.

حتى ترك الأستاذ الزرقا بغداد سنة ١٩٤٥ . ويذكر الأستاذ الزرقا أيضاً أن بدراً كان من جماعة القاعدة ، أي حزب فهد ، وأنه كان حتى آن ذاك يخلط بين الوعي والرفض . وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه بدر نفسه .

ومما يرويه الأستاذ محمد علي الزرقا أن بدراً نظم سنة ١٩٤٤ قصيدة طويلة نشرت في مجلة « واسط »، قارن فيها بين ثورة دجلة الذي فاض وثورة الجماهير .

ويؤكد ما يذكره الأستاذ الزرقا ان بدراً انتسب للحزب سنة ١٩٤٥ (١) ولقد بقي بدر في الحزب الشيوعي مدة ثماني سنوات .

ولقد كلفت بدراً هذه التجربة كثيراً ، إذ إنه اضطهد وشرّد ، ولكنها أفادته كثيراً ، إذ حوّلت إحساسه الفردي بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة مؤقتاً . كان الموت ، فيما مضى ، موته موت أمه فقط ، أما الآن فقد اصبح الموت عامة

---

(١) عباس ، احسان : بدر شاكر السياب ، دراسة في حياته وشعره ، صفحة ٨٩ . دار الثقافة بيروت .

موت الآخرين . وكان في الماضي يبحث عن خلاصه وحده، أما الآن فقد أصبح يبحث عن خلاصه بخلاص الآخرين . أدرك في هذه المرحلة بأن فاجعته ليست فاجعته الخاصة بل فاجعة شعبه . ونستطيع أن نتبين موقفه هذا من خلال قصائده : ١ – فجر السلام ٢ – حفار القبور ٣– الأسلحة والأطفال ٤ – المومس العمياء .

ونلمس في كل قصيدة، من هذه القصائد على اختلافها ان مصير الانسان ليس مصيراً فردياً منعزلاً ، انه جزء من المجتمع والتاريخ . وان في المجتمع قوى ظلم واضطهاد ودمار ، ولكن فيه أيضاً قوى خير ومحبة. في « المومس العمياء » تتحرك الأمور ضمن إطارها الموضوعي . الفرد هنا يعيش ضمن هذا الاطار ، وفاجعته ليست خارجة عنه ، إنما هي جزء منه . ما من شيء هنا يحدث اعتباطاً وصدفة . الموت ليس قدراً بلا علة ، كموت الأم انه هنا نتيجة ظرف اجتماعي معين . والدعارة ليست نزوة انها ظاهرة اجتماعية . وقد استطاع السياب ان يحشد في قصيدته هذه مجموعة

من المتناقضات التي تحفل بها الحياة العربية والتي تمثل الفساد والضعف والانحـلال . ويقدم السياب حفار القبور مثـــلا لذاك الإنسان الأناني ، الذي يتمنى ان يموت الآخرون لكي يحصل على مـــا يوفر له المتعة : وحفار القبور هذا رمز لكل « طفيلي » لا يفكر الا بنفسه . وبدر عندما يقدم حفار القبور ، لا يقدمه على انه « حالة فردية » بل على انه حالة اجتماعية ففي المجتمع المفكك المنحل ، تولد طبقة تعيش من موت الآخرين : وشأن هذه الطبقة شأن حفار القبور الذي يتمنى ان يموت الآخرون لينعم بملذات الدنيا . اما الأسلحة والأطفال وفجر السلام ، فإنهما تؤكدان الانتصار على تجـــار الموت وغيلان الدمار .

تجاوز بدر في هذه المرحلة شلي وكيتس إلى ستيفن سبندر وروبرت بروك ووليم هنري دافيس وادغار الن بو ما بين ١٩٤٨ — ١٩٥٠ ، ثم تجاوز هؤلاء إلى ت . س . اليوت وأديث ستويل . وكان في الوقت ذاته يكافح مع الحزب الشيوعي العراقي ضد الطغيان

والمؤامرات الاستعمارية ، وينهل من الثقافة الشيوعية .

تضم هذه المرحلة قصائد متباينة ، لا يمكن أن تخضع لمقياس نقدي واحد ، سواء من حيث تركيبها أو مضمونها . ويكفي أن نذكر في هذا المجال « فجر السلام » و « حفار القبور » و « المومس العمياء » و « الأسلحة والأطفال » و « انشودة المطر » . فمن حيث البناء الفني تقف القصائد الأربع في جهـــة ، وانشودة المطر في جهة أخرى . « أنشودة المطر » نموذج من نماذج شعرنا « الحر » ، بينما «المومس العمياء» مثلاً يمكن ارجاعها إلى نهاية المرحلة السابقة من حيث تركيبها ... إنها بسيطة جداً تعتمد على تنويع بسيط في استعمال التفاعيل ، ولكنها في الغالب تتكون من أبيات متساوية تتواتر قوافيها او تتوالى ، وتعتمد أسلوب التعبير المباشر ، وإن كانت في مجموعها تقوم على « رمز » . ولا تختلف عنها « حفار القبور » أو « الأسلحة والأطفال » في شيء . وان كانت «الاسلحة والأطفال » أكثر تعبيراً عن الواقعية الاشتراكية في مضمونها . أما « فجر السلام » فهي أقرب ما تكون

إلى الشكل التقليدي، وتذكرنا بالمواكب لجبران خليل جبران ، لأنه يستخدم التنويع عينه [1] .

في هذه المرحلة أصبحت الأسطورة جزءاً من قصيدة بدر . ولعل « المومس العمياء » أكثر قصائده تخمة بالأساطير التي تبدأ بياجوج وماجوج وتنتهي بميدوزا . انك وأنت تقرأ بعض قصائده تشعر انه صرف أياماً وليالي وهو يجمع الأساطير من كل كتاب، حتى يقدمها لك في قصيدة ، ترابط الهوامش حولها من كل جانب .

وقد أعاد السياب للقصيدة العربية ارتباطها بقضية الجماهير عن طريق كثير من تفاصيل الحياة اليومية ، التي تتحول إلى رموز ذات أبعاد ودلالات . «فالمومس العمياء » و « حفار القبور » ، والبائع المتجول الذي يشتري الحديد العتيق ، تحول من بعض جزئيات في الحياة اليومية إلى رموز لقسوة الحياة وحرمانها ،

---

(١) استخدم جبران البسيط ومجزوء الرمل ، واستخدم بدر البسيط وبحوراً ومجزوآت بحور أخرى .

وأنانية الفرد الذي يتمنى ان يموت الآخرون ليعيش ، الــخ ...

ولكن بدراً لم يكن واقعياً بالمعنى الحرفي للكلمة ، ولا واقعياً اشتراكياً بالمعنى الضيق ، ان شعره في هذه المرحلة ليس كله تصويراً خارجياً لبعض مظاهر الحياة، وليس كله هتافات وشعارات ، ولكنه شعر يلتزم بقضية كبرى ، ويعبر عن اهداف سياسية . إن انشودة المطر هي خير مثال على ما اقول :

« أكاد اسمع العراق يذخر بالرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال
حتى اذا ما فض عنها ختمها الرجال
لم تترك الرياح من ثمود
في الواد من اثر
اكاد اسمع النخيل يشرب المطر
واسمع القرى تئن والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع
عواصف الخليج والرعود منشد،
مطر ...

مطر ...
مطر ...
وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول حولها بشر .
مطر ...
مطر ...
مطر ...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع
ثم اعتللنا — خوف ان نلام — بالمطر
مطر ...
مطر ...
ومنذ أن كنا صغاراً ، كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر
وكل عام — حين يعشب الثرى - نجوع

ما مر عام ليس في العراق جوع
مطر ...
مطر ... [1]

انه يحس هنا بحركة التاريخ التي سيفض عنها ختمها الرجال يوماً ، فلا يبقى من ثمود في الوادي من أثر . وان كانت قصيدتاه « فجر السلام » و « الأسلحة والأطفال » أقرب إلى الالتزام الشيوعي التقليدي ، وهذا ما يعترف به .

(١) انشودة المطر صفحة ١٦٠

بدر التموزي

كما تجاوز بدر الرومانسية ، تجـــاوز الواقعية الاشتراكية . وكان تجاوزه لها ناتجاً عن أنه كان أعجز من أن يلتزم بخط سياسي مباشر . وهو في تكوينه لم يكن واقعياً اشتراكياً ، لقد كان مثالياً ... يقوم المثـــال عنده فوق الواقع ونقيضاً له . وحين أصبح شيوعياً كانت الشيوعية بالنسبة له شكلاً من هـــذه الثنائية .. انها المثال وهي نقيض الواقع . غير أن الشيوعية قابلةللتحقق،ومثال بدر غير قابل للتحقق.. انه وجه أمه التي « تنام نومة اللحود » . وكان بدر ريفياً يحمـــل تراث الريف العربي ورواسبه ،

عاطفياً يتأثر سلباً أو إيجاباً بأبسط المثيرات . ولقد كانت قصيدته « المومس العمياء » الشعرة التي قصمت ظهر البعير . ففي هذه القصيدة كان بدر « قوميـــاً عربياً » بالمعنى السلفي فهو يقول :

ما زلت أعرف كل ذاك ، فجربوني يا سكارى
من ضاجع العربية السمراء لا يلقى خسارا
كالقمح لونك يا ابنة العرب
كالفجر بين عرائش العنب
أو كالفرات على ملامحه
دعة الثرى وضراوة الذهب
لا تتركوني .. فالضحى نسبي :
من فاتح ومجاهد ونبي
عربية أنا : امتي دمها
خير الدماء كما يقول أبي

ونجد بجانب كلمة «العرب» إشارة، ونعود للهامش فنجد التعليق التالي : « ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفنيين . يجب ان تكون القومية شعبية والشعبية قومية . يجب جعل احفاد محمد وعمر وعلي

وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشة تليق بهم كبشر، وكورثة لأمجاد الأمة العربية . أفليس عاراً علينا نحن العرب ان تكون بناتنا بغايا يضاجعهن الناس من كل جنس ولون ؟؟ [1]. ولقد أدى نشر هـــذه القصيدة إلى انفصاله عن الشيوعيين ، واستقلاله سياسياً ؛ ولقد كانت القصيدة القشة التي قصمت ظهر البعير .

قاده انفصاله عن الشيوعيين إلى الاتجاه القومي سياسياً ، فانتج قصائد قومية عديدة ، بعضها عادي مثل بور سعيد ، وبعضها الآخر يتدفق حيوية وقوة مثل في « المغرب العربي » . كما قـــاده انفصاله عن الشيوعيين إلى العودة للمطلق . بات المطلق — بمعناه الفلسفي المجرد — محط نزوع بدر ، فانتقل من العادي واليومي ، إلى الأسطوري والرمزي ، كان الموت في المرحلة السابقة — حادثة ، وكان الجوع ظاهرة ، وكان النضال رجولة ، أما في هذه المرحلة فقد تحول

---

(١) المومس العمياء - مطبعة دار المعرفة بغداد - صفحة ٣١

الموت إلى اسطورة ... أصبح فداء اسطورياً ، يمثله تموز أو المسيح . إن تحول الموت إلى اسطورة ، ليس تصوراً شعرياً فقط ، انه ذو مضمون ايديولوجي أيضاً. فالسياب عندما كان يناضل كان يرى الخلاص في النضال .. في الدم الحقيقي الذي يسيل . ولهذا كانت « كل قطرة تراق من دم العبيد ، « ابتسام في انتظار مبسم جديد». أما الآن فالدم ليس دم العبيد، انه دم المسيح . الموت الفردي أصبح معجزة . كان هذا ناتجاً عن أنه لا يشترك في حركة التاريخ ، وانه يشعر بالعجز عن الاشتراك فيها. انه واقف يشاهدها، ويود لو استطاع أن يساهم فيها :

فيدلهم في دمي حنين
إلى رصاصة يشق ثلجها الزؤام
أعماق صدري ، كالجحيم يشعل العظام
أود لو عدوت أعضد المكافحين
أشد قبضتي ثم اصفع القدر
أود لو غرقت في دمي إلى القرار
لأحمل العبء مع البشر

وأبعث الحياة ان موتي انتصار [1] .

هكذا يحل التمني محل النضال ، ويصبح بديلاً له . وقد اتضح هذا منذ بدء هذه المرحلة حين أصبح الرجوع الى الماضي معزياً عن نضوب الحاضر ، او مغذياً لما فيه من امل كما حصل في قصيدة «في المغرب العربي» . إلا أنه ازداد وضوحاً منذ نهاية سنة ١٩٥٦ ولعل قصيدة «جيكور والمدينة» خير تعبير عن الفرار وإعلان العجز الكامل :

وجيكور خضراء ،
مس الأصيل
ذرى النخل فيها بشمس حزينه
ودربي اليها كومض البروق
بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنار المدينه
وعرّى يدي من وراء الضماد كأن الجراحات فيها
حروق
وجيكور من دونها قام سور وبوابة واحتوتها سكينه
فمن يخرق السور ؟ من يفتح الباب ؟ يدمي على
كل قفل يمينه ؟

---

(١) أنشودة المطر ـ ط اولى صفحة ١٤١ .

ويمناي لا مخلب للصراع فأسعى بها في دروب المدينه
ولا قبضة لابتعاث الحياة من الطين ... لكنها محض طينه
وجيكور من دونها قام سور وبوابة .. واحتوتها سكينه [1]

وكانت جيكور هي حلم هذه المرحلة ، ولكن بعث جيكور هو مطلق بدر غير القابل للتحقيق ، وهو يتملق به على الرغم من أنه يعرف بأنه حلم لن يتحقق . وكان هذا الحلم .. بعث جيكور يصبح رمزاً لبعث الأمة وتحرير الوطن.فجيكور في اندثارها رمز للموات ، وجيكور في اخضرارها رمز للحياة . وكان بدر يعلن أحياناً عن خيبته بحلمه ؛

يا شمس أيامي أما من رجوع ؟
. . . .
جيكور نامي في ظلام السنين [2]

خلال هذه المرحلة التقى بدر مع مجلة شعر فأصبح

---

(١) المرجع السابق ـ صفحة ١٠٣ .
(٢) المرجع السابق ـ العودة لجيكور صفحة ١٠٨

شاعراً من شعرائها،حتى أنه غاب عن صفحات الآداب خلال عام ١٩٥٧ كلها . وكان هذا يقوده إلى مزيد من « التغرب » .

هذا الاتجاه الجديد بما فيه من غربة ووحشة وحلم ويأس سماه بدر « الواقعية الجديدة » . والواقعية الجديدة هذه في نظر بدر هي الواقعية الحديثة التي تحدث عنها الناقد الشاعر الانكليزي الكبير ستيفن سبندر في محاضرته القيمة عن «الواقعية الجديدة والفن » وتتلخص واقعية سبندر الحديثة في ان « الفنان الحديث أصبح انطباعياً وسريالياً وتكعيبياً ورمزياً في محاولته الهادفة إلى ايجاد انسجام بين ذاته وذات المجتمع. ولكنه أبى لنفسه أن يكون من زمرة الطبيعيين الذين ينقلون الواقع نقلاً فوتوغرافياً ولم يلبث الفنان الحديث حتى اهتدى إلى مخرج – كما يقول سبندر – وقد وجد هذا المخرج في الواقعية الحديثة . وهي في رأيه تحليل الفنان للمجتمع الذي يعيش فيه تحليلاً عميقاً فيه أكبر عدد مستطاع من الحقائق التي يدركها بنفاذ بصره ، ولا تهم بعد ذلك وجهة النظر التي ينظر منها ما دام تحليله كذلك .

وحين يطبق بدر الواقعية الحديثة على انتاجنا الأدبي يقول : « أما انتاجنا الواقعي أو الملتزم فهو في كثير من الأحيان خلو من الفن او بعيـــد عن المعنى الصحيح للواقعية والالتزام . والمنظومات السياسة والقصص التي كانت جديرة بان تكون مقالاً افتتاحياً في جريدة تملأ مجلاتنا ومكتباتنا واذاعاتنا . ويرى أن انتاج نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الملك نوري انتاج واقعي بلغ حد الروعة [1] .

لقد أصبح مقياس سبندر الذاتي مقياساً لبدر . فالشاعر هو محور العالم ، ونفاذ بصره هو بديـــل الايديولوجية العلمية ، ومهمته أن يحلل المجتمع «تحليلاً عميقاً » مهما كانت أداته . ان سبندر « مثالي » ولقد انزلق بدر الى هوته ، كانت النتيجة قصائده الموحشة التي نشر أكثرها في « مجلة شعر ». ولقد كان تعاونه مع « مجلة شعر » انطلاقاً من هذا المبدأ .

ومع ذلك فقد أنتج بدر في هذه المرحلة قصائده:

---

(١) مجلة الآداب - « وسائل تعريف العرب بنتاجهم الأدبي الحديث » اكتوبر ١٩٥٦ - صفحة ٢٢ .

مدينة بلا مطر ، جيكور والمدينة ، النهر والموت ، رسالة من مقبرة ، في المغرب العربي ، المسيح بعد الصلب والمبغى الخ ..

وصدف – خلا هذه المرحلة – ان حدث الصدام الدموي بين الشيوعيين و « القوميين العرب » في العراق ، فأدخل بدر قلمه حلبة الصراع ، ووقف ضد الشيوعيين . وكانت من نتيجة ذلك بعض القصائد نذكر منها المبغى[1] و « رؤيا في عام ١٩٥٦ »[2] و «العودة لجيكور[3]» هذا بالاضافة الى مقالاته السياسية التي نشرت في الحرية البغدادية وغيرها. ولم يكن موقفه من الشيوعية موقفاً سياسياً فحسب ، بل كان موقفاً فكرياً. فبدر لا يحارب دعوة سياسية ، انه يحارب ايديولوجية . صحيح أن بدراً كان قومياً عربياً ، وكان مع الوحدة ولكن هذا العامل كان العامل الثانوي في صراعه

---

(١) انشودة المطر – ص ١٣٥ ط اولى. وقد كتب تحتها في الهامش : كتبت في العهد المباد » ولكن هذا ليس صحيحاً . فقد كتبت في عهد عبد الكريم قاسم .

(٢) المصدر السابق – ١١٦ – .

(٣) المصدر السابق – ١٠٨ – .

مع الشيوعيين. العامل الأول والأساسي هو «مثاليته» فبدر الذي كان شيوعياً حقيقياً . كان «مثالياً» يرفع شعارات الحزب الشيوعي العراقي،لا رغبة في التضليل وإنما لأن الشيوعية في مرحلة كانت « مطلقة ». ولقد دخل هذا الصراع ضعيفاً مهزوزاً ، فكانت النتيجة ان مات بتأثير منه كما أثبتت تقارير الأطباء النفسيين.

وهذه المرحلة هي عهد بدر الذهبي. لقد بلغ ذروة مجده ، وأثبت ريادته للشعر الحر بجدارة ، بعد أن تراجعت نازك .

ولقد أثبت في هذه المرحلة تمثله لتجربة اليوت تمثلاً حياً ويبدو ذلك واضحاً في عدد من قصائده .

ومع أن في شعر هذه المرحلة غثاثة أحياناً ، فغثها قليل بالنسبة للمراحل السابقة ، والمرحلة الأخيرة اللاحقة .

العودة إلى الذات

المرحلة الأخيرة من حياة بدر فقيرة ومحزنة . لقد واجه بدر قدره ، وأصبح يدافع عن « مجرد بقائه » . الموت لم يعد رجولة ولا حباً ولا فداء .. بل أصبح عبثاً ... ولكنه عبث لا يرد ولا يعالج ، ولا يقتنع من الغنيمة بالأياب .

خيّم شبح الموت على بدر ، فأخذ ينظر إلى كل شيء من خلاله . ان قارىء شعره في هذه المرحـــلة (المعبد الغريق ومنزل الأقنان، وشناشيل ابنة الجلبي واقبال) يلمس كيف أصبحت الحياة في نظره موتاً فقط . لقد تضاءل كل شيء في عينيه ، إلا شبح الموت الذي أخذ يكبر ويكبر . الموت الذي خطف وفيقه واخترم بودلير ، وجعل جيكور خرائب . الموت الحقيقة الوحيدة في الوجود .

وكان – والألم ينهش جسمه – يحس بدبيب الموت في أوصاله ، فيطلق من اعماقه احتجاجاً مخنوقاً ولكنه عنيف :

« أهكذا السنون تذهب
أهكذا الحياة تنضب
أحس انني أذوب .. اتعب
اموت كالشجر »[1] .

ولكنه كان يصرخ أحياناً :

« منطرحاً أصيح .. أنهش الحجار »
أريد أن أموت يا اله »

أو :

« رصاصة الرحمة يا إلهي »

إن بدراً يعانق موته .. ويصارع موته .. الموت موته الخاص ، لا شريك له فيه ولا نصير . ومن يستطيع أن يناصره؟ من يستطيع أن يحرره من قدره؟ لا أحد ... ليواجه إذن موته الخاص العابث الذي

---

(١) ـ المعبد الغريق ـ دار جدي ـ ١٤٣ ـ .

لا يحمل أي مضمون اجتماعي . انه يلقاه متذمراً ، ولكنه يود معانقته لأن فيه الخلاص . انه يكرهه لأنه خطف أمه، ولكنه يريده لأنه يحرره من الشعور بالفقدان ، وهو يكرهه لأنه يهدده في مجرد بقائه ، ولكن أي معنى ظل لبقائه بعد أن انهارت عوالمه واحداً بعد الآخر .

مرحلته الأخيرة حرمته من كل شيء حتى القدرة على المشي ، فأصبح الشعر رفيقه الوحيد. كان يتحدث مع الزوار ويصارع الجن أو يكتب شعراً . شعر هذه المرحلة لا جديد فيه . انه شعر ذاتي وانفعالي وغث في أحيان كثيرة ، نستثني من ذلـــك بعض القصائد ، ومنها « سفر أيوب [١] ». لقد أقعد المرض بدراً عن المشي ، وأقعده عن المضي في متابعة تجربته الشعرية . انه توقف قبل أن يستنفد .

---

(١) منزل الأقنان ص ٢٤٨ .

شعر بدر

أعطى بدر خلال حياته القصيرة عطاء جزيلا ، يفوق من حيث الكم والكيف ما أعطاه أي من معاصريه خلال الفترة ذاتها . فلبدر :

١ – أزهار ذابلة صدر سنة ١٩٤٧

٢ – أساطير صدر سنة ١٩٥٠

٣ – المومس العمياء صدر سنة ١٩٥٤

٤ – الأسلحة والأطفال صدر سنة ١٩٥٥

٥ – حفار القبور .

٦ – انشودة المطر صدر سنة ١٩٦٠ عن دار مجلة شعر .

٧ – المعبد الغريق صدر سنة ١٩٦٢ عن دار العلم للملايين .

٨ – منزل الاقنان صدر سنة ١٩٦٣ عن دار العلم للملايين .

٩ – شناشيل ابنة الجلبي صدر سنة ١٩٦٤ عن دار الطليعة .

١٠ – اقبال صدر سنة ١٩٦٥ عن دار الطليعة

وقد جمعت الآن في هذا الديوان بالإضافة إلى قصائد لم تنشر بعد ، وسوف تصدر في جزء آخر .

ولبدر أيضاً شعر كثير غير منشور ، يعود قسم منه إلى سنوات ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ولديّ شيء منه . وهنالك قصيدته الطويلة « بين الروح والجسد » التي أرسلها للشاعر علي محمود طه ، ولكنه مات قبل أن يكتب لها مقدمة . وتناهز هذه القصيدة الألف بيت. ثم هنالك مجموعـــة من قصائده مع السيد محمد علي اسماعيل ، لم نستطع الحصول عليها حتى الآن . وله قصائد نشرت في جرائد عراقية قبل سنة ١٩٥٣ ، ولكنها لم تنشر بعد .

والآن ما هي أبعاد تجربة بدر الشعرية ؟

ان تجربة بدر الشعرية فذة ومعقدة . وهي تجمع ثنائيات متناقضة. ويمكن أن نحدد أبعاد هذه التجربة بما يلي

أولاً : معناةبدر دهنية ،وتقوم المعاناة فيها بناءعلى

تصور الأمور تصورا ذهنياً . ففي العالم طرفان ، المطلق والواقع ، الحب والموت ، الحادثة والاسطورة، والحياة صراع بين قطبين دائماً . هذا مـــا يبدو في شعره ، وما عبر عنه في إحدى مقالاته . قال « وقد كانت وظيفة الأدب ، أو بالحري وظيفة الرائع منه تصوير هذا الصراع القائم بين الشر وبين الانسان، وما زالت وظيفته حتى يومنا هـــذا »[1] . ويبدو هذا أيضاً من الشعراء الذين أعجب بهـــم ، وعكف على انتاجهم يتملاه ويتمثله . ومن هؤلاء المتنبي والجاحظ وأبو العلاء المعري[2] الذين يسميهم العمالقة الثلاثة ، و ت . س . اليوت واديث ستويل . ولكن انفعالية بدر ، وعدم توفر موقف علمي لديه ، كان يجعل هذه الثنائية مهزوزة ، فلم تنعكس في موقف ديالكتيكي من التاريخ والكون،ولم تعبر عن نفسها بموقف «أخلاقي». وكان من نتيجة هذا أن تحولت هذه « الثنائية » إلى امتدادات نحو الخارج ، وانكماشات نحـــو الذات ،

---

(١) مجلة الاداب ـ اكتوبر ١٩٥٦ ـ ص٢٢.

(٢) المرجع السابق .

ولكنها لم تجد غناها في الخارج كما لم تجده في الذات .

معاناة بدر هذه قادته إلى قضايا كبيرة كالحرب ـ والسلم ، الكفاح ضد الاستغلال والاستعمار ، والانحلال الاجتماعي الخ وقصائده من بداية المرحلة الثانية حتى منتصف الثالثة تعبير عن مثل هذه القضايا . وقد تحول في المرحلة الثالثة إلى قضايا كبرى أخرى كالحب والموت ، الحب والفداء ، الحياة والموت الخ وقصائده من منتصف المرحلة الثالثة حتى موته تدور حول مثل هذه القضايا .

ولقد كانت موهبة بدر قادرة على تحويل مثل هذه القضايا الكبيرة إلى شعر خالد ، إلا أن انفعالية بدر وعدم انطلاقه من موقف « عقائدي » ثابت مهما كان ، جعل معاناته الذهنيـــة محدودة وضحلة أحياناً .. فكرياً وشعرياً ، لم يكن بدر يقـــل عن اليوت في موهبته ، ولكنه كان يقل عنه في « عمقه » .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أسباب هذا « الاهتزاز » الذي أشرنا إليـــه . وهو يعود في رأيي إلى عاملين أساسين :

الأول : نمو نفسي غير متوازن، وضعف جسمي.
الثاني : التعرض لصراعات الثقافات المتحاربة دون وجود خلفية مناسبة ، ودون وجود قدرة على الوقوف في العاصفة .

فلم يكن غريباً والحالة هـــذه أن ينتقل بدر من جهة إلى أخرى وأن يعاني رحلة الذات والموضوع ، ولكن معاناة رد الفعل .

قال انسي الحاج عن بدر انه : « جاهلي بدوي فولكلوري خرافي انكلوسكسوني على واقعي هجـاء ورثاء مداح بكاء، يسيل به الشعر سيل قريحة فارطة، ويسيل معه الشعر حتى الموت »[1] وهــــذا في رأيي أروع تصوير كاريكاتوري لبدر .

ثانياً : تعدد الثقافات ، نهـــل بدر من ثقافات مختلفة ، فقرأ الأدب العربي والأدب الروسي وأدب اللغة الانكليزية. ولقد توفر على دراسة الأول والأخير منها ، وتمثل آراء أكبر الشعراء العرب والانكليز

---

(١) ملحق النهار – العدد ٨٩٥٠ – الأحد ٧ شباط ١٩٦٥ :

والأميركيين . ولقد درس القرآن كما درس الانجيل والتوراة ، وقرأ شيئاً من التراث الفكري الماركسي، كما قرأ بعض التراث الفكري الغربي ، وكان كل هذا يبدو في شعره ، بأشكال مختلفة ، وبمقادير متفاوتة .

ثالثاً : تعدد الأوضاع الاجتماعية . نشأ بدر في بيئة ريفية فلاحية فتربى على قيمها وتقاليدها ، وقد انتقل إلى المدينة طالباً فقيراً وهو في السابعة عشرة من عمره . عاش من هذا التاريخ في المدينة . كان في المرحلة الأولى طالباً شيوعياً،ثم أصبح موظفاً شيوعياً. طورد فهرب من العراق ثم عاد إلى العراق موظفاً . أصبح بورجوازياً صغـــيراً . اختلف مع الشيوعيين -كما ذكرنا- فصف مع القوميين العرب وظل مضطهداً حتى سنة ١٩٥٨ ، ولكنه تعرض لاضطهاد أشد بعد ثورة الرابع عشر من تموز ، وفصل من عمله مدة . كان مرتبطاً بالريف وقيمه وتقاليده ، وكان معجباً بالتراث العربي الكلاسيكي، ومعجباً بالأدب الانكليزي في الوقت ذاته .

لهذا كله جمع شعر بدر بعض ما في الشعر الحديث

وبعض ما في الشعر التقليدي ، وظهرت فيه الروح الشعبية الريفية ، كما ظهرت فيه روح مثقف مشبع بالمثل الليبرالية من مثقفي البلدان المتخلفة . ونتيجة لكل ذلك تفرد شعر بدر بملامح وميزات نوجزها فيما يلي :

١ – بروز روح الشعر العربي التقليدي . وقد تجلى هذا في الاهتمام بجزالة اللفظ ، وحسن السبك ، وبالعروض اهتماماً خاصاً . ان بدر تفوّق على زملائه من الشعراء المحدثين بهذا كله . لقد كانت عربيته – عموماً – أسلم وأقوى ، وعروضه – لا سيما الحديث منه – أصح وأغنى . وبينما كان الشعر الحديث يميل إلى الهمس – في الأغلب – كان شعر بدر يميل إلى الجرس الحاد . ليس هذا فحسب ، إذ ان بدراً ظل يستعمل التعبير المباشر ، ويلجأ للتشبيه العادي كثيراً. الكاف تدخل بين كلمتين أو صورتين حتى لو كان الاستغناء عنها ممكناً . وبالإضافة إلى ذلك فقد ظل حتى أواخر أيامه ينظم قصائد عمودية ، وكانت بعض قصائده تزخر بالإسهاب أحياناً ، بينما كانت قصائد

أخرى لا تتمتع بوحدة القصيدة الحديثة . ويعود هذا إلى أن بدراً كان منفعلاً أكثر مما كان متأملاً ، وإلى أنه كان ينساح بدلاً من أن يضرب في الأعماق .

٢ - استعمال الأسطورة والرمز. لم يستعمل شاعر عربي الأسطورة والرمز كما استعملها بدر . ولقد أكثر منها حتى أصبح من النادر أن تخلو قصيدة من قصائده من رمز أو اسطورة، وكانت الأسطورة أحياناً تصبح جزءاً من القصيدة كما حدث في قصيدة « مدينة بلا مطر » بينما تظل في أحيان أخرى مجرد كلمة من كلماتها ، غريبة ومعزولة لا يبررها إلا الهامش الذي يوضع لتفسيرها . في الحالة الأولى كانت الأسطورة تزيد القصيدة غنى ، أما في الحالة الثانية فكانت تفقد القصيدة « شعريتها » أو بعض شعريتها كما حدث في «المومس العمياء»[١] مثلاً أو «سربروس في بابل»[٢].

ان وظيفة الأسطورة في شعر بدر غير واضحة تماماً . ولقد حاول هو أن يفسر لجوءه للأسطورة فما

---

(١) انشودة المطر ، ص ٥٠٩ . (٢) انشودة المطر ، ص ٤٨٢ .

وجد مبرراً مقنعاً : قال بدر : « هناك مظهر مهم من مظاهر الشعر الحديث : هو اللجوء إلى الخرافة والأسطورة ، إلى الرموز . ولم تكن الحاجة إلى الرمز ، إلى الأسطورة أمسّ مما هي اليوم . فنحن نعيش في عالم لا شعر فيه ، أعني أن القيم التي تسوده قيم لا شعرية ، والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح . وراحت الأشياء التي كان في وسع الشاعر أن يقولها ، أن يحوّلها إلى جزء من نفسه ، تتحطم واحداً فواحداً ، أو تنسحب إلى هامش الحياة. إذن فالتعبير المباشر ، عن اللاشعور لن يكون شعراً فماذا يفعل الشاعر إذن؟. عاد إلى الأساطير ، الى الخرافات التي ما تزال تحتفظ بحرارتها لأنها ليست جزءاً من هذا العالم . عاد اليها ليستعملها رموزاً ، وليبني منها عوالم يتحدى بها منطق الذهب والحديد . كما أنه راح من جهة أخرى ، يخلق أساطير جديدة ، وإن كانت محاولاته في خلق هذا النوع من الأساطير قليلة حتى الآن [1] .

---

(١) مجلة شعر : العدد الثالث ـ السنة الأولى ، أخبار وقضايا ـ ص ١١١ ـ ١١٣ :

عالم الأسطورة أغنى من الواقع : هذا ما يذهب اليه بدر، بعد أن لاذ بالفرار يائساً مهزوماً. الأسطورة إذن هي نقيض الواقع ، هي الحب والحياة والحرية والغنى . أما الواقع فهو الكره والموت والاضطهاد والموت .

والحقيقة أن عدم تحديده لوظيفتها بوعي من جهة واعتبارها نقيضاً للواقع من جهة ثانية، جعله غير قادر على الاستفادة منها دائماً. ان الأسطورة التي تغني الشعر هي الأسطورة التي تندمج بالتجربة الشعرية ، لا التي تكون واجهة قصيدة . والاسطورة لكي تغني الشعر يجب أن تكون قادرة على استثارة المتلقي، بينما حشد السياب من أساطير الهند والصين واليونان وأوروبا ما لا يثير في القارىء العربي أي احساس .

وإذا كان اليوت يستخدم مثل هذه الأساطير فهو يستخدمها لقارىء هي جزء من حضارته وتاريخه، وتثير فيه أحلاماً بالبطولة والبراءة ، في عالم « الذهب والحديد » الذي ذكره بدر. ان هذا العالم ليس عالمنا، وإن هذه الأساطير ليست أساطيرنا . ومـــا زال في

واقعنا غنى يغنينا عن غنى الأسطورة .. فنحن الآن نخلق عالماً ، سيكون أساطير ورموزاً في المستقبل .

ولكن بدراً الذي قال مرة : « إن الهنا فينا » اضاع « إلهه » هذا فبحث عنه في اللات والعزى وزيوس وعشتار .

٣ — الموسيقى الحادة والاستفادة من الأوزان.

موسيقى شعر بدر حادة.. حتى عندما تكون هامسة أو رثائية ، وتعود حدتها إلى أن بدراً كان حريصاً على الموسيقى الخارجية . انها بعض مظاهر الشعر التقليدي من جهة ، وتعويض عن الخواء الداخـــلي والخارجي الذي يحسه بدر من جهة ثانية . الموسيقى هنا « مارش » عسكري أو لحن جنائزي ، كان بدر يسير في خط مخالف للاتجاه العام للشعر الحديث الأكثر نضجاً وتقدماً ، ولكنه في الواقع كان يقدم للشعر الحديث نموذجاً جيداً يزخر بالنغم الخارجي والنغم الداخلي أحياناً، فيزيد التجربة الشعرية غنى وحرارة.

ولقد استفاد بدر من بحور الشعر العربي، فاستعمل الرجز ، حمار الشعراء القدامى والمحدثين فجعل منه

حصاناً كما حدث في « أنشودة المطر » ، واستخدم صيغة من صيغ السريع الحديثة فأحسن استخدامها كما حدث في « رسالة من مقبرة » ، واستخدم تفعيلة المتدارك المهملة « فاعلن » فاذا نحن أمـــام قصيدة حية زاخرة كما حدث في «المسيح بعد الصلب» وبينما نجد أكثر الشعراء المحدثين يكثرون من استخدام الرجز حتى أصبح بحرهم المألوف ، نوّع بدر في شعره، فاستفاد من الكامل والوافر والرمل والسريع والمتقارب والمتدارك .

وكان بدر يلجأ أحياناً إلى الانتقال من بحر إلى بحر ، ليستفيد من تنوع النغم كما حدث في « المغرب العربي » وفي «جيكور والمدينة ». وكان ينوّع أحياناً في استعمال التفاعيل كما حدث في «المسيح بعد الصلب» إذ إنه أدخل في القصيدة مقطعاً من مشتقات التفعيلة الأساسية « فاعلن » التي التزمها في القصيدة كلها .

٤ ــ الانسياح بــدل التمركز . قصيدة بدر مثل « الدوائر المائية » ... انهـــا تنساح وتنساح حتى تتلاشى . وهي تتسع بدل أن تتعمق ، انها بلا بؤرة

ثابتة ، لأن بؤرتها تصبح دائرة . وقد نتج هذا عن توفر شاعرية متدفقة من جهة ، وعدم الانطلاق من مركز ثابت . قصيدة بدر كالعاصفة حتى مركزها يتحرك ، ولكنها على الرغم من ذلك لا تتبعثر شظايا، ولا تقبل التفريق أبياتا ، فهي وحدة فنية يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص.مع أن هذا لا يشمل القصائد الهزيلة والمنظومة والتقليدية من شعره، فتلك مستثناة.

إلا أن هذا الانسياح ما كان يفقدها في كثير من الأحيان « التركيز » الشعري . الانسياح هنا لم يكن على حساب التركيز ، ولم يفقد القصيدة « كثافتها » بل أغنى رؤيتها الشعرية .

٥ – العفوية . قصيدة بدر مكتوبة بوعي، ولكن الصناعة فيها لا تكشف عن نفسها بخلاف أكثر قصائد الشعر الحديث التي – مهما كانت أصالتها – تكشف عن الصناعة فيها بشكل أو آخر . إن صلاح عبد الصبور شاعر أصيل ، ولكنك لا تقرأ قصيدة له إلا وتشعر بالفكر المصمم وراء كل بيت من أبياتها . هذا لا ينطبق على بدر ، لأن قصيدته – على الرغم من أنها

ثمرة نوع من المعاناة الذهنية — تطل من ورائها شخصية شاعر كبير ليس الا .

وهذا لا يعني أن شعره « خام » ، وأن قليلاً من الصقل أو إعادة النظر كان سيزيده قوة، فليست هذه هي المسألة المطروحة ، إن ما هو مطروح هو أن كلمة بدر انبثقت من نفس شاعر معطاء ، كان يسعى أن يكون شاعراً فقط ، ولم يكن يستطيع أن يكون ناقداً مفكراً وشاعراً في الوقت ذاته .

ومع هذا فقد كان بدر مدركاً لأسرار صناعته الشعرية ، كما لم يدركها أكثر زملائه من المحدثين .

غير أن بعض القصائد كان أثر الصناعة فيها بادياً مثل قصيدته « مرثية الآلهة » و « من رؤيا فوكاي » و « مرثية جيكور[1] ».

وكانت ثقة بدر بقدرته تدفعه الى النظم ، أحياناً كما حدث في « قافلة الضياع » أو « المخبر » [2] وقصائد غيرهما .

---

(١) انشودة المطر ٣٤٩، ٣٥٥ ، ٤٠٣ .

(٢) انشودة المطر ص ٣٦٨ ، ٣٣٨ .

ط ط ط

٦ — الاسهاب بدل التركيز . يميل الشعر الحديث الى التركيز . القصيدة الحديثة قصيدة مركزة تفيض بالإيحاءات والإيماءات ، وتتفجر بالدلالات ، ولكنها تقتصد كثيراً في الكلمات. قصيدة بدر ليست كذلك انها « فيض » . ولعل من أهم أسباب ذلك عاملان : أولهما أن بدراً لم يكن يميل الى القصيدة « المركزة » ، وثانيهما أن شاعريته المفرطة كانت تعطي بغزارة . وكانت الغزارة عند بدر تقوم مقام التركيز ، كما قام الانفعال مقام التأمل .

كتب بدر مرة يقول : ومهما يكن ، فان كوني، أنا ونازك أو باكثير أول من كتب الشعر أو آخر من كتبه ليس بالأمر المهم . وانما الأمر المهم هو أن يكتب الشاعر فيجيد فيما كتبه ، ولن يشفع له — ان لم يجد — انه كان أول من كتب على هذا الوزن ، أو تلك القافية « ... » ولنكن متواضعين ونعترف بأننا ما نزال جميعاً في دور التجربة ، يحالفنا النجاح حيناً، ويصيبنا الفشل أحياناً كثيرة . ولا بد للشاعر الذي قدر له ، أن يكون شاعر هذا الجيل العربي ، أن يولد

ذات يوم مخبراً جهود الذين سبقوه ، أو لعله ما زال يمسك القلم بيده حتى الآن [1] .

لقد كان بدر يعرف انها تجربة .

وكان يعرف أن هناك من الآتين من سوف يتجاوزونه ، ولكنه حاول أن يعطي هذه التجربة كل ما يستطيع .

ناجي علوش

---

(١) مجلة الآداب – حزيران ١٩٥٤ ، مناقشات ص – ٦٩ –

ك ك ك

ازهار وأساطير

أزهار وأساطير

اقداح واحلام

أنا مــــا أزال وفي يدي قدَحي
يا ليــــل ، أين تفرّق الشَّرْبُ
ما زلت أشربهـــا وأشربها
حتى ترنّح أفقك الرّحْبُ
الشرق عُفـّر بالضباب فمــا
يبـــدو ، فأين سناك يا غربُ ؟
ما للنجوم غرقْنَ ، من سأمٍ ،
في ضوئهن ، وكادت الشُّهُب ؟
أنا مــا أزال وفي يدي قدحي
يا ليلُ ، أين تفرق الشربُ ؟

* * *

الحان بالشهوات مصطخبٌ
حتى يـــكاد بهنّ ينهارُ
وكأنّ مصباحَيه من ضَرَجٍ
كفّانِ مدّهما لي العــارُ
كفّان ؟! بل ثغران قد صُبغا
بدمٍ تدفّق منه تيّـــارُ
كأسان ملؤهمـــا طلّ عُصرت
من مهجتين رماهمـــا الحبُّ
أو مخلبـــان عليهما مِزَقٌ
حمراءُ تزعم أنّهـــا قلبُ

* * *

يا ليل ، أين تطوف بي قدمي ؟
في أيّ مُنعطَفٍ من الظُلَمِ ؟
تلك الطريقُ أكاد أعرفها ،
بالأمس عتّمَ طيفُها حُلُمي
هي غِمدُ خنجرك الرهيب ، وقد
جرّدتَه ومسحتَ عنـــه دمي

تلك الطريق على جوانبها
تتمزّق الخطوات أو تكبو
تتثاءب الأجسادُ جائعةً
فيها ، كما يتثاءب الذئب

* * *

حسناءُ يُلهب عُريُها ظمأي
فأكاد اشرب ذلك العُرْيا
وأكاد أحطمه ، فتحطمني
عينان جائعتان ، كالدنيا ؛
غرستْ يدُ الحمى على فمها
زَهَراً بلا شجر — فلا سَقيا !
إنْ فتّحته بجرّها شفةٌ
ظمأى يُعربد فوقها نَدْبُ
رقصَ اللهيبُ على كمائمه
ومشى الطّلاءُ يهزّه الوَثبُ

* * *

عَينٌ يرنّح هُدْبَها نَفَسي
وفمٌ يقطع هَمسَه الداءُ
ويدٌ على كتفي مُلجلجةٌ
واخجلتاه ! أتلك حوّاءُ ؟ !
لا كنتُ آدَمها ولا لفحتْ
فردوسي الخمريّ صحراءُ !
صوت النعّاس يرنّ في أُفُقي
فتذوبُ ، ناعسةً ، له السُّحبُ
وانثال ، من سَهَري على سَهَري ،
يُنبوعُهُ المتثائبُ الرَّطْب .

* * *

يا نَوْمُ ، بَينَ جوانحي أمَلٌ
لم أدْرِ ، قبلكَ ، أنه أمَلُ
مثلُ الفراشةِ بات يحبسُها
دَوْحٌ بذائب طلّه خَضِلُ
لولا خفوقُ جناحها ، غفلتْ
بيضُ الأزاهر عنه والمُقَلُ

أنا من ظلالكَ بـين أوديةٍ
عذراءَ ، كلُّ مهادهـا عُشبُ
هام الضباب على رفارفهـا
طلّ الوشاح .. كنجمةٍ تخبو

* * *

ماذا أراهُ ؟! أطيفُها مسحتْ
عنه الترابَ أناملُ الغسَقِ ؟
هو يا فؤادي غيرُها ، رِفةٌ ،
هو من دمائك أنت ، من حُرقي !
هو مـا نحنُّ إليه ، بادلني
حُبّي وفتّح بالسّنا أفُقي
فاذا لثمتُ فغيرَ خادعةٍ
باتت لكُلّ مخادعٍ تصبو
أفكان سُوراً قـامَ بَينهما
- بين الخيانة والهوى - هُدْب ؟

* * *

خفقتْ ذوائبُهـا على شَفَتي
وسنى ، فأسكَرَ عطرُها نفَسي

نَهرٌ من الأطيـــاب أرْشفني
ريحــاً تُريب مجامرَ الغَلَسِ
فكأنْ نايــاً ضمّخته يدا
آذارَ ، غَـرّدَ ليــلةَ العُرُسِ
فغفا ، ومـــا زالت ملاحنه
مِلْءَ الفضاءِ ، يُعيدها الحبُّ
أو أنْ سَوْسنةٌ يُراقِصُهـــا
رَجْعُ الغناء ، بشَعرهـــا تربو

* * *

يا جِسمَ طَيفكِ ، أنتِ ، يا شَبَحاً
من ذكرياتي ، يا هوىً خَدَعا
لعناقي الحنِقاتُ مـــا برحتْ
تعتاد خِدْركِ والظـــلامَ معا
خفقتْ بأجنحـــة الغُراب على
عَينَيكِ تنشر حولكِ الفَزَعا
الصُّبحُ ، صُبحكِ ، ضِحكُ شامتةٍ
والليل ، ليلك ، مضجعٌ ينبو

وإذا هلكتِ غداً ، فلا تجدي
قَبراً ، ومزّق صدرك الذئبُ ؟

* * *

والبومُ يمـلأ عُشّه نُتَفـاً
من شَعرك المتهرّئ نَتّخِـرِ
ويعود ثغرك للذباب
ويداك بالحجرِ ،
لا تدفعان سفةِ
أخرس لغوُها وتري
وليُسقَ من دمك الخبيث غـداً
دَوحٌ تعشّش فوقـه الغُرْبُ
تأوي الصلال إلى جوانبه
غرثى ، ويعوي تحته الكلبُ !

١٩٤٦/١٢/١٤

اهداء

« إلى المنتظـَرة .. »

أطلـّي على طرفيَ الدامع خيالاً من الكوكب السّاطعِ
ظلاً من الأغصن الحالمات على ضفـّة الجدول الوادعِ
وطوفي أناشيد في خاطري يناغين من ُحبّيَ الضائع
يفجّرُنَ من قلبي المستفيض ويقطرْنَ في قلبي السامع

* * *

لعينيكِ ، للكوكبين اللذين يصبان في ناظريّ الضياءْ
لنبعين ، كالدهر ، لا ينضبان ولا يستقيان الحيارى الظماء
لعينيك ينثـال بالأغنيات فؤاد أطال انثيال الدماء
يودّ ، إذا ما دعاكِ اللسانُ على البُعدِ ، لو ذاب فيه النداء

* * *

يطول انتظاري ، لعلي أراك لعلي ، ألاقيكِ بين البَشَرْ
سألقاكِ . لا بد لي أن أراك وإن كان بالناظر المحتضَرْ
فدَيتُ التي صوَّرَتها مناي وظلَّ الكرى في هجير السَّهرْ
أطلي على من حباكِ الحياة فأصبحت حسناء ملء النظرْ !

* * *

أطلّي فتاةَ الهوى والخيال على ناظرٍ بالرؤى عالقِ ،
بعشرينَ من ريِّقاتِ السنين عَبَرنَ المدرات في خافقي
بعشرين كُلاً وهبتُ الربيعَ وما فيه ، من عُمري العاشقِ
فما ظلَّ إلا ربيعٌ صغير أخبّيه للموعد الرائقِ

* * *

سأروي على مسمعَيكِ الغداةَ أحاديث سمّيتهُنّ الهوى
وأنباءَ قلبٍ غريق السراب شقيّ التداني ، كئيب النوى
أصيخي ..فهذي فتاة الحقول وهذا غرامٌ هناك انطوى
أتدرين عن ربّة الراعيات ؟ عن الريف؟عمايكون ُالجوى؟

* * *

هو الريف ، هل تبصرين النخيل ؟
وهـــذي أغانيه ، هل تسمعين ؟

وذاك الفتى شاعرٌ في صباه   وتلك التي علّمته الحنين
هي الفنّ من نَبعه المستطاب،   هي الحبّ من مُستقاه الحزين
رآهـــا تغني وراء القطيع   ك (بنلوبَ) تستمهل العاشقين

* * *

فما كان غيرُ التقاء الفؤادين   في خفقةٍ منهما عاتِبه
وما كان غيرُ افترار الشفاه   بما يُشبه البسمةَ الخائبه
وكان الهوى ، ثم كان اللقاء   لقـاء الحبيبَين في ناحيه
فما قال: أهواكِ ، حتى ترامى   عياءٌ على ضفة الساقيه

* * *

وأوفى على العاشقَين الشتاء   ويومٌ دجا في ضُحاه السحاب
خلا الغابُ ما فيه الا النّخيل   وإلا العصافير ، فهو ارتقاب
وبين الحبيبين في جانبَيـه   من السّعف في كل ممشى ، حجاب
فما كان إلا وميضٌ أضاءَ   ذُرى النخل ، والنحل غيمٌ وذاب

* * *

ويا سدرةَ الغاب كيف استجارا   بأفنانكِ الناطفاتِ الميا
رآها وقـد بلّ من ثوبها   حياً زخّ ، فاستقبلتها يدا

على الجذع يستدفئان الصدور على مَوعـــدٍ ، كلُّ آهٍ بآه
سلي الجذع كيف التصاق الصدور بهزّاتها ، وابتعادُ الشفاه ؟

* * *

أشاهدتَ ياغابُ رَقص الضياء على قَطرةٍ بَينَ أهدابها ؟
تُرى أهي تبكي بدمع السماء أساها وأحزان أترابهـــا ؟
ولكنهـا كلُّ نَوْر الحقول ودفءِ الشذى بين أعشابها
وأفراحُ كلّ العصافير فيها وكلّ الفراشات في غابهـــا

* * *

وذاك الخصام الذي لو يُفدى لفدّيتُ ساعـاتِه بالوئام
أفدّيه من أجل يومٍ ترفّ يدٌ فيه أو لفتــةٌ ، بالسلام
ومن أجل عينين لا تستطيعان أن تنظرا دون ظلّ ابتسام
تذوب له قسوة في الأسارير ، كالصحو ينحلُّ عنـــه الغمام

خصاماً ولمّا نعلّ الكؤوس ؟ أحطّمتِها قبل أن نسكرا ؟
خصاماً، وما زال بعض الربيـع ندّياً على الصيف مخضَوْضرا؟
خصاماً ؟ فهل تمنعين العيونَ إذا لألأَ النّـورُ،أن تنظرا ؟
وهل تُوقفين انعكاس الخيالِ من النهر ، أن يملك المعبرا ؟

أغـانيَّ شبّابتي تَستبيكِ وتُدنيكِ مني، ففيمَ الجفاء ؟
كأنّ قوى ساحرٍ تستبدُّ بأقدامك البيض، عند المساء
ويُفضي بك الدَّرْب حيثُ استدار،
إلى مَوْعـدي بين ظلٍّ ومـاء
على الشطّ، بين ارتجاف القلوع وهمس النخيل، وصمت السماء

وحجّبتِ خدّيك عن ناظريّ بكفّيكِ حيناً، وبالمروَحات
سأشدو، وأشدو، فما تصنعين إذا احمر خدّاكِ للأغنيات ؟
وأرخيتِ كفيكِ مبهورتَين وأصغيتِ، واخضلّ حتى الموات
إلى أن يموت الشعاعُ الأخيرُ على الشرق، والحب، والامنيات

* * *

وهيهات، إن الهوى لن يموت ولكنّ بعض الهـوى يأفلُ
كما تأفل الأنجمُ الساهرات، كما يغرب الناظِرُ المُسبَلُ،
كما تستجمُّ البحارُ الفساح مليّاً، كما يرقد الجـدول
كنَوْمِ اللظى، كانطواء الجناحِ كما يصمتُ النايُ والشمألُ!

* * *

أعامٌ مضى والهوى ما يزالُ كما كان ، لا يعتريه الفتوْر ؟
أهذا هو الصّيفُ يوفي علينا فنلقاه ، ثانيةً ، كالزهور ؟
ولكنّهن زهور الخلود فلا أظمأتْ ريّهنّ الحرور
ولا نال من لونهن الشتاءُ ولا استنزفت عطرهُنّ الدهور
أغانيّ، والغاب قفرُ الوكون حبيسُ النسائم تحت الدوالي
ترى ماءه ، لاتـّقاد الهجير ، حريقاً بما فوقه من ظلال
وفوق التعاشيب، حيث الغصون ينـؤْنَ بأفيائهن الثقالِ ،
لها مضجعٌ هدْهدْته العطور؛ أأبصرت كيف اضطجاع الجمالِ؟

* * *

أأمسيتُ أستحضر الذكرياتِ وما كان بالأمسِ كلّ الحياه ؟
أضاعت حياتي ؟ أغاب الغرامُ ؟
أماتتْ، على الأغنياتْ ، الشفاه؟
أنَسي، وما زال غابُ النخيل خضيلاً وما زال فيه الرعاه،
حديثاً على مَوقد السامرين : أحبّا، وخابا، فوا حسرتاه؟!

* * *

أناديــــك ، لو تسمعين النـــداء
وأدعوكِ — أدعوكِ ؟! يا للجنون !

إذا رنّ في مسمعَيك الغداة من المهد صوتُ الرضيعِ الحنون
ونادى بك الزّوجُ أن ترضعيه ونادى صدىً أخفتته السنون
فما نفعُها صرخةٌ من لهيبٍ أدوّي بها؟ من عساني أكون؟!

١٣

أعفّرتُ من كبرياءِ النداء ؟ وأرجعتُ آمادي القهقرى ؟
نسيتُ التي صوّرتها مُناي وناديتُ أنثى ككل الورى؟!
وأعرضتُ عن مِسمَعٍ في السماء إلى مسمع في تُراب القرى !
أتُصغي فتاةُ الهوى والخيالِ وأدعو فتاة الهوى والثرى!؟

..وودّعتُ سجواءَ بين الحقول ودنيا عن الشرّ في معزلِ
وخلفتُ، في كلّ ركن خضيلٍ من الريف، ذكرى هوًى أوّلِ
قصاصاتِ أوراقيَ الهامساتِ بشِعري، على ضفّة الجدول
وجِذعاً كتبتُ اسمها الحلوَ فيه وناياً يغني مع الشمألِ .

فمَن هذه المسترقُّ القلوبَ صبيٌّ ملؤها روحُه الطافره

أما كنتُ ودّعتُ تلك العيونَ الظليلاتِ والخصلة النافرة ؟
كأني ترشّفتُ قبل الغداة سنى هذه النظرة الآسرة !
أما كان في الريف شيءٌ كهذا ؟ أما تُشبه الربّة الغابرة ؟ !

مشى العُمرُ ما بيننا فاصلاً فمن لي بأن أسبق الموْعدا ؟
ولكنه الحبُّ منه الزمانُ ثوان ، وبما احتواهُ المدى
أراها فأنفض عنها السنين كما تَنفُضُ الريحُ بَردَ الندى
فتغدو وعمري أخو عُمرها ويستوقفُ المولِدُ المولّدا

وهل تسمع الشعرَ إن قلته وفي مِسمعيها ضجيجُ السنين
أطلت على السبعِ من قبل عشرين عاماً، وما كنت إلا جنين؟
وأمسى — ولم تدرِ انت الغرام —
هواها حديث الورى أجمعين
لقد نبّأوها بهذا الهوى فقالت: وما اكثر العاشقين ؟!
أمن قلبهِ انثال هذا النشيدُ اليها ، إلى الذئبة الضاريه ؟
ولو لم يكن فيه طعمُ الدماءِ ما استشعرت رنة القافيه.
وما زالت تسبيه غمّازتان تبوحان بالبسمةِ الخافيه
وما زالتا تُذكران الخيال بما كان في الأعصُر الخاليه :

وبالحُبّ والغادةِ المستبد   صباها به ، يلعبان الوَرَقْ
وكيف استكان الاله الصغير   فألقى سهامَ الهوى والحَنَقْ
رهانٌ ، رمى فيه غمّازتيه   وَوَرْدَ الخدود،ونور الحدق؛
للهِ ، كيف اقتحمت القرونَ
ولم يخب في وجنتيــــكِ الألق ؟

كأن ابتسامتها والربيعَ   شقيقان ، لولا ذبولُ الزّهرْ
أآذارُ ينثر تلك الورودَ   على ثغرها؟ أم شُعاع القمر ؟
ففي ثغرها افترّ كلُّ الزمانِ   وما عُمرُ آذار إلا شَهَر
وبالروح فدّيْت تلك الشفاه   وان أذكرَتْني بكاس القدر !

* * *

أطــلي على طرفيَ الدامع   خيالاً من الكوكب الساطع
وظلاً من الأغصن الحالمات   على ضفة الجـدول الوادع
وطوفي أناشيد في خاطري   ينـاغين من حبيَ الضائع
يفجّرْن من قلبي المستفيض   ويقطرن في قلبي السامع

١٩٤٧/٢/١

في السوق القديم

- ١ -

الليل ، والسوق القديم
خفتت به الأصوات إلا غمغمات العابرين
وخطى الغريب وما تبثُّ الريحِ من نغم حزين
في ذلك الليل البهيم .
الليل ، والسوق القديم ، وغمغمات العابرين ؛
والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب ،
– مثل الضباب على الطريق –
من كل حانوت عتيق ،
بين الوجوه الشاحبات ، كأنه نغم يذوب
في ذلك السوق القديم .

– ٢ –

كم طاف قبلي من غريب ،
في ذلك السوق الكئيب .
فرأى ، وأغمض مقلتيه ، وغاب في الليل البهيم .
وارتجّ في حلق الدخان خيال نافذة تضاء ،
والريح تعبث بالدخان ...
الريح تعبث ، في فتور واكتئاب ، بالدخان ،
وصدى غناء ..
ناءٍ يذكّر بالليالي المقمرات وبالنخيل ؛
وأنا الغريب ... أظلّ أسمعه وأحلم بالرحيل
في ذلك السوق القديم .

– ٣ –

وتناثر الضوء الضئيل على البضائع كالغُبار ؛
يرمي الظلال على الظلال ؛ كأنها اللحن الرتيب ،
ويُريق ألوان المغيب الباردات على الجدار
بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب

الكوب يحلم بالشراب وبالشفاه
ويدٍ تلوّنها الظهيرة والسراج أو النجوم .
ولربما بردتْ عليه وحشرجت فيه الحياة ،
في ليلة ظلماء باردة الكواكب والرياح ؛
في مخدع سهر السراجْ به ، وأطفأه الصباح

– ٤ –

ورأيت ، من خلل الدُّخان ، مشاهد الغد كالظلال .
تلك المناديل الحيارى وهي تومىء بالوداع
أو تشرب الدمع الثقيل ، وما تزال
تطفو وترسب في خيالي – هوّم المطر المضاع
فيها ، وخضّبها الدم الجاري !
لون الدجى وتوقّدُ النارِ
يجلو الأريكة ثم تخفيها الظلال الراعشاتْ –
وجه أضاء شحوبه اللهبُ
يخبو ، ويسطع ، ثم يحتجبُ
ودم يغمغم وهو يقطر ثم يقطر : مات ... ماتْ !

- ٥ -

الليل ، والسوق القديم ، وغمغمات العابرين ،
وخطى الغريب .
وأنت أيتها الشموع ستوقدين
في المخدع المجهول ، في الليل الذي لن تعرفيه ،
تلقين ضوءك في ارتخاءٍ مثل امساء الخريف
– حقل تموج به السنابل تحت أضواء الغروب
تتجمع الغربان فيه –
تلقين ضوءك في ارتخاء مثل أوراق الخريف
في ليلة قمراء سكرى بالأغاني ، في الجنوب :
نقر [الدرابك] من بعيد
يتهامس السعف الثقيل ، به ، ويصمت من جديد !

- ٦ -

قد كان قلبي مثلكن ، وكان يحلم باللهيب ،
حتى أتاح له الزمان يداً ووجهاً في الظلام
نار الهوى ويد الحبيب –

ما زال يحترق الحياة ، وكان عام بعد عام
يمضي ، ووجه بعد وجه مثلما غاب الشراع
بعد الشراع – وكان يحلم في سكون ، في سكون :
بالصدر ، والفم ، والعيون ؛
والحب ظلله الخلود .. فلا لقاء ولا وداع
لكنه الحلم الطويل
بين التمطي والتثاؤب تحت افياء النخيل .

– ٧ –

بالأمس كان وكان – ثم خبا ، وأنساه الملال
واليأس ؛ حتى كيف يحلم بالضياء – فلا حنين
يغشى دجاه ، ولا اكتئاب ، ولا بكاء ، ولا انين
الصيف يحتضن الشتاء ، ويذهبان .. وما يزال
كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح ،
كالسلم المنهار ، لا ترقاه في الليل الكئيب
قدم ، ولا قدم ستهبطه اذا التمع الصباح .
ما زال قلبي في المغيب

ما زال قلبي في المغيب فلا اصيل ولا مساء ،
حتى أتت هي والضياء !

- ٨ -

ما كان لي منها سوى أنا التقينا منذ عام
عند المساء ، وطوقتني تحت اضواء الطريق
ثم ارتخت عني يداها وهي تهمس - والظلام
يحبو ، وتنطفىء المصابيح الحزانى والطريق - :
« أتسير وحدك في الظلام ؟
أتسير ؛ والأشباح تعترض السبيل ، بلا رفيق ؟ »
فأجبتها والذئب يعوي من بعيد ، من بعيد
أنا سوف أمضي باحثاً عنها ، سألقاها هناك
عند السراب وسوف أبني مخدعين لنا هناك » .
قالت - ورجّع ما تبوح به الصدى « أنا من تريد ! »

- ٩ -

« أنا من تريد ، فأين تمضي ؟ فيم تضرب في القفار
مثل الشريد ؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار .

أنا من تريد .. » وقبلتني ثم قالت — والدموع
في مقلتيها — « غير أنك لن ترى حلم الشباب :
بيتاً على التل البعيد يـكاد يخفيه الضباب
لولا الأغاني ، وهي تعلو نصف وسنى ، والشموع
تلقى الضياء من النوافذ في ارتخاء ؛ في ارتخاء !
أنا من تريد وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل :
حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل ،
لا يأس فيه ولا رجاء .

— ١٠ —

أنا أيها النائي القريب ،
لك أنت وحدك ؛ غير أني لن أكون
لك أنت — أسمعها ؛ وأسمعهم ورائي يلعنون
هذا الغرام . أكاد أسمع أيها الحلم الحبيب
لعنات أمي وهي تبكي . أيها الرجل الغريب
إني لغيرك .. بيد انك سوف تبقى ، لن تسير !
قدماك ُسمّرتا فما تتحركان ؛ ومقلتاك

لا تبصران سوى طريقي ، أيها العبد الاسير ! ؟

* * *

« – أنا سوف أمضي فاتركيني : سوف القاها هناك
عند السراب »
فطوقتني وهي تهمس : « لن تسير ! »

– ١١ –

« أنا من تريد ؛ فأين تمضي بين احداق الذئاب
تتلمّس الدرب البعيد ؟ »
فصرختُ : سوف اسير ، ما دام الحنين إلى السراب
في قلبي الظامي ! دعيني أسلك الدرب البعيد
حتى أراها في انتظاري : ليس أحداق الذئاب
أقسى عليّ من الشموع
في ليلة العرس التي تترقبين ، ولا الظلام
والريح والأشباح ، أقسى منك أنتِ أو الأنام !
أنا سوف أمضي ! فارتخت عني يداها ، والظلام
يطغي ...
ولكني وقفت وملء عينيّ الدموع !

١٩٤٨/١١/٣

اللقاء الأخير

والتف حولك ساعداي ، ومال جيدك في اشتهاء ،
كالزهرة الوسنى – فما أحسستُ الا والشفاه
فوق الشفاه . وللمساء
عطر ، يضوع فتسكرين به ، وأسكر من شذاه
في الجيد والفم والذراع ،
فأغيب في أفق بعيد ، مثلما ذاب الشراع
في أرجوان الشاطىء النائي وأوغل في مداه !

شفتاك في شفتيّ عالقتان – والنجم الضئيلْ
يُلقي سناه على بقايا راعشات من عناق –
ثم ارتخت عني يداك ، وأطبق الصمت الثقيل .

يا نشوةً عبرى ؛ وإغفاءً على ظل الفراق
حلواً ؛ كإغماء الفراشة من ذهول وانتشاء ...
دوماً إلى غير انتهاء !

يا همسةً فوق الشفاه
ذابت فكانت شبهَ آه ،
يا سكرةً مثل ارتجافات الغروب الهائمات
رانت كما سكن الجناح وقد تناءى في الفضاء
غرقى إلى غير انتهاء
مثل النجوم الآفلات .

– « لا .. لن تراني . لن أعود
« هيهات . لكنّ الوعود
« تبقى تُلحُّ .. فخفّ أنت ، وسوف آتي في الخيال
« يوماً ، إذا ما جئتَ أنت . وربما سال الضياء
« فوق الوجوه الضاحكات – وقد نسيتَ ؛ وما يزال

« بين الأرائك موضعٌ خال يحدق في غباء !
« هذا الفراغ ! أما تحس به يحدق في وجوم ؟
« هذا الفراغ .. أنا الفراغ ، فخفّ أنت لكي يدوم ! »

هذا هو اليوم الأخير ؟!
واحسرتاه ! أتصدقين ؟ ألن تخفّ إلى لقاء ؟!
هذا هو اليوم الأخير . فليته دون انتهاء !
ليت الكواكب لا تسير ؛
والساعة العجلى تنام على الزمان فلا تُفيق !
خلفتني وحدي – أسير إلى السراب بلا رفيق .

يا للعذاب ! أما بوسعِك أن تقولي : « يعجزون
عنا . فماذا يصنعون ؟
لو أنني – حان اللقاء
فاقتادني نجم المساء ،
في غمرة لا أستفيق

ألا وأنت تلف خصري تحت أضواء الطريق ؟! »

ليل ، ونافذة تُضاء .. تقول إنك تسهرين .
اني أحسُّك تهمسين
في ذلك الصمت المميت : « ألن تخفَّ إلى لقاء ؟ »
ليل ، ونافذة تضاء
تغشى رؤاي ، وأنتِ فيها ... ثم ينحل الشعاع
في ظلمة الليل العميق
ويلوح ظلك من بعيد وهو يومىء بالوداع ،
وأظل وحدي في الطريق !

١٩٤٨

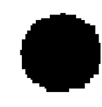
اساطير

وقف اختلافهما في المذهب حائلاً بينها وبين السعادة ... فآلى هو أن يلعن الأوثان !

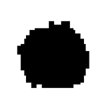
[قصة حب في اليونان الوثنية]

أساطيرُ من حشرجات الزمان
نسيجُ اليد البالية ،
رواها ظلام من الهاوية
وغنّى بها ميّتان .
أساطيرِ كالبيد ، ماجَ السراب
عليها ، وشقّتْ بقايا شِهاب ،
وأبصرتُ فيها بريق النُّضار
يلاقي سَدىً من ظلال الرغيف ،

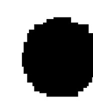
وأبصرتني ؛ والستار الكثيف
يواريك عني فضاع انتظار
وخابت منيّ ؛ وانتهى عاشقان .



أساطير ، مثل المُدى القاسيات
تلاوينها من دم البائسين ،
فكم أومضت في عيون الطغاة
بما حُمِّلتْ من غبار السنين
يقولون : وحيٌ السماء ،
فلو يَسمعُ الأنبياء
لما قهقهتْ ظلمة الهاوية
بأسطورة بالية
تجرُّ القرون
بمركبة من لظى ، في جنون
لظى كالجنون !

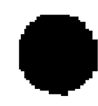


وهذا الغرامُ اللجوج
أيرتدُّ من لمسةٍ باردة ..
على إصبع من خيال الثلوج ،
وأسطورة بائدة ؟
وعرّافةٍ أطلقت في الرمال
بقايا سؤال
وعينين تستطلعان الغُيوب
وتستشرفان الدروب ،
فكان ابتهالٌ .. وكانت صلاة
تُعفر وجهَ الآله
وتحنو عليه انطباق الشفاه



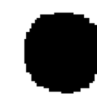
تعالي فما زال نجم المساء
يذيب السنا في النهار الغريق
ويغشى سكونَ الطريق
بلونين من ومضة وانطفاء .
وهمسُ الهواء الثقيل

بدفء الشذى واكتئاب الغروب ،
يذكرني بالرحيل :
شراع خلال التحايا يذوب
وكفٌ تلوّح . يا للعذاب !



تعالي فما زال لون السحاب
حزيناً .. يذكرني بالرحيل
رحيل ؟!
تعالي ، تعالي .. نذيب الزمان .
وساعاته ؛ في عناق طويـــل ،
ونصبغ بالأرجوان
شراعاً وراء المدى ،
وننسى الغدا
على صدرك الدافىء العاطر
كتهويمـة الشاعر .
تعالي ؛ فملء الفضاء

صدى هامس باللقاء
يوسوس دون انتهاء .

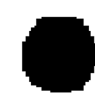


على مقلتيك انتظار بعيد
وشيء يريد :
ظلال
يغمغم في جانبيها سؤال ،
وشوق حزين
يريد اعتصار السراب
وتمزيق أسطورة الأولين
فيا للعذاب !!
جناحان خلف الحجاب .
شراع . .
وغمغمة بالوداع !!!

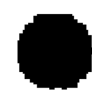
١٩٤٨/٣/٢٤

اتبعيني

إتبعيني
فالضحى رانت به الذكرى على شطٍّ بعيدِ
حالمِ الأغوارِ بالنجم الوحيدِ
وشراع يتوارى ، و « اتبعيني »
همسة في الزرقة الوسنى .. وظلٌّ
من جناح يضمحلُّ
في بقايا ناعسات من سكونِ
في بقايا من سكونِ
في سكون !

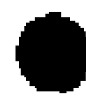


هذه الاغوارُ يغشاها خيالُ ؛
هذه الاغوارُ لا يسبرها إلا ملالُ
تعكس الأمواج ، في شبه انطفاءِ ،
لونَـهُ المهجور في الشطّ الكئيب ،
في صباح ومساء ،
وأساطيرُ سكارى .. في دروبِ ،
في دروبٍ أطفأ الماضي مداها .
وطواها .
فاتبعيني ... إتبعيني .



اتبعيني .. ها هي الشطآن يعلوها ذهولُ
ناصلُ الألوانِ ، كالحلمِ القديمِ
عادت الذكرى به – ساج كأشباحِ نجومِ
نسيَ الصبحُ سناها والأفولُ
في سهادٍ ناعس ..، بين جُفونٍ !
في وجوم الشاطىء الخالي ، كعينيك ، انتظارُ

وظلال تصبغ الريح ... وليل ونهارُ .
صفحةٌ زرقاء تجلو ، في برود
وابتسامٍ غامض ، ظلَّ الزمان
للفراغ المتعب البالي على الشط الوحيد .
إتبعيني .. في غدٍ يأتي سوانا عاشقان ،
في غد ، حتى وان لم تتبعيني ،
يعكس الموج ؛ على الشط الحزين
والفراغ المتعب المخنوق ؛ أشباحَ السنين .



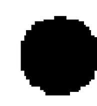
أمس جاء الموعدُ الخاوي .. وراحا ،
يطرق الباب على الماضي .. على اليأس .. عليّا !
كنت وحدي .. أرقب الساعة تقتات الصباحا
وهي ترنو مثل عين القاتل القاسي إليّا —
أمس ... في الأمس الذي لا تذكرينه
ضوّأ الشطآن مصباح كئيب .. في سفينة

واختفى في ظلمة الليل قليلاً فقليلا ،
وتناءت ، في ارتخاء وتوانِ
غمغمات مجهدات ، وأغاني
وتلاشت ، تتبع الضوء الضئيلا .
أقبلي الآن ... ففي الأمس الذي لا تذكرينه
ضوّأ الشطآن مصباح كئيب في سفينه
واختفى في ظلمة الليل قليلاً فقليلا .

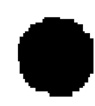
١٩٤٨/٤/٢١

رئة تتمزق

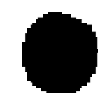
الداءُ يثلج راحتي ، ويطفىء الغد .. في خيالي
ويشلّ أنفاسي ، ويطلقها كأنفاس الذبال
تهتز في رئتين يرقص فيهما شبح الزوال
مشدودتين إلى ظلام القبر بالدّم والسعال ..



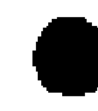
واحسرتا !؟ كذا أموت ؟ كما يجف ندى الصباح؟
ما كاد يلمع بين أفواف الزنابق والأقاحي ،
فتضوع أنفاسُ الربيع تهزّ أفياء الدوالي ،
حتى تلاشى في الهواء .. كأنه خفق الجناح !



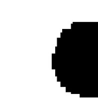
كم ليلة ناديت باسمك أيها الموت الرهيبُ
وودت لا طلع الشروق علي إن مال الغروب
بالأمس كنت أرى دجاك أحب من خفقات آلِ
راقصن آمال الظماء .. فبلها الدم واللهيب !



بالأمس كنت أصيح : خذني في الظلام إلى ذراعك
واعبر بي الأحقاب يطويهن ظـل من شراعك
خذني إلى كهف تهوم حوله ريح الشمال ..
نام الزمان على الزمان ، به ، وذابا في شعاعك .

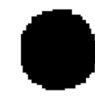


كان الهوى وهماً يعذبني الحنين الى لقائه
ساءلت عنه الأمنيات ؛ وبت أحلم بارتمائه
زهراً ونوراً في فراغ من شكاة وابتهال ..
في ظلمة بين الأضالع تشرئب إلى ضيائه

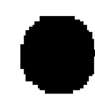


واليوم حببت الحياة إلي ، وابتسم الزمان

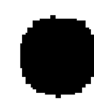
في ثغرها ، وطفا على أهدابها الغد والحنان ـ
سمراء .. تلتفت النخيل الساهمات إلى الرمال
في لونها .. وتفر ورقاء .. ويأرج اقحوان ..



شع الهوى في ناظريها .. فاحتواني واحتواها
وارتاح صدري ، وهو يخفق باللحون ، على شذاها
فغفوت استرق الرؤى والشاعرية من رؤاها
وأغيب في الدفء الممطر ... كالغمامة في نداها

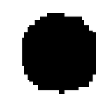


عينان سوداوان أصفى من أمامي اللقاء ،
وأحب من نجم الصباح إلى المراعي والرعاء ،
تتلألأن عن الرجاء كليلة تخفي دجاها
فجراً يلون بالندى ؛ درب الربيع ، وبالضياء

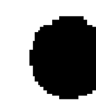


سمراء يا نجماً تألق في مسائي .. أبغضيني
واقسي عليّ .. ولا ترقي للشكاة وعذبيني

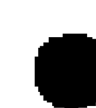
خلي احتقاراً في العيون ، وقطبي تلك الشفاها
فالداء في صدري تحفز لافتراسك في عيوني !



يا موت .. يا رب المخاوف ، والدياميس الضريرة
اليوم تـــأتي ؟! من دعاك ؟ ومن أرادك أن تزوره ؟
أنا ما دعوتك أيها القاسي فتحرمني هواها
دعني أعيش على ابتسامتها وإن كانت قصيرة

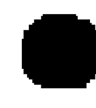


لا ! سوف أحيى ، سوف أشقى ؛ سوف تمهلني طويلا
لن تطفىء المصباح .. لكن سوف تحرقه فتيلا
في ليلة .. في ليلتين .. سيلتقي آها فآها
حتى يفيض سنى النهار فيغرق النور الضئيلا !!



يا للنهاية حين تسدل هذه الرئة الأكيل
بين السعال ، على الدماء ، فيختم الفصل الطويل
والحفرة السوداء تفغر ، بانطفاء النور ، فاها —

إني أخاف .. أخاف من شبح تخبّئه الفصول !!
وغداً إذا ارتجف الشتاء على ابتسامات الربيع
وانحل كالظل الهزيل وذاب كاللحن السريع،
وتفتحت بين السنابل – وهي تحلم بالقطيع
والناي – زنبقة ، مددت يدي اليها في خشوع

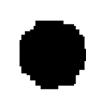


وهويت أنشقها فتصعد كلما صعد العبير ،
من صدري المهدوم حشرجة فتحترق العطور
تحت الشفاه الراعشات ويطفأ الحقل النضير
شيئاً فشيئاً .. في عيوني ثم ينفلت الأسير !!

١٩٤٨

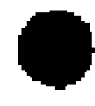
سوف أمضي

سوف أمضي . أسمعُ الرِّيح تناديني بعيداً
في ظلام الغابةِ اللفّاء .. والدَّرْبُ الطويل
يتمطى ضَجَراً ، والذئبُ يعوي ؛ والأفول
يسرقُ النَّجمَ كما تسرق روحي مُقلتاك
فاتركيني أقطع الليل وحيداً
سوف أمضي ، فهي ما زالت هُناكَ .
في انتظاري .



سوف أمضي . لا هديرُ السيلِ صخّاباً رهيبا
يُغرق الواديُ ، ولا الأشباحْ تُلقيها القبورُ

في طريقي تسأل الليلَ إلى أين أسير —
كلُّ هذا ليس يثنيني ، فعودي واتركيني ،
ودعيني أقطع الليل غريبا .
إنّها ترنو إلى الأفق الحزينِ
في انتظاري .



سوف أمضي . حوّلي عينيك لا ترني إليّا !!
إن سحراً فيهما يأبى على رجلي مسيرا ،
إن سراً فيهما يستوقف القلب الكسيرا ،
وارفعي عني ذراعيك .. فما جدوى العناق
إن يكن لا يبعث الأشواق فيّا ؟
اتركيني . ها هو الفجر تبدّى ، ورفاقي
في انتظاري

١٩٤٨/٢/٣٠

هوى واحد

على مقلتيك ارتشفت النجوم وعانقت آمـــالي الآيبه ...
وسابقت حتى جناح الخيال بروحي ، إلى روحك الواثبه
أطلت فكانت سناً ذائبـاً بعينيك ، في بسمة ذائبـــه

* * *

أأنت التي رددتها مناي أناشيد تحت ضيـــاء القمر
تغني بهـــا في ليالي الربيع فتحـــلم أزهــاره بالمطر
ويمضي صداهـــا يهزّ الضياء ويغفو على الزورق المنتظر

* * *

خذي الكأس بلي صداك العميق بما ارتج في قاعها من شراب
خذي الكأس لا ؛ جف ذاك الرحيق
ولم يبق إلا جنون السراب

وإلا صدى هامس في القرار: ألا ليتني ما سقيت التراب

* * *

خذي الكأس ، اني زرعت الكروم
على قـــبر ذاك الهوى الخاسر
فأعراقهـــا تستعيد الشراب وتشتفه من يـــد العاصر
خذي الكأس اني نسيت الزمان فما في حياتي سوى حاضر

* * *

وكان انتظاراً لهذا الهوى جلوسي على الشاطىء المقفر
وإرسالُ طرفي يجوب العباب ويرتـــد عن افقه الأسمر
إلى أن أهل الشراع الضحوك وقالت لك الامنيات: انظري

* * *

أأنكرت حتى هواك اللجوج وقلبي ، وأشواقكِ العارمه ؟
وضللت في وهدة الكبرياء صداها .. فيا لك من ظالمه
تجنيت حتى حسبتِ النعاس ذبولاً على الزهرة النائمـــه

* * *

أتنسين تحت السماع النجوم خُطانا وأنفاسَنا الواجفـــة

وكيف احتضناصدى في القلوب تغني به القبلة الراجفة
صدى لج قبل احتراق الشفاه وما زال في غيهب العاطفة

* * *

ورانت على الأعين الوامقات ظلال من القبلة النائيـــة
تـُنادي بها رغبة في الشفاه ويمنعها الشك .. والواشية
فترتج عن ضغطة في اليدين جمعنا بها الدهر في ثانية

* * *

«شقيقة روحي ألا تذكرين» نداء سيبقي يجوب السنين
وهمس من الأنجم الحالمات يهز التماعاتها بالرنـــين
تسلل من فجوة في الستار إليك وقال : ألا تذكرين

* * *

تعالي ، فما زال في مقلتي سناً ماج فيه اتقاد الفؤاد
كما لاح في الجدول المطمئن خيال اللظى والنجوم البعاد
فلا تزعمي أن هذا جليد ولا تزعمي أن هذا رماد ؟

١٦/٢/١٩٤٨

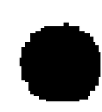
لن نفترق

هبت تغمغم : «سوف نفترق» روح على شفتيك تحترق
صوت كأن ضرام صاعقة ينداح فيه .. وقلبي الأفق
ضاق الفضاء، وغام في بصري ضوء النجوم ، وحطم الألق
فعلى جفوني الشاحبات ، وفي دمعي ، شظايا منه أو مِزَق
فيم الفراق ؟ أليس يجمعنا حب نظل عليه نعتنق ؟
حب ترقرق في الوعود سنا منه ورف على الخطى عبق
أختاه ، صمتك ملؤه الريب فيم الفراق ؟ أما له سبب ؟
الحزن في عينيك مرتجف ؛ واليأس في شفتيك يضطرب
ويداك باردتان .. مثل غدي وعلى جبينك خاطر شحب
ما زال سرك لا تجنحـــه آه مؤججة .. ولا يثب

وبين الظلال
وقد رفّ ، مثل الجناح الكسير –
على كَومةٍ من حطام القيود
على عالم بائدٍ لن يعود –
سناها الأخير .
تقولين لي : « هل رأيت النجوم ؟
أأبصرتها قبل هذا المساء
لها مثل هذا السّنا والنّقاء ؟ »
تقولين لي : « هل رأيتَ النجوم
وكم أشرقت قبل هذا المساء
على عالم لطّخته الدماء :
دماء المساكين والأبرياء ! »
تقولين لي : « هل رأيت النجوم
تُطلّ على أرضنا وهي حرّه
لأول مرّه ؟ »
نعم . أمس حين التفتّ إليكِ

سراب

بقايا من القافلة
تُنير لها نجمة آفلة
طريقَ الفناءْ ،
وتؤنسها بالغنـــاءْ
شفـــاه ظماء —
تهاويلَ مرسومة في السراب
تمزّق عنها النقاب
على نظرة ذاهـــــلة
وشوق يُذيب الحدود .



ظلال على صفحة باردة

تحركها قبضة مـــاردة
وتدفعها غنوة باكية ،
إلى الهاوية .
ظلال على سلم من لهيب
رمى في الفراغ الرهيب
مراتبه الباليـة
وأرخى على الهاوية
قناع الوجود .
سنمضي .. ويبقى السراب
وظلّ الشفاه الظماء
يهوّم خلف النقاب ،
وتمشي الظلال البطاء
على وقع أقدامكِ العارية
إلى ظُلمة الهاوية ،
وننسى على قِمةِ السلمِ
هوانا .. فلا تحلمي
بأنّا نعودُ !

١٩٤٨/٣/٢٧

وداع

اريقي على ساعديَّ الدموع   وشدي على صدري المتعب
فهيهات ألا أجوب الظلام   بعيداً . إلى ذلك الغيهب
فلا تهمسي : غاب نجم المساء   ففي الليل أكثر من كوكب

* * *

وهل كان حلم بغير انتهاء   وهل كان لحن بلا آخر ؟
لكي تحسبي أن هذا الغرام   أبيد الرؤى .. خالد الحاضر
وأنا سنبقى نعد السنين   مواعيد في ظله الدائر ؟

* * *

على مقلتيك ارتماء عميق   وذكرى مساء تقول ارجع !
نداء بعيد الصدى كالنجوم   يراها حبيبان في مخدع !

يكاد اشتياقي يهزّ الحجاب   وتومي ذراعي : هيا معي!!

* * *

سأمضي .. فلا تحلمي بالإياب   على وقع أقدامي النائية
ولا تتبعيني ، إذا ما التفت   ورائي إلى الشمعة الخابية
يرنحها في يديك النحيب   فتهتز من خلفك الرابيه

* * *

ستنسين هذا الجبين الحزين   كما انحلت الغيمة الشارده
وغابت ، كحلم ؛ وراء التلال   بعيداً .. سوى قطرة جامدة
ستنثرها الريـــح عما قليل   وتشربهـــا التربة الباردة

* * *

ورب اكتئاب يسيل الغروب   على صمته الشاحب السام
واغنية في سكون الطريق   تلاشت على هـــدأة العالم
أثارا صدى تهمس الذكريات   ، إذ ما انتهى ، همسة الحالم

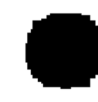
* * *

غداً..حين يبلى وراء الزجاج   كتاب عليه اسمي الذابلُ
وتنفض كفاك عنه الغبار   ويخلو بك المخدع القاحـل

سيلقاك وجهي خلال السطور كما يسطع الكوكب الآفل

***

إذا ما قرأت« اللقاء الأخير » تمنيت ، في غفلة هاربة ،
لو استرجعت قبضتاك السنين، لو استرجعت ليلة ذاهبه !
...ولكن شيئاً حواه الجدار تحدى أمانيك الكاذبة .



تلفت ، عن غير قصد ، هناك فأبصرت.. بالانتحار الخيال!
حروفاً من النار.. ماذا تقول؟ – لقد مر ركب السنين الثقال
وقــــد باح تقويمهن الحزين بأن اللقاء المرجّى ..محال !!

١٩٤٨/٤/٥

لا تزيديه لوعة

لا تزيديه لوعة فهو يلقـــاك ليتسى لديك بعض اكتئابه
قربي مقلتيك من وجهه الذاوي تري في الشحوب سر انتحابه
وانظري في غضونه صرخة اليأس
وأشباح غـــابر من شبــابه :
لهفة تسرق الخطى بين جفنيه وحلم يموت في اهـــدابه

* * *

واسمعيه اذا اشتكى ساعة البين ،
وخاف الرحيل – يوم اللقـــاء
واحجبي ناظريه ؛في صدرك المعطار
وعن ذلك الرصيف المضـــاء

عن شراع يراه في الوهم ينساب ومَوج يحسه في المساء :
الوداع الحزين ! اشدي ذراعيك عليه .. على الأسى والشقاء

* * *

حدثي .. حدثيه عن ذلك الكوخ
.. وراء النخيل .. بين الروابي
حلم أيامه الطوال الكئيبات .. فلا تحرميه حلم الشباب ..
أوهميه بأنــــه سوف يلقاك على النهر .. تحت ستر الضباب
وأضيئي الشموع في ذلك الكوخ ..
وان كان كله من سراب ..

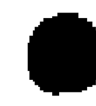
* * *

كلما ضج شاكياً، في ذراعيك، انتهاء الهوى صرخت انتهارا ..
فارتمي .. أين يرتمي صدره الجيـاش حزناً وحيرة وانتظارا ؟
اغضبي .. وادفعيه عن صدرك القاسي .. وأرخي على هواه الستارا
اوصدي الباب خلفه .. واتركيه
مثلما كان .. للدجى والصحارى !

١٩٤٨/٤/٨

عبير

عطرت أحلامي بهذا الشذى   من شعرك المسترسل الأسود
الجو من حولي ، ربيع حبا   من خدره النائي إلى الموعد
هذا عبير الحب فجـــرته   يبحث عن مجرى له في غد
نبع أثيري الخطى ، حـــالم   بالظـــلة الخضراء والمسند
والعاشق السكران يحصي على   ثغرك ما في الليل من فرقد
أوقدت مصباح الهوى بعدما   خبا ؛ ولولا أنت لم يوقـــد
هبت عليــــه الريح مجنونة   محلولة الشعر ؛ خضيب اليد
الزيت من هذا الشذى واللظى   من قبلة في الغيب لم تولد
تطفو على العطر خيالاً فلا   ترسب الا في الفؤاد الصدي

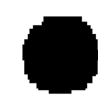


أم أن اهتف : أنت التي مثلتهـــا في أمسي الأبعد
وانت من تحلم روحي بها على ضفاف الزمن المزبـــد
تسائل المـــوج وتومي إلى كل شراع علهـــا تهتدي
أم أن أهتف لولا خطى عابرة في الخاطر المجهـــد
أطياف حسناواتي استيقظت هاتفة : يا ذكريات اشهدي
ما نال منا غـــير أسمائنا تسخر من آمـــاله الشرد
مكتوبة بالنار ، في شعره كالصورة الخرساء في معبد

١٠ / ٢١ / ١٩٤٧

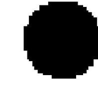
عينان زرقاوان

عينان زرقاوانِ .. ينعس فيهما لونُ الغدير
أرنو..فينساب الخيالُ وينصتُ القلب الكسير
وأغيبُ في نغم يذوب .. وفي غمائم من عبير
بيضاء مِكسال التلوّي تستفيق على خرير
ناءٍ .. يموت وقد تثاءب كوكب الليل الأخير
يمضي على مهلٍ ، وأسمع همستين .. وأستدير
فأذوب في عينين ينعس فيهما لون الغدير



حسناء.. يا ظلّ الربيع، مللت أشباح الشتاءْ
سوداً تُطلُّ من النوافذ كلما عبس المساء

حسناء .. ما جدوى شبابي إن تقضى بالشقاء
عيناك .. يا للكوكبين الحالمينِ بلا انتهاء ...
لولاهما مـا كنتُ أعلم أن أضواء الرجاء
زرقاء ساجية .. وأن النور من صنع النساء
هي نظرة من مقلتيك ؛ وبسمة تعد اللقاء
ويضيء يومي عن غدي ؛ وتفر أشباح الشتاء



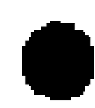
عيناكِ .. أم غاب ينام على وسائد من ظلال؟
ساجٍ تلثم بالسكون فلا حفيف ولا انثيال
إلا صدى واه يسيل على قيثار في الخيال .
إني أحس الذكريات يلفها ظل ابتهال ...
في مقلتيك مدى تذوب عليه أحلام طوال ،
وغفا الزمان..فلا صباح،ولا مساء،ولا زوال!
إني أضيع مع الضباب..سوى بقايا من سؤال:
عيناك.. أم غاب ينام على وسائد من ظلال !

١٩٤٨/١/٦

في ليالي الخريف

في ليالي الخريف الحزين ،
حين يطغى علي الحنين
كالضباب الثقيل
في زوايا الطريق
في زوايا الطريق الطويل ؛
حين أخلو وهذا السكون العميق —
توقد الذكريات ،
بابتساماتك الشاحبات ،
كل أضواء ذاك الطريق البعيد
حيث كان اللقاء

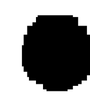
في سكون المساء
هل يعود الهوى من جديد ؟
عاهديني إذا عاد .. يا للعذاب !
عاهديني .. ومرت بقايا رياح
بالوريقات ؛ في حيرة واكتئاب
ثم تهوي حيال السراج الحزين .
انتهينا .. أما تذكرين ؟
انتهينا .. وجاء الصباح
يسكب النور فوق ارتخاء الشفاه
وانحلال العناق الطويل ،
أين آلام يوم الرحيل ؟
أين لا « لست انساك » واحسرتاه ؟



في ليالي الخريف
حين أصغي ، ولاشيء غير الحفيف

ناحلاً كانتحاب السجين
خاف أن يوقظ النائمين
فانتحى في الظلام
يرقب الأنجم النائيات
حجبتها بقايا غمام
فاستبدت به الذكريات
الغناء البعيد البعيد
في ليالي الحصاد ،
أوجه النسوة الجائعات ..
ثم يعلو رنين الحديد
يسلب البائس الرقاد !
في ليالي الخريف
حين اصغي وقد مات حتى الحفيف
والهواء —
تعزف الامسيات البعاد
في اكتئاب يثير البكاء ،

شهرزاد [1]
في خيالي فيطغى عليّ الحنين ؛
أين كنا ؟! أما تذكرين ؟
أين كنا ؟! أما تذكرين المساء ؟!



في ليالي الخريف الطوال ؛
آه لو تعلمين
كيف يطغى عليّ الاسى والملال !؟
في ضلوعي ظلام القبور السجين ،
في ضلوعي يصبح الردى
بالتراب الذي كان أمي : « غدا
سوف يأتي . فلا تقلقي بالنحيب
عالم الموت حيث السكون الرهيب ! »
سوف امضي كما جئت واحسرتاه !
سوف امضي .. وما زال تحت السماء

(١) قطعة موسيقية ، للموسيقار الروسي ريمسكي كورساكوف .

مستبدون يستنزفون الدماء ،
سوف أمضي وتبقى عيون الطغاة
تستمد البريق
من جذى كل بيت حريق
والتماع الحراب
في الصحارى ، ومن أعين الجائعين ،
سوف أمضي .. وتبقى فيا للعذاب !
سوف تحيين بعدي ، وتستمتعين
بالهوى من جديد ،
سوف أنسى وتنسين الا" صدى
من نشيد
في شفاه الضحايا – وإلا الردى

١٧ / ٩ / ١٩٤٨

أغنية قديمة

- ١ -

في المقهى المزدحم النائي ، في ذات مساء ،
وعيوني تنظر في تعب ،
في الأوجه ، والأيدي ، والأرجل ، والخشب :
والساعة تهزأ بالصخب .
وتدق – سمعت ظلال غناء ...
أشباح غناء ...
تتنهد في الحاني ، وتدور كإعصار
بال مصــدور ،

يتنفس في كهف هار
في الظلمة منذ عصور !

— ٢ —

أغنية حب .. أصداء
تنأى ... وتذوب .. وترتجف
كشراع ناء يجلو صورته الماء
في نصف الليل .. لدى شاطىء احدى الجزر ؛
وأنا أصغي .. وفؤادي يعصره الأسف :
لِمَ يسقط ظل يد القدر
بين القلبين ؟! لم أنتزع الزمن القاسي
من بين يدي وأنفاسي ،
عيناك ؟! وكيف تركتك تبتعدين .. كما
تتــلاشى الغنوة في سمعي .. نغما .. نغما ؟!

- ٣ -

آه ما أقدم هذا التسجيل[١] الباكي
والصوت قديم ؛
الصوت قديم
ما زال يولول في الحاكي .
الصوت هنا باق ؛ أما « ذات » الصوت
القلب الذائب إنشاداً
والوجه الساهم كالأحلام ، فقد عادا
شبحاً في مملكه الموت —
لا شيء — هنالك في العدم .
وأنا أصغي .. وغداً سأنام عن النغم !
أصغيت .. فمثل إصغائي
لي وجه مغنية كالزهرة حسناءِ
يتماوج في نبرات الغنوة ، كالظل

(١) : الأسطوانة .

في نهر تقلقه الأنسام ؛
في آخر ساعات الليل ،
يصحو .. وينام .
أأثور ؟! أأصرخ بالأيام ؟! وهل يجدي ؟!
إنا سنموت
وسننسى ، في قاع اللحد ؟
حباً يحيا معنا .. ويموت !

— ٤ —

ذرات غبار
تهتز وترقص ، في سأم ،
في الجو الجائش بالنغم ،
ذرات غبار !
الحسناء المعشوقة مثل العشاق
ذرات غبار !

كم جاء على الموتى – والصوت هنا باق –
ليل .. ونهار !!
هل ضاقت ، مثلي ، بالزمن
تقويما خط على كفن ،
ذرات غبار ؟!؟

١٩٤٨/٧/٢٠

ستار

— ١ —

عيناك ؛ والنـــور الضئيل من الشموع الخابيات
والكأس ، والليلُ المطلّ ، من النوافذ ، بالنجومِ ؛
يبحثنَ في عينيّ عن قلبٍ .. وعن حُبٍّ قديم ؛
عن حاضرٍ خاوٍ ، وماضٍ في ضباب الذكرياتِ
ينأى ؛ ويصغر ، ثم يفـــنى
إنـــه الصّمتُ العميقْ
والباب توصده وراءك في الظلام يـــدا صديق !

- ٢ -

كالشاطىء المهجور قلبي ، لا وميض ولا شراعْ ،
في ليــلة ظلماءَ بلّ فضاءَها المطرُ الثقيلْ —
لا صرخةُ اللقيا تُطيف به ولا صمتُ الرّحيل .
عيناكِ والنورُ الضئيل .. أكان ذاك هو الوداع ؟!
باب ، وظلُّ يدين تفترقان — ثم هوى الستار ،
ووقفتُ أنظر ، في الظلام ، وسرتِ أنت إلى النهار !

- ٣ -

في ناظريكِ الحالمــينِ رأيتُ أشباحَ الدموع
أنأى من النجم البعيد ، تمر في ضوء الشموع .
واليأسُ مدّ على شفاهك ، وهي تهمس في اكتئاب ؛
ظلاً — كما تلقي جبــال نائيات من جليــد
أطيافهن على غــدير تحت أستار الضباب ،
لا تسألي : ماذا تريد ؟ — فلستُ أملك ما أريد !

- ٤ -

باب وظلٌ يدين تفترقـــان ـــ ليتك تعلمـــين
أن الشموع سينطفين ، وأن أمطار الشتاء
بيني وبينك سوف تهوي كالستـــار .. فتصرخين ،
الريحُ تعولُ عنـــد بابي ، لست اسمعُ من نداء
إلاّ بقـــايا من حديث رددتـــه الذكريات
وسنان هوّم كالسحابـة في خيـالي ...
ثم مات !

- ٥ -

أنا سوف أمضي ، سوف أنأى ، سوف يصبح كالجماد
قلب قضيت الليل باحثـة ، على الضوء الضئيل ،
عن ظله في مقلتيّ ... فمـــا رأيتِ سوى رماد !!
أنا سوف أمضي – ربما أنسى ، إذا سال الأصيل
بالصمت ، أنك في انتظاري ترقبين .. وترقبين ؛
أو ربمـــا طافت بي الذكرى ... فلم تذك الحنين

- ٦ -

الزورق النـائي ، وأنات المجـاديف .. الطوال
تدنو على مهل .. وتدنو – في انخفاض وارتفاع ،
حتى إذا امتــدت يداك إليّ في شبه ابتهال
وهمست: «ها هو ذا يعود !» – رجعت فارغة الذّراع!
وأفقت في الظلماء حيرى ، لا ترين سوى النجوم
ترنو إليك من النوافذ في وجومٍ .. في وجوم !

- ٧ -

قــد لا أؤوب إليك إلا في الخيال ، وقد أؤوب
لا أمس في قلبي ، ولا في مقلـتي هوى قديم :
كفان ترتجفان حول الموقد الخابي .. وكوب
تتراقص الاشباح فيــه .. وتنظرين إلى النجوم
حذر البكاء .. و « كيف أنتِ ؟ » تهز قلبك في ارتخاء
– « عاد الشتاء .. » –
فتهمسين : « وسوف يرجع في الشتاء ! »

٨/١٠/١٩٤٨

سجين

ذراعا أبي تُلقيـــانِ الظلالَ   على روحيَ المستهام الغريب
ذراعا أبي والسراجُ الحزين   يطاردنني في ارتعاش رتيب
وحفت بي الاوجهُ الجائعات   حيارى، فياللجدار الرهيب!
ذراعا أبي تُلقيـــان الظلالَ   على روحيَ المستهام الغريب.

* * *

وطال انتظاري.. كأنالزمان   تلاشى فلمْ يبقَ إلا انتظار !
وعيناي ملءُ الشمال البعيد   فيا ليتني أستطيع الفرار ..
وأنتِ التقاءُ الثرى بالسماء   على الآل ؛ في نائيات القفار،
وطال انتظاري كأن الزمان   تلاشى فلم يبق إلا انتظار !

* * *

ألقاك ؟ تأتي عليّ النجوم وتمضي..وما غيرُ هذا السؤال
تغنيـــه في مسمعيّ الرياح وتُلقيه في ناظري الظلال ..
وترنو على جرسه الامنياتُ إلى ذكريات الهوى في ابتهال
ألقاك ؟ تأتي عليّ النجوم وتمضي، وما غير هذا السؤال

* * *

أصيخي ! أما تسمعين الرنين تدوّي به الساعة القاسية ؟؟
أصيخي.. فهذا صليل القيود وقهقهة الموت في الهاوية !
زمان .. زمان – يهز النداءُ فؤادي..فأدعوك؛ يا نائية ..
أصيخي ! أما تسمعين الرنين تدوي به الساعة القاسية !؟

* * *

أما تُبصرين الدخان الثقيل يجرُّ الخطى من فم الموقد ؟!
تلوى.. فأبصرت فيه الظهور وقد قوستهـــا عصا السيد
وأبصرت فيه الحجاب الكثيف على جبهة العـــالم المجهد ..
أما تبصرين الدخان الثقيل يجر الخطى من فم الموقد ؟!

* * *

ولا بد من ساعة .. من مكان لروحين ما زالتا في ارتقاب !
سألقاك .. أين الزمان الثقيل إذا ما التقينا؛وأين العذاب؟!

سينهار عن مقلتيك الجدار وتفنى ذراعا أبي كالضباب..
ولا بد من ساعة من مكان لروحين ما زالتا في ارتقاب!

* * *

وكيف التلاقي ، وبين المنى وإدراكهن؛ الدخان الثقيل ؟
تموج الأساطير في جانبيه ويحبو على صدره المستحيل
ونحن الغريقان في لجه سننسى الهوى فيه.. عما قليل؟
وكيف التلاقي ، وبين المنى وادراكهن ، الدخان الثقيل

* * *

لينهد هذا الجدار الرهيب وتندك حتى ذراعا أبي !!
أحاطت بي الأعين الجائعات : مرايا من النار في غيهب
إذا استطعت مهربا مقلتاي تصدى خيالان في مهربي
فأبصرت ظلين لي في الجدار أو استوقفتني ذراعا أبي

* * *

سأبقى وراء الجدار البغيض وعيناي لا تبرحان الطريق
أعد الليالي خلال الكرى وارعى نجوم الظلام العميق
فلا تيأسي – أن تمر السنون ويطفين في وجنتيك البريق
سأبقى وراء الجدار القديم وعينان لا تبرحان الطريق

١٩٤٧/٧/٢٧

ذكرى لقاء

قد انتصف الليل، فاطو الكتاب   عن الريح والشمعة الخابية
فعيناك لا تقرآن السطور   ولكنها العلة الواهية
فأنت ترى مقلتيها هناك   وذكرى من الليلة الماضية
فتطوي على ركبتيك الكتاب   وترنو إلى الأنجم النائية

* * *

هنا أنت بين الضياء الضئيل   وبين الدجى في الفضاء الرحيب
وكم من مصابيح تفنى هناك   تنير الثرى والفراغ الرهيب
مصابيح كانت تذوب
وتنحل في شعرها :
خطانا، ولون الغروب،
وما ضاع من عطرها .

وتُلقي على ذكريات الشتاء ستاراً من الأدمع الراجفة
فتخبو مصابيحهن البعاد بطيئاً ... كما تبرد العاطفة
كما افترقت، يوم حان الرحيل يد صافحتها يد واجفة
كرجع الخطى في الطريق البعيد، كما انحلت الرغبة الخائفة

* * *

وتصغي ولا شيء إلا السكون وإلا خطى الحارس المتعب
وإلا ارتعاش الضياء الضئيل وخفق الظلال على المكتب
وأسفارك البالية
كأشباح موتى تسير
حيارى إلى الهاوية
– وحلم ادكار قصير –
وتنساب مثل الشراع الكئيب وراء الدجى؛ روحك الشاردة
ترى وجهها كالتماع النجوم وتطويه عنك اليد الماردة
الى أن يذوب الضباب الثقيل وتنهار ألوانه الجامدة
فها أنت ذا تستعيد اللقاء كما عادت الجثة الباردة

* * *

وتمتد يمناك نحو الكتاب كمن يَنشُد السلوة الضائعة
فتبكي مع العبقري المريض[1] وقد خاطب النجمة الساطعة :

« تمنيت يــا كوكب
ثبــاتا كهذا – أنام
على صدرها في الظلام
وأفنى كمـــا تغرب »

ويَغشى رؤاك الضياء القديم بطيئاً .. كما سارت القافلة
ترى الباب مثل انعكاس المغيب على صفحة الجدول الناحلة
ويغشى رؤاك الضياء القديم ينير لك الغرفة الآفلة
ويغشى رؤاك الضياء القديم فيا لانتفاضتك الهائلة !

* * *

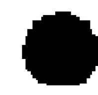
ترى الباب ألقى عليه الاصيل ظلالاً من الكرمة العارية
فما كان غير اعتناق طويل عصرنا بـــه القوة الباقية
وألقيتُ عبء السنين

(١) الشاعر الانكليزي جون كيتس مات مسلولاً في الخامسة والعشرين من عمره ، وآخر ما كتبه قصيدته التي يخاطب بها كوكباً في السماء

ورأسي ، على صدرها
فشدت عليه اليمين
وأدنته من ثغرها ...
وأيقنت أن الحياة ؛ الحياة – بغير الهوى – قصة فاترة
واني بغير التي ألهبت خيالي بأنفاسها العاطرة ...
شريد يشق ازدحام الرجال وتخنقه الأعين الساخرة

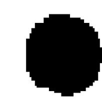
ملال

ليلان غاما ، بالنجوم الآفلات على سُهادي ،
يومان . لا وعد ولا لقيــا وتخفق يا فؤادي ؟!
وغـداً سيمتلىء انتظاري بالظلام ولا أراهـا
وتجول عيني في الطريق وتستقر على كتابي
وأكيل بالأقـداح ساعاتي واسخر باكتئابي ،
وأنام أحلم بالشتاء واستفيــق على هواهــا

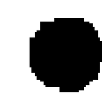


سأم ... ومصبـــاح وحيد ران في أقصى الطريق
مرت وجوه العابرين به .. فلوّنهـــا قليلا ..
مرّت .. وغابت في الظلام ، وليس يبرح في حريق

سأم .. ونافذة يطيل فضاؤها الدرب الطويلا .
سأم ومرآة تثاءب في قرارتها الوجوم ..
الغرفة الجوفاء والأقداح والبـــاب القديم .



بالأمس كان هوى وكان .. وكانْ – ويح الذكريات
« وافرحتاه .. أتصدقين ؟ » وقادنا نجم المساء
في ذلك الدرب البعيد وألف نجوى واشتكاء
تخبو وتنأى ؛ والعناق يعـد أضواء الطريق .
بالأمس كان هوى وكان – وخيم الصمت العميق



دب الملال إلى فؤادك مثل أوراق الخريف ...
« أهواك » ؟ ماذا تهمسين ؟ أتلك حشرجة الحفيف
في دوحة صفراء يقلق ظلها روح الشتاء ؟ !
لا تنظري !! في مقلتيك سحابتان من الجليـد
تتألقان ولا لهيب .. وتزحفان ولا فضـاء
فلّ العناق على الجفون وحطم الدرب البعيد !

١٩٤٨/٥/٣

نهاية

« سأهواك حتى تجف الأدمع في عيني
وتنهار أضلعي الواهية .. » « هي »

– ١ –

أضيئي لغيري فكل الدروب
سواء على المقلة الشارده ؛
سأمضي إلى مجهل لا أؤوب
فان عادت الجثة البارده ،
فألقي على الأعين الخاويات
طيب السماء –
لعل الرؤى الخابيات ،
إذا مس أطرافهن الضياء ؛

يخبرن عن ذلك الجهل :
عن الريح .. والغاب .. والجدول
اضيئي لها يا نجوم !

- ٢ -

« سأهواك حتى .. » نداء بعيد
تلاشت ؛ على قهقهات الزمان
بقاياه . في ظلمة .. في مكان ،
وظل الصدى في خيالي يعيد :
« سأهواك حتى سأهوى » نواح
كما اعولت في الظلام الرياح ،
« سأهواك حتى .. سـ .. » يا للصدى
أصيخي إلى الساعة النائية :
« سأهواك حتى .. » بقايا رنين
تحدين دقاتها العاتيه ،
تحدين حتى الغدا ،
« سأهواك » ما أكذب العاشقين !

« سأهوا .. » – نعم .. تصدقين .

- ٣ -

ظلام .. وتحت الظلام المخيف
ذراعان تستقبلان الفضاء
أبعد اصفرار الخريف
تريدين ألا يجيء الشتاء ؟
لقاء وأين الهوى يا لقاء ؟!
عويل من القرية النائيه ،
وشيخ ينادي فتاه الغريق ،
بهذا الطريق .. وذاك الطريق ،
ويمشي إلى الضفة الخالية
يسائل عنه المياه ،
ويصرخ بالنهر .. يدعو فتاه ،
ومصباحه الشاحب
يغني « سدى » زيته الناضب
« محال يراه ! »

ويحنو على الصفحة القاتمة
يحدق في لهفة عارمه ،
فما صادفت مقلتـاه
سوى وجهه المكفهر الحزين
ترجرجه رعشة في المياه
تغمغم « لا لن تراه » .

— ٤ —

أحقاً نسيتِ اللقاء الأخير ؟
أحقاً نسيتِ اللقاء ... ؟
أكان الهوى حلم صيف قصير
خبا في جليد الشتاء ؟
خبا في جليد
وظل الصدى في خيالي يعيد :
« خبا في جليد ... خبا في جليد — »
ويا رب حلم يهيل الزمان
عليه الرؤى والسنين الثقال

فتمضي ويبقى شحوب الهلال
يلون بالأرجوان
شحوب النجوم وصمت القمر ،
ويومض في كل حلم جديد —
شحوب الهلال وظل الشجر
وطيف الشراع البعيد ؟

١٩٤٨/٥/٢٦

في القرية الظلماء

– ١ –

الكوكب الوسنان يطفىء ناره خلف التلال ،
والجدول الهدار يسبره الظلام
إلا وميضاً ، لا يزال
يطفو ويرسب .. مثل عين لا تنام ،
ألقى به النجم البعيد
يا قلب .. ما لك ، لست تهدأ ساعة ؟ ماذا تريد ؟
النجم غاب وسوف يشرق من جديد ، بعد حين ،
والجدول الهدار .. هينم ثم نام ،
أما الغرام – دع التشوق يا فؤادي والحنين !

— ٢ —

أأظل أذكرها .. وتنساني ؟
وأبيت في شبه احتضار ؛ وهي تنعم بالرقاد ؟
شعت عيون حبيبها الثاني
في ناظريها المسبلين على الرؤى — أما فؤادي
فيظل يهمس ، في ضلوعي ،
باسم التي خانت هواي .. يظل يهمس في خشوع .
اني سأغفو .. بعد حين سوف أحلم في البحار :
هاتيك أضواء المرافىء وهي تلمع من بعيد ..
تلك المرافىء في انتظار ..
تتحرق الأضواء فيها .. مثل أصداء تبيد .

— ٣ —

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب ،
تتجاوب الأصداء فيها مثل أيام الخريف
جوفاء ... في بطء تذوب ،
واستيقظ الموتى .. هناك على التلال ، على التلال
الريح تعول في الحقول . وينصتون إلى الحفيف —

يتطلعون إلى الهلال
في آخر الليل الثقيل .. ويرجعون إلى القبور
يتساءلون متى النشور !!
والآن تقرع في المدينة ساعة البرج الوحيد .
لكنني في القرية الظلماء .. في الغاب البعيد .

- ٤ -

دعها تحب سواي : تقضي في ذراعيه النهار
وتراه في الأحلام يعبس أو يحدث عن هواه ،
فغداً سيهوى ساعداه
مثل الجليد ، على خطوط باهتات ، في إطار ؛
وعلى الرفوف الشاحبات رسائل
عادت تلف ، على نسيج العنكبوت ؛ بها الوعود
والريح تهمس ، لن يعود ،
ويلون المرآة ظلٌ من سراج ، ذابل
وحياله امرأة تحدق في كتاب ..
بال ، وتبسم في اكتئاب ..

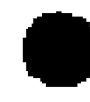
- ٥ -

الكوكب الوسنان يطفىء ناره خلف التلال .
والجدول الهدار يسبره الظلام
إلا وميضاً ، لا يزال
يطفو ويرسب مثل عين لا تنام ؛
ألقى به النجم البعيد .
يا قلب ؛ مالك في أكتئاب لست تعرف ما تريد ؟!

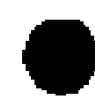
١٩٤٨/٦/٢٠

لقاء ولقاء

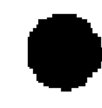
لستِ أنت التي بها تحلم الروح ، ولستِ التي أغني هواها ،
كان حب يشد ، حولي ، ذراعيك ، ويدني من الشفاه الشفاها؛
واشتياق كأنما يسرق الروح – فما في العيون إلا صداها !
وانتهينا ، فقلتِ «اني سأنساه» وغمغمت «سوف القى سواها»



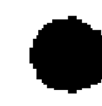
أمس طال اللقاء ؛ حتى تثاءبتِ ، وشاهدتُ في يديك الملالا،
في ارتخاء النسيج تطويه يمناك وعيناك ترمقان الشمالا ،
في الغياب الطويل؛ والمقعد المهجور ترمي يدي عليه الظلالا ،
في الشفاه البطاء تدنو من الكوب .. وترتد ثم تلقي سؤالا



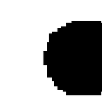
التقينا ـ أهكذا يلتقي العشاق ؟ أم نحن وحدنا البائسان ؟
لا ذراعان في انتظاري على الباب ، ولا خافق يعد الثواني
في انتظاري ؛ ولا فم يعصر الأزمان في قبلة ، ولا مقلتـــان
تسرقان الطريق والدمع من عينيَّ ؛ والداء والأسى من كياني



قد سئمت اللقاء في غرفة أغضى على بابها اكتئاب الغروب :
الضيـــاء الكسول ، والمزهريات تراءى بهن خفق اللهيب
كالجناح الثقيــــل في دوحة صفراء في ضفة الغدير الكئيب



واحتشاد الوجوه مثل التماثيل احتواهن معبد مهجور ،
سمرت قبلة التلاقي على ثغري .. فعادت كما يطل الأسير
من كوى سجنه إلى بيته النائي ـ كما يخفق الجناح الكسير
للغدير البعيد ـ كالموجة الزرقاء جاشت فحطمتها الصخور !

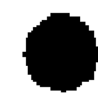


عزَّ حتى الحديث بين الأحاديث ، وحتى التقاؤنا بالعيون ،
في فؤادي الشقي مثل الأعاصير ، وفي ساعدي مثل الجنون

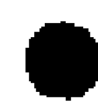
التقينا ؟ أكان شوقي للقياك اشتياقا إلى الضياء الحزين ،
واحتشاد الوجوه في الغرفة الجوفاء ؛ والشاي ، والخطى ، واللحون ،



الخطى واللحون ؛ من فجوة الباب تسللن والضياء الضئيلا ،
والأزاهير تشرب النور في بطء ويعكسنه ابتساماً ذليلا
كابتساماتي الحيارى وإطراقي برأسي وقد ذكرت الحقولا ،
والغناء الطروب ، والمعبر المغمور بالنور والشذى ؛ والنخيلا

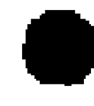


لستِ أنت التي بها تحلم الروح — ولكنه الغرام المضاع :
الخطى العابرات في النور والأنداء ؛ والشط والضحى والشراع —
التقينا : يـــد تُمَدّ إلى أخرى ، وللنور في الشفاه التماع
ترقص القبلة المرجاة فيه — ثم يدنو فمٌ وتطوى ذراع !



لستِ أنت التي بها تحلم الروح — ولكنه انتظار اللقاء :
انتظار التي تحلم بها الروح إذا لفها اكتئاب المساء ،
واستبد الحنين ، وانثالت الأصداء من كل ضفة قمراء

لا تراها العيون ؛ في عالم ناءٍ ؛ ومن كل باب كوخ مضاء



انها الآن في انتظاري؛تجيل الطرف حيرى،على امتدادالطريق،
والمساء الكئيب قد ماج بالأصداء تنساب من مكان سحيق:
« اتبعينا ... فان في الشاطىء النائي شراعاً يهيم بالتصفيق
والحبيب المجهول ناداك ؛ وامتدت ذراعاه في انتظار عميق »

١٤/١٢/١٩٤٨

هل كان حبا

هل تُسمين الذي القى هياماً ؟
أم جنوناً بالأماني ؟ أم غراما ؟
ما يكون الحبُّ ؟ نَوْحاً وابتساما ؟
أم خُفوقَ الأضلع الحرّى ، إذا حان التلاقي
بين عَينينا ، فأطرقتُ ، فراراً باشتياقي
عن سماءٍ ليس تسقيني ، إذا ما ؟
جئتها مستسقياً ، إلا أواما

* * *

العيون الحور ، لو أصبحنَ ظِلاً في شرابي
جفت الأقداحُ في أيدي صحابي

دون أن يَحضَنَّ حتى بالحباب .
هيئي ، يا كأسُ ، من حافاتكِ السكرى ، مكانا
تتلاقى فيه ، يوماً ، شَفتانا
في خفوقٍ والتهابِ
وابتعادٍ شاعَ في آفاقه ظلُّ اقتراب

* * *

كم تمنى قلبيَ المكلومُ لوْ لم تستجيبي
من بعيدٍ للهوى ، أو من قريبٍ ؟
آهِ لو لم تعرفي ، قبل التلاقي ، من حبيب !
أيُّ ثغرٍ مسّ هاتيك الشّفاها
ساكباً شكواهُ آهاً .. ثم آها ؟
غير أني جاهل معنى سؤالي عن هواها ؟
أهو شيءٌ من هواها يا هواها ؟

* * *

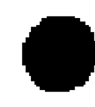
أحسدُ الضوء الطروبا
مُوشكاً ، مما يلاقي ، أن يذوبا

في رباطٍ أوسع الشّعرَ التثاما ،
السماء البكرُ من ألوانه آناً ، وآنا
لا يُنيلُ الطرْفَ إلا أرجوانا .
ليتَ قلبي لمحةٌ من ذلك الضوء السجين ؛
أهو حبٌّ كلُّ هذا ؟! خبريني .

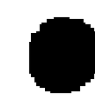
١٩٤٦/١١/٢٩

الموعد الثالث

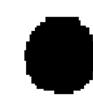
فرّ النهــارُ من البيوتِ النائياتِ ، الى السحابِ ..
من شُرفةٍ زرقاءَ تحــلم بالكواكب والضباب ،
من مقلتــين على الطريق . ومقلتين على كتاب
الدربُ تحرقــه النوافذُ والنجوم المُستسرة
سكرانُ تزحمه الظلالُ وتشرب الأوهام خمره
هيهات ، لا تأتي .
وتهمس « فيم تأتي ؟ » شبهُ فكرة



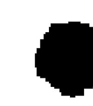
قــد أذكرتني مقلتاكِ رؤىً رسبنَ إلى الظلامِ
زرقاءَ تسبح في ضبابٍ من شحوبٍ وابتسام :
الليــلةَ القمراءَ تركض بــين أشباح الغمام .



أفق يذوبُ على الحنين ، يكاد يَغرقُ في صفائه
يطويه ظلٌ من جناحٍ ، ضاع فيه صدى غنائه
أهدابُكِ السوداء تحملني ، فأومِضُ في انطفائه



من أنت ؟! سوف تمرُّ أيامي وأنسجها ستارا
هيهات تُحرقه شفاهُكِ وهي تستعر استعارا ؛
لا تلمسيه .. فأنت ظِلٌّ ليس يخترقُ القرارا



مات الفضاءُ ، سوى بقايا من مصابيح الطريقِ
مبهورةِ الأضواء ، تنضبُ في جداولَ من بريقِ
صفراء تخنقها الظلالُ على فم الليل العميقِ



فيمَ انتظاريَ كالفراغ ؟ وفيمَ يأسي كالرماد ؟
لن يسمع الدربُ الملولُ –وإن أصاخَ – سوى فؤادي
أما فؤادُكِ ..
ويح نفسي ! أين انت ؟ ومن أنادي ؟

في أخريات الربيع

يا ضياءَ الحقول ، يا غنوة الفلاح في الساجيات من أسحاره
أقبلي،فالربيع ما زال في الوادي،فبلّي صداكِ قبل احتضاره
لا تصيبُ العيونُ إلا بقاياه ، وغير الشرود من آثاره :
دوحةٌ عند جدولٍ تنفض الأفياءَ عنها وترتمي في قراره
وعلى كل ملعبٍ زهرةٌ غيناء فرّت إليــــه من أياره

* * *

في المساء الكئيب ، والمعبرُ المهجورُ ، والعابساتُ من أحجاره
مصغياتٌ ، تكاد من شدّة الاصغاء أن توهِمَ المدى بانفجاره
أرمق الدربَ ، كلما هبّت الريحُ وحفَّ العتيقُ من أشجاره
كلما أذهل الربى نوحُ فلاحٍ يبثُّ النجوم شكوى نهاره

صاحَ: «ياليلُ»، فاستفاق الصدى الغافي على السفح والذي في جواره
فاذا كلُّ ربوةٍ رَجعُ «يا ليل» ...
ونامَ الصدى على قيثـــاره!
أين منهنَّ خفقُ أقدامك البيضاء بين الحشيش فوق اخضراره
مثلَ نجمين أفلتــا من مدارينِ فجال الضياءُ في غير داره
أو فراشين أبيضين استفاقا يسرقان الرحيق من خماره!!

* * *

أنتِ في كل ظلمةٍ مَوعدٌ وسنانُ، ما زال يومُه في انتظاره

ديوان شعر

« إلى مستعيرات ديوان شعري »

ديوانُ شِعرٍ ملؤه غزَلُ   بين العذارى بات ينتقلُ
أنفاسيَ الحرّى تهيم على   صفحاته ، والحبُّ والأمل
وستلتقي أنفاسُهنَّ بها   وترفُّ في جنباته القُبَلُ
ديوان شعر ملؤه غزل   بين العذارى بات ينتقل
وإذا رأينَ النّوحَ والشكوى   كلٌّ تقولُ : من التي يهوى ؟
وسترتمي نظراتهنَّ على الصّفحات ، بين سطوره ، نشوى
ولسوف ترتجُّ النهودُ أسىً   ويثيرها ما فيه من نجوى
ولربّما قرأته فاتنتي   فمضت تقول : من التي يهوى؟
ديوانَ شعري ، رب عذراءِ   أذكرتها بحبيبها النائي
فتحسّست شفةً مُقبّلةً   وشميتَ أنفاسٍ وأصداءِ

فطوتْك فوق نهودها بيدٍ واسترسلتْ في شبه إغفاءِ
ديوان شعري ، ربَّ عذراءِ أذكرتها بحبيبها النائي
يا ليتـــني أصبحتُ ديواني لأفرَّ من صَدرٍ إلى ثانِ
قد بتُّ من حسَدٍ أقول له: يا ليت من تهـــواك تهواني
ألك الكؤوسُ ولي ثمالتـُها ولك الخلودُ ، وإنـّني فانٍ ؟
يا ليتني أصبحتُ ديواني لأفرَّ من صدرٍ إلى ثانِ
سأبيتُ في نـوْحٍ وتسهيدِ وتبيتُ تحت وسائد الغيد
أولستَ منـّي ؟ انني نكِدٌ ما بالُ حظـّك غيرَ منكودِ؟
زاحمتَ قلبي في محبّتـــه وخرجتَ منها غيرَ معمودِ
أأبيتُ في نوحٍ وتسهيـــد وتبيتُ تحت وسائد الغيدِ ؟

١٩٢٤/٣/٢٦

نهر العذارى

يا نهر ، لولا مُنْحَناكَ وما يُشابكُ من فروعِ
مـــا كانتِ البسماتُ في عينيّ تُطفـأُ بالدموعِ

* * *

حجّبتَ ، بالشأو البعيد تسدُّ بابَيــه الظّلالُ ،
وجهـــاً تلاقى في مُحيّاه الوداعةُ والجمـــالُ
مرآتُـكَ الخضراءُ ، منذ جَلَـوْتَـها تحتَ السماءِ
ما لاح فيها مثلُ ذاك الوجه .. في ذاك الصفاء

* * *

إنْ أوقدَ الليـــلُ العميقُ نجومه في جانبَيك
لمّاحةَ الأضواءِ تغمر بالأشعّة ضفّتيك

* * *

ناشدتَ ألحـاظَ الكواكب وهي تخترقُ الظلامْ
ألاّ ينَمنَ – وإن تشهَّينَ الكرى – حتى تنام :

* * *

« أنتنّ أسعدُ ما أظلّ الكونُ يا زهْرَ النجومِ
أنتنّ أبصرتنّ ذاكَ الوَجْـــهَ في الليل البهيم ! »

* * *

حتى إذا مــا رنح النجمَ الأخيرَ سنا الصباحِ
فانقضّ تحت القـُبةِ الزرقاء ، مقصوصَ الجناحِ

* * *

أصبحتُ فوق المعـــبر المهجور أرقبُ منحناك
فأبوح بالشكوى ... وتسكت عن شكاتي ضفتاك

* * *

الفتنةُ السمراءُ تسرقها مياهُكَ بعـــد حينْ :
الشّعرَ ، والعينـــين والثّغرَ المنضّرَ والجبين

* * *

فاذا الهجيرة أطلقتها زُرْقةُ الأفق البعيـــدِ
فالظلُ مقصوص الجناح يفرُّ من عودٍ لعودِ ...

* * *

سارت إليكَ بطيئة الخطوات ذابلةَ الشّفاه ،

جاءتك ظمأى ، بالبنان الرخص تغترف المياه .

* * *

كم عُدتُ مخمورَ الفؤاد بموْعـــد المدّ القريبِ
جذلانَ أقتحم الظهـــيرةَ بالتطلع والوثوبِ

* * *

التوت فوق الشاطىء الغربي ، والسَّعَفُ الصموتُ
لا يجهلانِ تنهُّداتي ، وهي بينهما تمـوت .

* * *

والغاب ساعتي الحبيبةُ من ظِلالٍ عقرباهـــا
كم أنبآني أن طرفي بعد حينٍ قـــد يراهـا

* * *

واليوم يسقي مدُّك العـــاتي أواخرَ كل جَزرِ
لا ذاك يحلوها ، ولا هذا بمـــا أرجوه يجري

* * *

واليوم إن سكر الخريرُ وعـاد يحتضنُ الجرارا
لم ألقَ عذرائي ..
فكيف الصَّبرُ يا نهر العذارى ؟!

١٩٤٦/٤/٢٨

المعبد الغريق

المعبد الغريق

شباك وفيقة

١

شبّاكُ وفيقةَ في القريهْ
نشوانُ يُطلّ على الساحه
(كجليل تنتظر المشيه
ويسوعَ) وينشر ألواحه —
ايكار يمسّح بالشمس
ريشاتِ النسر وينطلقُ ،
ايكار تلقّفه الأفق
ورماه إلى اللجج الرمس —
شبّاك وفيقةَ يا شجره

تتنفّسُ في الغَبَش الصاحي
الأعين عندك منتظره

تترقّب زهرةَ تفاح ،
وبُوَيب نشيدْ
والريح تُعيدْ
أنغام الماء على السَّعَفِ

* * *

ووفيقةُ تنظر في أسف
من قاع القبر وتنتظرِ :
سيمرّ فيهمسه النّهرُ
ظلّاً يتماوج كالجَرَسِ
في ضحوة عيدْ ،
ويهفّ كحبات النّفَسِ .
والريح تُعيد
أنغام الماء (هو المَطَرُ)

والشمس تكركر في السعفِ .
شباكَ يضحك في الألَقِ ؟
أم باب يُفتَح في السورِ
فتفر بأجنحة العَبق
روح تتلهف للنورِ ؟

يا صخرةَ معراج القلب
يا « صورَ » الألفة والحبّ
يا درباً يصعد للربّ
لولاكِ لما ضحكتْ للأنسام القريه ،
في الريح عبير
من طوق النهر يهدهدنا ويغنينا
(عوليس [1] مع الأمواج يسير
والريح تذكّره بجزائر منسيّه :
« شبنا يا ريح فخلّينا »)

العالم يفتح شبّاكه

(١) هو اوديسيوس بطل الأوذيسة .

من ذاك الشباك الأزرقْ ،
يتوحّد ، يجعل أشواكه
أزهاراً في دعة تعبق .

شباكٌ مثلك في لبنان ،
شباكٌ مثلك في الهندِ ،
وفتاة تحلم في اليابان
كوفيقة تحلم في التّحدِ
بالبرق الأخضر والرعدِ .

شباك وفيقة في القريه
نشوان يطل على الساحه
(كجليل تحلم بالمشيه
ويسوع) .
ويُحرق ألواحه .

٢

أطلـّي فشبـّاكك الأزرقُ
سماء تجوع ،
تبيـّنتـُه من خلال الدموع
كأني بيَ أرتجفَ الزورق .
إذا انشقّ عن وجهك الأسمر
كما انشقّ عن عشتروت المحار
وسارت من الرغو في مئزرِ
ففي الشاطئين اخضرار
وفي المرفأ المغلقِ

تصلـّي البحار .
كأنيَ طائر بحرٍ غريب
طوى البحر عند المغيب
وطاف بشبّاكك الأزرق
يريد التجاءً اليه
من الليل يربدّ عن جانبيه
فلم تفتحي .
ولو كان ما بيننا محضَ باب
لألقيتُ نفسي لديكِ
وحدّقت في ناظريكِ .
هو الموت والعالم الأسفلُ
هو المستحيل الذي يُذهل .
تمثّلت عينيكِ يا حفرتينِ
تطلان سخراً على العالمِ
على ضفة الموت بوّابتين
تلوحان للقادم .

وشبّاككِ الأزرقُ
على ظلمةٍ مطبقٌ ،
تبدّى كحبل يشدّ الحياه
إلى الموت كيلا تموت .
شفاهك عندي ألذّ الشفاه
وبيتُكِ عندي أحبّ البيوت
وماضيكِ من حاضري أجملُ :
هو المستحيل الذي يُذهل ،
هو الكامل المنتهي لا يريد
ولا يُشتهى أنه الأكملُ ،
ففي خاطري منه ظلٌّ مديد
وفي حاضري منه مستقبلُ .

* * *

تُرى جاءكِ الطائرُ الزنبقيّ
فحلّقتِ في ذات فجر معَه
وألقى نعاس الصباح النقيّ

على حسّك المشتكي برقعه َ؟
وفتّحت عينيكِ عند الأصيل
على مدرجٍ أخضر
وكان انكسار الشعاع الدليل
إلى التل والمنزل المرمر .
هناك المساء اخضرار نخيل
من التوت والظل والساقيه
وفي الباب مدّ الأمير الجميل
ذراعيه يستقبل الآتيه :
« أميرتي الغاليه
لقد طال منذ الشتاء انتظاري
فغيم التأني وفيم الصدود ؟ »

* * *

وهيهات أن ترجعي من سفار
وهل ميّتٌ من سفار يعود ؟

جيكور ٢٩ – ٤ – ١٩٦١

حدائق وفيقة

لوفيقه

في ظلام العالم السفليّ حقلُ

فيه ممـا يزرع الموتى حديقه

يلتقي في جوها صبح وليلُ

وخيال وحقيقه

تنعس الأنهار فيها وهي تجري .

مثقلات بالظلال

كسلال من ثمار ، كدوال

سُرّحت دون حبال .

كل نهر

شرفَة خضراء في دنيا سحيقه .
ووفيقه
تتمطى في سرير من شعاع القمر
زنبقي أخضر ،
في شحوب دامع ، فيه ابتسامْ
مثل أفق من ضياء وظلامْ
وخيال وحقيقه .
أي عطر من عطور الثلج وانِ
صعّدته الشفتان
بين أفياء الحديقه
يا وفيقه ؟
والحمامُ الأسودُ
يا له شلالَ نور منطفي !
يا له نهر ثمار مثلها لم يُقطفِ !
يا له نافورةً من قبر تموز المدمّى تصعدُ !
والأزاهير الطوال ، الشاحبات ، الناعسه

في فتور عصّرت أفريقيا فيه شذاها
ونداها ،
تعزف النايات في أظلالها السكرى عذارى لا نراها
روّحت عنها غصون هامسه .
ووفيقه
لم تزل تثقل جيكور رؤاها .
آه لو روّى تخيلات الحديقه
من بويب كركرات ! لو سقاها
منه ماء المد في صبح الخريف !
لم تزل ترقب باباً عند أطراف الحديقه
ترهف السمع إلى كل حفيف !
ويحها .. ترجو ولا ترجو وتبكيها مناها :
لو أتاها ... !
لو أطال المكث في دنياه عاماً بعد عامِ
دون أن يهبط في سلّم ثلجٍ وظلامِ !

ووفيقه
تبعث الأشذاء في أعماقها ذكرى طويله
لعشيش بين أوراق الخميله
فيه من بيضاتــه الزرق اتقاد أخضرُ
(أي أمواج من الذكرى رفيقه)
كلما رفّ جناحٌ أسمر
فوقها والتم صدر لامعاتٌ فيه ريشاتٌ جميله
أشعل الجوّ الخريفيّ الحنانُ
واستعاد الضمّة الأولى وحواءَ الزمانُ .
تسأل الأمواتَ من جيكور عن أخبارها ،
عن رُباها الربد ، عن أنهارها .
آه والموتى صموتٌ كالظلامِ
أعرضوا عنها ومروا في سلامِ
وهي كالبرعم تلتف على أسرارها .
والحديقه
سقسق الليلُ عليها في اكتئابِ

مثلَ نافورة عطرٍ وشرابِ

وخيال وحقيقة

بين نهديكِ ارتعاش يا وفيقه

فيه بَرْدُ الموت باكِ

واشرأبّت شفتاكِ

تهمسان العطر في لَيل الحديقه .

١٢ - ٨ - ١٩٦١

ام البروم

(المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة)

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها
تطاردها ، وراء الليل ، أشباح الفوانيسِ
سمعت نشيج باكيها ،
وصرخة طفلها ، وثغاء صادٍ من مواشيها ،
وفي وهج الظهيرة صارخاً « يا حاديَ العيسِ »
على ألم مغنّيها .
ولكن لم أرَ الأموات يطردهنّ حفّارُ
من الحفر العتاق وينزع الأكفان عنها أو يغطيها —
ولكن لم أر الأموات ، قبل ثراك ، يُجليها

مجونُ مدينةٍ ، وغناء راقصةٍ ، وخمّارُ .
يقول رفيقي السكران : « دعها تأكل الموتى
مدينتنا لتكبر ، تحضن الأحياء ، تسقينا
شراباً من حدائق برسفون[1] ، تعلّمنا حتى
تدور جماجمُ الأموات من سُكْرٍ مشى فينا ! »
مدينتنا منازلها رحىً ودروبها نارُ ،
لها من لحمنا المعروك خبزٌ ، فهو يكفيها ...
علام تمدّ للأموات أيديها ، وتختارُ ،
تلوك ضلوعَها وتقيئُها للريح تسفيها ؟
تسلّل ظلّها الناريّ من سِجْن ومستشفى
ومن مبغى ومن خمارةٍ .. من كلّ ما فيها ،
وسار على سلالم نومنا زحفا
ليهبط في سكينة روحنا ألماً فيبكيها .
وكانت ، إذ يُطلّ الفجر ، تأتيك العصافيرُ
تساقَطُ ، كالثمار على القبور ، تنقّر الصمتا

(١) ابنة آلهة الخصب اليونانية ، اختطفها بلوتو سيد العالم السفلي ، عالم الموتى . فصارت تعيش معه هناك .

فتحلم أعين الموتى
بكركرة الضياء وبالتلال يرشّها النورُ ،
وتسمع ضجةَ الأطفال أُمّ ثلاثةٍ ضاعوا
يتامى في رحاب الأرض : ان عطشوا وإن جاعوا
فلا ساقٍ ولا من مُطعمٍ ، في الكوخ ظلو واعتلى النعش
رؤوسَ القوم والاكتاف .. افئدةٌ وأسماعُ
ولا عينٌ ترى الأمْ التي منها خلا العشّ .
وفي الليلِ
إذا ما ذرذر الأنوارَ في أبدٍ من الظلمه ،
ودبّتْ طفلة الكفّين ، عارية الخطى ، نسمه
تلمّ من المدينة ، كالمحار وكالحصى من شاطىءٍ رملِ ،
نثار غنائها وبكائها — لم تترك العتمه
سوى زَبَدٍ من الأضواء منثور
يذوب على القبور ، كأنه اللِبنات في سورِ
يباعد عالمَ الأموات عن دنيا من الذلّ ،
من الأغلال ، والبوقات ، والآهات ، والزّحمه .

وأوقدت المدينة نارها في ظلّة الموتِ
تقلّع أعينَ الأموات ثم تدسُّ في الحفرِ
بذور شقائق النعمان ، تزرع حبّة الصمتِ
لتثمر بالرنين من النقود ، وضجّة السفر ،
وقهقهة البغايا والسكارى في ملاهيها .
وعصّرت الدفين من النهود بكلِ أيديها
تمزّقهن بالعجلات والرقصات والزُمُرِ
وتركلهنّ كالأكَرِ
تفجرها الرياح على المدارج في حواشيها
وحيث تلاشت الرعشات والأشواق والوجد
وعاد الحب ملمس دودة وأنين أعصار ،
تثاءبت المدينة عن هوىً كتوقّد النارِ
تموت بجرّها ورمادها ودخانها الهاري ،
ويا لغة على الأموات أخفى من دُجى الغابه
ترددها المقاهي : « ذلك الدلال جاء يريد أتعابه »
إذا سمعوك رنّ كأنه الجرس الجديد يرن في السحَرِ

صدى من غمغمات الريف حول مواقد السَمَر :
« إذا ما هزت الأنسام مهد السنبل الغافي
وسال أنين مجدافِ
كأن الزورق الأسيان منه يسيلُ في حُلُم ،
عصرتُ يديّ من ألـمٍ . »
فأين زوارق العشاق من سيارة تعدو
ببنت هوى؟ وأين موائدُ الخمار من سهل يمد موائد القَمَر؟
على أمواتك المتناثرين بكلّ مُنحَدَرِ
سلامٌ جال فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ ،
على المتبدّلات لحودُهم والغادياتِ قبورُهم طُرقا
وطيبُ رقادهم أرَقا
يحنّ إلى النشور ويحسب العَجَلات في الدرب
ويرقب مَوْعدَ الربّ .

١٩٦١/٧/٢١

امام باب الله

منطرحاً أمام بابك الكبيرْ
أصرخ ، في الظلام ، أستجيرْ :
يا راعيَ النمال في الرمالْ
وسامعَ الحصاة في قرارة الغدير .
أصيح كالرعود في مغاور الجبال
كآهة الهجير .
أتسمع النداء ؟ يا بوركتَ ، تسمعُ .
وهل تجيب إن سمعتَ ؟
صائدُ الرجال
وساحِقُ النساء أنتَ ، يا مفجّعُ

يا مهلك العباد بالرجوم والزلازلِ
يا موحشَ المنازل
منطرحاً أمام بابك الكبير
أحسّ بانكسارة الظنون في الضمير .
أثور ؟ أغضبُ ؟
وهل يثور في حماكَ مذنبُ

* * *

لا أبتغي من الحياة غير ما لديّ :
الهريُ بالغلال يزحم الظلام في مداه ،
وحقلي الحصيد نامٍ في ضحاه
نفضتُ من ترابه يديّ .
ليأتِ في الغداه
سواي زارعون أو سواي حاصدون !
لتنثرِ القبورَ والسنابلَ السنون !
أريد أن أعيشَ في سلام :
كشمعة تذوب في الظلام

بدمعةٍ أموت وابتسام .
تعبتُ من توقّد الهجير
أصارع العباب فيه والضمير ،
ومن لياليّ مع النخيل ، والسراج ، والظنون
أتابع القوافي
في ظلمة البحار والفيافي
وفي متاهة الشكوك والجنون .
تعبت من صراعي الكبير
أشقّ قلبي أطعم الفقير ،
أضيء كوخه بشمعة العيون ،
أكسوه بالبيارق القديمة
تنث من رائحة الهزيمة .
تعبت من ربيعيَ الأخير
أراه في اللقاح والأقاح والورود ،
أراه في كل ربيع يعبر الحدود .
تعبتُ من تصنع الحياه

أعيش بالأمس ، وأدعو أمسي الغدا .
كأنني ممثل من عالم الردى
تصطاده الأقدار من دجاه
وتوقد الشموع في مسرحه الكبير ،
يضحك للفجر وملء قلبه الهجير .
تعبت كالطفل إذا أتعبه بكاه !

* * *

أودّ لو أنام في حماك
دثاريَ الآثام والخطايا
ومهديَ اختلاجة البغايا
تأنف أن تمسّني يداك .
أود لو أراك .. من يراك ؟
أسعى إلى سدّتك الكبيره
في موكب الخطاة والمعذبين ،
صارخة أصواتُنا الكسيره
خناجراً تمزّق الهواء بالأنين :

« وجوهنا اليباب
كأنها ما يرسم الأطفالُ في التراب ،
لم تعرف الجمال والوسامه .
تقضّت الطفولة . انطفا سنا الشباب
وذاب كالغمامه ،
ونحن نحمل الوجوه ذاتـَها ،
لا تلفت العيون إذ تلوح للعيون
ولا تشفّ عن نفوسنا ، وليس تعكس التفاتـَها .
إليك يا مفجّر الجمال ، تائهون
نحن ، نهيمُ في حدائق الوجوه . آهْ
من عالم يرى زنابق الماء على المياه
ولا يرى المحار في القرار
واللؤلؤ الفريد في المحار ! »

* * *

منطرحاً أصيح ، أنهش الحجار :
« أريد أن أموت يا إله ! »

٢٦ - ٨ - ١٩٦١

الغيمة الغريبة

المومس الأجيرة الحقيره
أكثر من حبيبتي سخاءا
أتيتُها مساءا
معانقاً ... أعانق الهواءا
هبّ من القطب على الظهيره ،
مقبّلاً عيونها الخواءا ،
كأنني كيشوت في الأصيل
يركض خلف ظله الطويل
ويطعن السنابل الكسيره
يظنها الأعداء .

ضممتُ منها جثةً بيضاءا
تكفنت من داخلٍ ، وقبرها
في جوفها تناءى .
حملت منها صخرة صمّاءا
تشدني إلى الثرى ،
أرفعها لتلثم الجوزاءا .
الحب أن تبذل ، أن تنال ما تريدُ
كالنبع إذ يدفق ، لا كالبئرِ ،
كالنار تطوي نحوك السماءا
لا شرر الزناد .
أستزيدُ
فألتقي دمي ، كغيمة تعيد نفسها للبحر .
أتعلم السحابة المرعدة المبرقة المجلجله
بأن ماءها سيستحيل غيمة اليها مقبله ،
تبذله في الفجر
وتلتقي به قبيل العصر ؟

أريد أن أضمّ ، أن أقبّلَ
الدم الذي ينبض في الشفاه
كأنما القلب الذي يقبّلُ .
الجسد الموات لا يحس شهقة الأله
تغور كالمدية حين تقتل
فتبعث الحياة في القتيلِ .
أريد أن أحرق كالحريق من أخيلِ :
في القلب واليدين والكعبينِ
ويأكل النار لظى في عيني .
لو كان ما تحسه الحبيبه
الألم ، الدوار .. لا الخواءا
ما كنت مثل غيمة غريبه
ترعد حتى تشعل الهواءا
رعداً
وتأبى الأرض أن تجيبه !

البصرة ٢٢ - ١٢ - ١٩٦١

دار جدي

مطفأةٌ هي النوافذ الكثار
وباب جدّي موصَدٌ وبيته انتظار
وأطرق الباب ، فمن يجيب ، يفتحُ ؟
تجيبني الطفوله ، الشباب منذ صار ،
تجيبني الجِرار جف ماؤها ، فليس تنضح :
« بويب » ، غير أنها تذرذر الغبار .
مطفأة هي الشموس فيه والنجوم .
الحـُقـُب الثلاث منذ أن خفقتُ للحياه
في بيت جديَ ، ازدحمن فيه — كالغيوم
تُختصر البحار في خدودهن والمياه .

فنحن لا نلم بالردى من القبور
فأوجه العجائز
أفصح في الحديث عن مناجل العصور
من القبور فيه والجنائز .
وحين تقفر البيوت من بُناتها
وساكنيها ، من أغانيها ومن شكاتها
نحس كيف يسحق الزمان إذ يدور .

* * *

أأشتهيك يا حجارة الجدار ، يا بلاط ، يا حديد ، يا طلاء ؟
أأشتهي التقاءكن مثلما انتهى إلي فيه ؟
أم الصِّبا ، صباي والطفولة اللعوب والهناء ؟
وهل بكيت أن تضعضع البناء
وأقفر الفِناء أم بكيت ساكنيه؟
أم أنني رأيت في خرابك الفناء

محدّقاً إليّ منك ، من دمي
مكسّراً من الحجار ؟ آه ، أيّ برعم
يُربُ فيك ؟ برعم الردى !! غداً أموت
ولن يظل من قواي ما يظل من خرائب البيوت :
لا أنشق الضياء ، لا أعضعض الهواء ،
لا أعصر النهار أو يمصّني المساء .

* * *

كأنّ مقلتي ، بل كأنني انبعثت (اورفيوس)
تمصّه الخرائب الهوى إلى الجحيم
فيلتقي بمقلتيه ، يلتقي بها ، بيورديس :
« آه يا عروس
يا توأم الشباب ، يا زنبقة النعيم ! ».
طريقه ابتناه بالحنين والغناء :
براعم الخلود فتّحت له مغالقَ الفناء .
وبالغناء ، يا صباي ، يا عظام ، يا رميم ،

كسوتك الرواء والضياء .

* * *

طفولتي ، صباي ، أين .. أين كلُّ ذاك ؟
أين حياة لا يحدّ من طريقها الطويل سور
كشر عن بوّابة كأعين الشباك
تفضي إلى القبور ؟
والكون بالحياة ينبض : المياه والصخور
وذرة الغبار والنمال والحديد .
وكل لحن ، كل موسمٍ ، جديد :
الحرث والبذار والزهور .
وكل ضاحك فمن فؤاده ، وكل ناطق فمن فؤاده
وكل نائح فمن فؤاده . والأرض لا تدور
والشمس ، إذ تغيب ، تستريح كالصغير في رقاده .
والمرء لا يموت ان لم يفترسه في الظلام ذيبٌ
أو يختطفه مارد ، والمرء لا يشيب

(فهكذا الشيوخ منذ يولدون
الشعَر الأبيض والعصيّ والذقون) .

* * *

وفي ليالي الصيف حين ينعس القَمَرْ
وتذبل النجوم في أوائل السّحَرْ ،
أفيق أجمع الندى من الشجر
في قدح ، ليقتل السعال والهُزال .
وفي المساء كنت أستحمّ بالنجوم ،
عيناي تلقطانهن نجمةً فنجمةً ، وراكب الهلال
سفينةً .. كأنّ سندباد في ارتحال :
شراعيَ الغيوم
ومرفأي المحال ،
وأُبصر الله على هيئة نخلةٍ ، كتاج نخلة يبيضُّ
في الظلامْ ،
أحسّه يقول : « يا بنيّ ، يا غلام ،
وهبتُك الحياة والحنان . والنجوم

وهبتها لمقلتيك ، والمطر
للقدمين الغضّتين . فاشرب الحياه
وعبّها ، يحبّك الإله . »

* * *

أهكذا السنون تذهبُ
أهكذا الحياة تنضب ؟
أحس أنني أذوب ، أتعبُ ،
أموت كالشجرْ .

حنين في روما

يتثاءب جسمك في خلدي
فتُجنّ عروقْ ،
عريان تزلّقَ في أبدِ
تُنهيه الرعشة ، فهي شروق
في ليـل الشهوة . كل دمي
يتحرق ، يلهث ، ينفجر ،
ويقبّل ثغرك ألفُ فمِ
في جسمي تُنبِتُها سَقَرُ
وأحنّ ، أتوق .

وأحس عبيرَك في نَفَسي

ينهدّ ، يدندن كالجرسِ .

ووليمةُ جسمكِ يا واها
ما أشهاها !!

يا فجر الصيف إذا بردا
يا دفء شتائي ، يا قبلاً أتمناها
أحيا منها ، وأموت بها وأضم الأمس
أمسّ غدا

وتعود اللحظةُ لي أبدا .
ما أنأى بيتكِ ، ما أنأى عينكِ
بحـار ،

وجبالُ دم : زمنٌ جمدا
ليعود مدى . وأجنٌ ، أثار

فأحسّ عبيركِ في نَفَسي
ينهد ، يدندن كالجرسِ .

ما أسعدها ، ما أشقاها ؟!
أرضي ، آسيةُ العريانه
أنا في روما أبكيها وأعيش بذاكرها
ألأنك فيها أهواها ؟

من جوع صغارك يا وطني ، أشبعتَ الغرب وغربانه .
صحراء من الدم تعوي ، ترجف مقروره
ومرابط خيل مهجوره
ومنازل تلهث أوّها
ومقابر ينشج موتاها .

وأحسّ عبيركِ في نَفَسي
ينهدّ ، يدندنُ كالجرسِ
لو شئتُ لطيفك أوربا
وطناً ، لحملتُ معي زادي
وعبرتُ مرافئها ، وطويتُ شوارعها درباً دربا
أسقيه الشمس وأطعمه قُبلاً وبراعم أورادِ .
لكنك أثبتُ في الشرق ...

سأعود فأقطع سلـّمنا وثبا
لأضمّك يا أبدَ الشوقِ
يا نور المرفأ يهدي القلب إذا تاها
يا قصة عنترَ إذ تروى حول التنـّور فأحياها
سأحسّ عبيرك في نفـَسي
ينثال ويقرعُ كالجرَسِ

روما ١٩ / ١٠ / ١٩٦١

الأم والطفلة الضائعة

قفي ، لا تغربي ، يا شمس ، ما يأتي مع الليلِ
سوى الموتى . فمن ذا يُرجع الغائب للأهلِ
إذا ما سدّت الظلماء
دروباً أثمرت بالبيت بعد تطاول المحل ؟
وان الليل ترجف أكبد الأطفال من أشباحه السوداء
من الشهب اللوامح فيه ، مما لاذ بالظلّ
من الهمسات والأصداء .
شعاعك مثل خيط اللابرنث ، يشدّه الحب
إلى قلب ابنتي من باب داري ، من جراحاتي
وآهاتي .

مضى أزلٌ من الأعوام : آلاف من الأقمار ، والقلب
يعد خوافق الانسام ، يحسب أنجم الليل ،
يعد حقائب الأطفال ، يبكي كلما عادوا
من الكتّاب والحقل .
ويا مصباح قلبي ، يا عزائي في الملمات ،
مني روحي ، ابنتي : عودي إليّ فها هو الزادُ
وهذا الماء . جوعي ؟ هاكِ من لحمي
طعاماً . آه !! عطشى أنت يا أمي ؟
فعبّي من دمي ماء وعودي .. كلهم عادوا .
كأنك برسفون تخطّفتها قبضة الوحش
وكانت أمها الولهى أقل ضنى وأوهاما
من الأم التي لم تدر أين مضيت !

في نعش ؟

على جبل ؟ بكيت ؟ ضحكتِ ؟ هبّ الوحش أم ناما ؟
وحين تموت نار الليل ، حين يعسعس الوسن
على الأجفان ، حين يفتش القصّاص في النار

ليلمح من سفينة سندباد ذوائبَ الصاري
ويخفت صوته الوهَنُ ،
يحن دمي اليك ، يحن ، يعصرني أسىً ضارٍ .
مضت عشر من السنوات ، عشرة أدهر سود
مضى أزلٌ من السنوات ، منذ وقفتُ في الباب
أنادي ، لا يردّ عليّ إلا الريحُ في الغاب
تمزق صيحتي وتعيدها .. والدرب مسدود
بما تتنفس الظلماءُ من سمُر وأعنابِ
وأنتِ كما يذوب النور في دوّامة الليل ،
كأنك قطرة الطلّ
تشرّبها التراب .. أكاد من فـَرَقٍ وأوصابِ
أسائل كل ما في الليل من شبحٍ ومن ظل ،
أسائل كلّ ما طفلٍ :
« أأبصرت ابنتي ؟ أرأيتها ؟ أسمعتَ ممشاها ؟ »
وحين أسير في الزحمه
أصغّر كل وجه في خيالي : كان جفناها

كغمغمة الشروق على الجداول تشرب الظلمة ،
وكان جبينها .. وأراك في أبد من الناسِ
موزّعة فآه لو أراكِ وأنت ملتمه !
وأنتِ الآن في سَحَر الشباب ، عصيره القاسي
يغلغل في عروقك ، ينهش النهدين والثغرا
وينشر حولك العطرا ،
فيحلم قلبك المسكين بين النور والعتمه
بشيء لو تجسد كان فيه الموت والنشوه !
وأذكر أن هذا العالم المنكود تملأ كأسه الشقوه
وفيه الجوع والآلام ، فيه الفقر والداء .
أأنت فقيرة تتضرع الأجيال في عينيك ، فهي فمُ
يُريد الزاد ، يبحث عنه والطرقات ظلماءُ ؟
أحدّق في وجوه السائلات أحالها السقمُ
ولوّنها الطوى ، فأراكِ فيها ، أبصر الأيدي
تُمَدّ ، أحسّ أن يدي .. يدي معهن تعرض زرقة البرد
على الأبصار وهي كأنهن أدارها صنمُ
تجمّدَ في مدى عينيه أدعيةٌ وسال دم

فأصرخ « في سبيل الله » تخنق صوتيَ الدمعه
بخيط الملح والماء .
وأنت على فمي لوعه
وفي قلبي ، وضوء شع ثم خبا بلا رجعه
وخلّفني أفتش عنه بين دجى وأصداءِ

البصرة ٦ - ١٠ - ٩٦١

النبوءة الزائفة

وكانت تجمّعُ في خاطري
خيوطٌ ضبابيّةٌ قاتمه
نهاياتُها في المدى عائمه
وأعراقها السود في ناظري .
ودارتْ خيوطٌ ولُفتْ سواها
فعانقنَ أفْقا
ووسوسْنَ غيماً على الريح مُلقى
تجمّعَ من كل صوب ، ورعداً وبرقا :
لقد أغضب الآثمون الإلها
وحقّ العقاب !

يا أفراسَ الله استبقي
يا خيلاً من نارٍ وسحاب ،
من وَقع سنابك الرعدُ
والبرقُ الأزرق في الأفـُق
وصهيلك صور لظىً وعذاب ،
الوعد !! لقد أزف الوعدُ .
فيا قبضةَ الله ، يا عاصفاتُ
ويا قاصفات ، ويا صاعقه
ألا زلزلي ما بناه الطغاةُ
بنيرانك الماحقه !
وتلمّ في خاطري
خيوطُ السحاب
وتـُلقى على الأفـُقِ الدائرِ
وراءَ القباب :
وأحسستُ أن الغيوم انتظارْ
وأنّ انتظاراً يشدّ الترابْ

وأصدى .. بماذا ؟
بصوت انفجار
على الشطّ وادٍ وزمّ الشرار
ورقـّعتُ بالنظرة الشامته
ثقوبَ الكوى الصامته :
سيندكّ سورٌ ، ستنصبّ نار .
وكان انتظار .
وجمّعتِ الأرضُ أطباقَـها :
سيندكّ سورٌ ، ستنصبّ نار ،
وعصّرت السّحْبُ أعراقها
فبلّ الثرى عاصف ممطر !

جيكور ١٩٦١/١١/٣

مدينة السراب

عبرتُ أوربا إلى آسِيه
وما انطوى النهارْ
كأنما الجبال والبحار
ربى. وأطرافٌ من الساقيه
يطفرها الصغار .
بين شروق الشمس والغروبْ
تعانق الشمال والجنوب
ونامت المروج في القفار .
وأنتِ يا ضجيعتي ، كأنك الكواكبُ البعيده ،
كأنّ بيننا من الكرى جدار .

تضمّك اليدان ، تعصران جثة بليده ،
كأنني معانق دمي على حجار
في منزل لصوصه الرياح والهجير والغيوم ،
مساؤه السكون والنجوم
وصبحه انتظار .
ترامت السنون بيننا : دماً ونار ،
أمدّها جسور
فتستحيل سور ،
وأنت في القرار من بحارك العميقه
أغوص لا أمسّها ، تصكّني الصخور ،
تقطّع العروق في يديّ ، أستغيث : « آه يا وفيقه
يا أقربَ الورى إليّ أنت يا رفيقه
للدود والظلام » .
عشر سنين سرتها إليك ، يا ضجيعةً تنام
معي وراء سورها ، تنام في سرير ذاتها ،
وما انتهي السّفار

اليك يا مدينة السراب ، يا ردى حياتها .
عبرت أوربا إلى آسيه
وما انطوى النهار ،
وأنت يا ضجيعتي ، مدينة نائيه
مسدودة أبوابها وخلفها وقفت في انتظار .

البصرة ٢ - ١١ - ١٩٦١

نبوءة ورؤيا

« تنبأ عراف هندي بأن الحياة على الارض
ستنتهي يوم ٢ شباط سنــة ١٩٦٢ . »

نبوءتـُك المريرةُ عذّبتني ، مزقت روحي ؛
نبوءتك الرهيبةُ ، ايها العراف تبكيني ؛
رأيتَ مسالكَ الأفلاك تُهرع بالملايينِ .
قرأتَ خواطرَ الريحِ
ووسوسة الظلام كأنّ حقلاً بات ينتحب :
« ستنطفىء الحياة » ، ورحتَ ترسم موعدَ القدرِ .
اذا حدجتنيَ الشهُبُ
هتفتُ بها : « غــداً سنموت . فانهمري على البَشَرِ :

لأهونُ أن أموت لديك وحدي دون حشرجةٍ ولا أنّهْ
من القدر المروّع يجرف الأحياء بالآلافْ . »
ولكني أصيخ إلى النهار فأسمع العراف
يهـــدّد : « سوف يهلك من عليها ، سوف تلتهبُ . »
وتسرب في دمي جِنـّه .
وحين رقدتُ أمسِ رأيتُ في ظلَـموتِ أحلامي
رؤى تتلاحق الأنفاس منها ثم تنقطع
أفقتُ وما تزال تضيء في خَلَـدي وتندلع
كما يتفجّر البركان في ظلمات ليل دون انسام ،
بلا قمر وان يك في المحاق أكاد أقتلع
أكاد أمزق الدم في عروقي بارتعـادة روحي الحيرى ...
أكاد أعانق القبرا .
أرى أفقاً وليلاً يطبقان عليّ من شُرفه
ولي ولزوجتي ، في الصمت ، عند حدودها وقفه
نحدّق في السماء ونمنع الطفلين من نظر
إلى مَا في دجاها الراعب المأخوذ من سقر ،

تطفّأت الكواكب وهي تسقط فيه كالشرر
تطفّأ تحت ذيل الريح وهي تسُفّه سفّا ،
كأنّ عصاً تسوق مواكب الأفلاك في صحراء من ظُلَمِ ،
ويلهث تحتنا الآجرّ ، يزحف تحتنا زحفا ...
تضعضع فهو يُمسِك نفسه ويئنْ من ألمِ
ليهويَ حين يغفل ، حين يعجز ثم ينهارُ :
دجىً نُثرت بها نارُ .
بنيّ اليك صدري ، فيه فادفن وجهك الطفلا
بنيّ صهِ أقصّ عليكَ ... أيّة قصّة عندي ؟
تفجّرت الفقاعة وانتهى أبَدٌ إلى حدٍّ :
علام أتيتَ للدنيا ؟
ليدركَ عمْرُك الليلا ؟
لتحيا أربع السنوات ثم لتبصر الساعة
تقوم ولست تُدرك ما تراه ؟ تريد أن تحيا
وتجهل أن موتك فيه بعثُك ، أن للدنيا
نهاية سلّمٍ يفضي إلى أبدٍ من الملكوت .
قلبُك ؟ آه ... من راعه ؟

بكاؤك وارتعابك فيها لله احراج
وباسمها اسائله الحساب : اتصرع الأطفال
لتشهد لوعة الآباء ؟ تسعد قلبك الآمال
تخيب !!

يكاد يهوي من صراخي عنده التاجُ
ويُهدم عَرْشُهُ ويخرّ ، تُطفأ حوله الآباد والآزال
ويقطر لابن آدم قلبه ألماً وينفطر .

بغداد ١٩٦١/١١/٢٦

ذهبت

ذهبتِ فاستحال بعدكِ النهارْ
كأنه الغروبْ ،
كأنما سحبت من خيوطه النّضار .
وظلّل المدارج انكسارْ
ومثلُها انكسرتُ ، غام في خيالي الجنوبْ
ينوء بالخريفْ
تعرّت الكروم والجداول انطفأنَ ، والحفيفْ
يموت في ذرى النخيل ، والدروب ،
بصمتها ، انتظار .
كحّل عينيك سوادُ نار

تشبّ من قلبكِ ، من براعم النهود ،
يهتف بي إذا نظرتِ : أنتِ في استعار
يا أيّها البركان من ورود .
أواه لو أشدّ عينيك إلى النهار ،
إلى غدٍ فوق دمي يحومْ .
أي سماء أشعلتها رعشة النجومُ
وأثقل الظلام فيها من ندى المطرْ
نظرتِ من قرارها إليّ ، كالغيوم
تكنُّ في اربدادها الزَهَرْ !
يا نظرةً تخطفتني ريحها السّموم
إلى الضفاف الخضر من نَهَرْ
غرقتُ فيه ، أشعليني ! أطفئي اللهيبْ
يا نظرةً يشدّ قلبي بالسما وتر
يعزف مرّها عليه غنوةَ القمر .

١٩٦٢/١/٢٠

يا نهر

يا نهر عاد اليك من أبد اللحود ومن خواء الهالكين
راعيك في الزمن البعيد ، يسرّح البصر الحزين
في ضفتيك ويسأل الأشجار عندك عن هواه
أوراقها سقطت وعادت ثم أذبلها الخريف
وتبدلت عشرين مره .
هيهات يسمع ، إذ توسوس في الدجى ، أصداءَ آه
بالامس أطلقها لديك ترن في جرس الحفيف .
كم قبلةٍ عادت دوائر في مياهك مستسرّه ،
دنياه كانت أمس فيك ، فهل تعود إلى الحياه ؟
ليود من شغفٍ بمائك لو غدا

ظلاً يداعب فيه جنّياتِهِ
متعلقاً بشراع كل سفينةٍ
ليجاذب الملاح أغنيّاتِه
وتلوذ أنوار النجوم بصدره
وتراقصُ الأمواج من ضحكاته .
ما أخيب الموتى إذا رجعوا إلى الدنيا القديمه
وتلصصوا يتطلعون كما تطلع من كوى دارٍ شريدُ
ورأى ثمار الجمر سار عصيرها دفئاً وجال عبيرها المهدودُ
ما أخيب الموتى تكاد تحيل موتهم الهزيمه
شيئاً أمرّ من الحياه .
ما أخيبَ الموتى ! تغير كل شيء ، كل باقٍ
مما أطلّ على الحياة لأنهم كانوا كواه ،
أم مات ما عرفوه إذ ماتوا ، فليس سوى رؤاه ؟
فتكبدوا ألمَ الفراقِ ،
ألم التغرب مرتين . فيا ضفاف النهر ، يا أمواجه ومحاره
ماذا تبقى فيكِ من أمس الهوى ؟

الدوح أسلم للبلى ورقاتَه
وهي التي سمعت لديك حواره
وهي التي أودعتُ فيها ، في الضحى ،
قبلاتِنا وطويت فيها ناره ،
إني ذويتُ مع الظلام كما ذوى
يا ليت لي شفة فتلثم أو يداً فتمسُّ ماءَكْ .
اني لأكثر من غريب غربةً وأشد حيْره ؛
لم يبق فيك سوى الزمان ، وليس مما فيك قطره
من ماء أمس . كأن فجرَك عادَ قبل غدٍ مساءَكْ
وكأن ضفتك الحبيبة ضفّة الأبد البعيدِ .
يا نهر ان وردتك «هالةُ» والربيع الطلق في نيسانِه
ولى صباها فهي ترتجف الكهولةَ ، وهي تحلم بالورود
في حين أثقلها الجليدُ ، كأن نبعاً في اللحود
تمتص منه عروقها دمها ، فقل : لم ينس عهدك
وهو في أكفانِهِ .

أبو الخصيب ١٩٦٢/٢/٢

صياح البط البري

وذرّى سكونَ الصباحِ الطويلْ
هُتافٌ من الدّيك لا يصدأُ
وهزّ الصدى سَعَفاتِ النخيلْ
وأشرقَ شبّاكُنا المطفأُ .
هتافٌ سمعناه منذ الصّغَرْ
سمعناه حتى نموتْ
يمرّ على عَتَبَاتِ البيوت
فيرسمُ أبوابَهَا والحُجَرْ
ولا يهدأ
إلى أنْ تسيرَ الحقولْ

الينا فنقطفَ منها الثمرْ

وعند الضحى وانسكاب السماء
على الطّين والعُشْبةِ اليابسه ،
يشقّ الينا غصونَ الهواء
صياحٌ ، بكاءٌ ، غناءٌ ، نداء
يُبشّر شطآننا اليائسه
بأنّ المَطَرْ
على مَهْمهِ الرّيح مدّ القلوعْ ،
هو البطّ ... فلْتَهنأي يا شموعْ
بموتٍ به تعرفين الحياةَ
به تعرفين ابتسامَ الدموعْ :
نذوراً تذوبين ، للأوْلياءْ .

صياحٌ ... كأنّ الصّياحْ
ينشّرُ ، مما انطوى من رياح ،

سهولاً وراءَ السهولْ
أزاهيرُها في الدجى من نباح
وعند النهار ُخزامى ، أقاحْ
وختميّةٌ ما لها من ذيول ...
ينشّرُ في شاطىءٍ ُمشمسِ
من القَصَبِ الكثّ غاباً له َعذَبات تطولْ .
صياحٌ كأجراس ماءٍ ... كأجراس حقْلٍ من النرجسِ
ُيدنْدِنُ والشمسُ ُتصغي ، يقولْ
بأنّ المطرْ
سيهطلُ قبل انطواء الجناح
وقبل انتهاء السّفَرْ ...

١٩٦٢/٣/١٨

المعبد الغريق

خيولُ الريح تصهلُ ، والمرافىءُ يَلـْمسُ الغَرْبُ
صواريَها بشمس من دمٍ ، ونوافذُ الحانـَه
تراقـَصُ من وراء خِصاصها سُرُجٌ ، وجمّع نـَفْسَـه
الشـَّرْبُ
بخيْطٍ من خيوط الخوْف مشدوداً إلى قنّينةٍ ، ويمدّ آذانه
إلى المتلاطم الهدّار عند نوافذ الحانه .

وحدّث – وهو يهمس جاحظَ العَيْنَيْن ، مرتعـــدا ،
يعبّ الخـَمْرَ – شيخٌ عن دجىً ضافٍ وأدغال
تلامحَ وَسْطَـها قـَمَرُ البحيْرةِ يلثم العَمَدا ...
يمسّ البابَ من جنبات ذاك المـَعْبَدُ الخالي

طواهُ المـــاءُ في غَلَسِ البحيرةِ بَيْن أحراش مبعثرَةٍ
وأدغالِ .

هنالك قِبَلَ ألفٍ ، حينَ مجّ لظاه من سَقَرِ
فمٌ يتفتّح البُرْكان عنه فتنفضُ الحُمّى
قرارةَ كلّ ما في الوادِ من حَجَرٍ على حَجَرِ ،
تفجّر باللظى رَحِمُ البحيرة ينثر الأسمـــاكَ والدمَ ،
مُرْغياً سمّا

وقرّ عليه كلُّكلُ معبدٍ عصفتْ به الحمّى .
تطفّأ في المباخر جَمْرُها وتوهّجَ الذّهَبُ
ولاح الدُّرّ والياقوت أثماراً من النورِ ،
نجوماً في سماء الماء تزحفُ دونها السّحبُ
تمرّغَ فوقَها التمساحُ ثم طفا على السّورِ
ليحرس كنزَه الأبديّ حتى عن يد الظلماء والنور

وأرسى الأخطُبوطُ فنارَ مَوْتٍ يرصد البابا ،
سجا في عينهِ الصوّراء صُبْحٌ كان في الأزَلِ ...

تهزّأ بالزمان ، يمرّ ليلٌ بعد ليلٍ وهو ما غابا
ففيمَ غرورُ هذا الهالكِ الإنسان ، هـذا الحاضرِ المشدود بالأجَلِ ؟
أعمّرَ ألْفَ عامٍ؟ ليته شهد الخلائق وهي تعبر شُرْفةَ الأزَلِ ؟

* * *

ألا يا ليْتَه شهِدَ السلاحِفَ : تسحقُ الدّنيا
قياصرَها ، ويمنع دِرْعُها ما صوّبَ الزّمَنُ
اليها من سهام الموت !
لكنّ الذي يحيا
بقلْبٍ يعبر الآبادَ ، يكسر حدّه الوَهَنُ
فيصمتُ ، عُمْرُه أزَلٌ يمسْ حدودَه أبَدٌ من الأكوان في دنيا
هنالك ألْفُ كنزٍ من كنوزِ العالَم الغرْقى
ستُشبعُ ألْفَ طفْلٍ جائعٍ وتُقيل آلافاً من الداءِ
وتُنقذُ ألف شعْبٍ من يد الجلاّد ، لو َترْقى
إلى َفلَكِ الضمير !

أكلّ هذا المـــال في دنيا الأرقـاءِ
ولا يتحرّرون ؟ وكيف وهو يُصفّدُ الأعناقَ ،
يربطها إلى الداءِ ؟

كأنّ الماءَ في ثَبَجِ البحيرةِ يمنعُ الزّمنا
فلا يتقحّمُ الأغوارَ ، لا يخطو إلى الغـُرَفِ .
كأنّ على رِتاج الباب طلـّسْماً ، فلا وَسَنا
ولكنْ يقظةٌ أبَـــدٌ ، ولا مَوْت يحدّ حدودَ ذاك الحاضر
الترِفِ
كأنّ تهجّدَ الكـُهّانِ نبْعٌ في ضمير الماء يدفق منــه
للغـُرَفِ .

إذنْ ما عاد من سَفَرٍ إلى أهليه عوليسُ ...
إذنْ فشراعه الخفّاقُ يزرع فائرّ الأمواجْ
بما حَسَبَ الشهورَ وعدّ حتّى هدّهُ البؤسُ .
فيا عوليس .. شابَ فتاكَ ، مَبْسم زَوْجِكَ الوهّاج
غدا حَطَباً . ففيم تعود ، تفري نحو اهلك أضلعَ الأمواجْ
هلُمّ فماء شيني [1] في انتظاركَ يحبس الأنفاسْ

---

(١) بحيرة في الملايو غرق المعبد الى قرارتها .

فما جرحتْه نَقْرةُ طائرٍ أو عكرته أناملُ النّسمِ .

هلُم فأنّ وَحْشاً فيه يحلم فيكَ دونَ الناسْ
ويخشى أن تفجّرَ عَيْنَه الحمراءَ بالظلمِ
وأنّ كنوزَهُ العـــذراء تسأل عن شراعك خافقَ النّسَمِ
أما فجعتْك في طروادةَ الآهاتُ من جَرْحى
ومحتضرين ؟
يا لدمٍ أريقَ فلطّخ الجدْرانْ
وردّ ترابَها الظمآن طيناً ، ردّه جُرْحا
كبيراً واحداً ، جرْحاً تفتح في حشا الإنسان
ليصرخَ بالسماء .
فيا لصوتٍ ردّدته نوافذُ الحجُرات والجدران :

« لأجْلِ فُجورِ أُنثى واتّقادِ مُتوّجٍ بالثارْ
تخضبُ من دمِ المُهُجات حتى سُلمُ الأفنِ ؛
وحل بلا أوانٍ يوْمنا ، وتساوت الأعمار

كزرع منه ساوى منجلٌ ...

وهناك في الشّفَقِ

تنوحُ نساءنا المترمّلات، يُوَلوِلِ الأطفال عند مدارج الأفق».

هلمّ فقد شهدتُ ، كما شهدتَ ، دماً وأشلاء :

تفجّر في بلادي "قمقمٌ" ملأتْه بالنارِ

دهورُ الجوع والحرمان .

أيّ خليقةٍ قاءا ؟

رأينا أنّ أفئدةَ التّتار ، وأذؤبَ الغارِ

أرقّ من الرّعاع القالعينَ نواظرَ الأطفال والشاوينَ بالنـــار

شفاهَ الحُلْمةِ العذراء .

يا نهْراً من الحقْدِ

تدفّقَ بالخناجر والعِصيِّ ، بأعْينٍ غضبى :

نجوماً في سماء شدّها قابيلُ بالزّنْدِ .

فليْتك حين هزّ الموْصِلَ الأعصارُ (لا دَرْباً

ولا بيْتاً ، ولا قبْراً نجا فيهـــا) شهدتَ الأعيُنَ الغَضبى

ولَيْتَكَ في قطارٍ مرّ حين تنفّس السَّحَرُ
فقصّ ، على سريرِ السكّةِ الممدود ، أمراسا [1]
تعلّقَ في نهايتهنّ ِجسْمٌ يحصدُ النّظَرُ
عليه الجُرْحَ بعد الجُرْح بعد الجرح أكْداسا
ليهويَ جسم « حفصة » [2] لابساً فوق النجيع دماً
وأمراسا .

وفيمَ نخافُ في ثَبَجِ البحيْرة أو حفافيها
كواسج [3] ضارياتٍ أو تماسيحَ التظتْ لَهَبا
نواجذُها الحديدة ؟ فيم تخشى كلّ ما فيها ؟
فإنّ عقارب الرقّاع [4] يُضمر سمّها العَطَبا

---

(١) الأمراس : الحبال .
(٢) إحدى شهيدات الموصل (العراق) .
(٣) سمك القرش ، كلاب البحر .
(٤) احد ابطال المد الفوضوي في العراق .. ينزل السجن الآن محكوماً عن سبع جرائم .

وتزرع في الجسوم أزاهرَ الدمِ والجراحَ بلا دم لَـهَبا

هلـُمّ نشقّ في الباهَنـْج [1] حقلَ الماء بالمجذافْ
وننثر أنـْجُمَ الظلماء ، نُسقطـُها إلى القاعِ
حصىً ما ميّزتـْه العينُ عن فَيْروزه الرفـّاف
ولؤلؤهِ المنقـّطِ بالظلام .
سنُرعب الراعي
فيُهرع بالخرافِ إلى الحظيرةِ خَوْفَ أن يغرقـْنَ في القاعِ .

هلـُمّ فـَلـَيْلُ آسيةَ البعيد مداه ، يدعونا
بصوتٍ من نُعاس ، من ردىً ، من سجْع كـُهـّانِ .
هلـُمّ ... فما يزال الدهرُ بين أيدينا .
لنطـْوِ دُجاه قبل طلوع شمسٍ دونَ ألوانِ
تبدّد عالمَ الأحلام ، تـُخـْفِتُ - إذْ يرنّ التـّبْرُ فيها -
سَجَعَ كـُهـّانِ !

* * *

---

(١) النهر المؤدي الى بحيرة شيني .

يجول التتبرُ فيها مثل وَحشٍ يأكلُ الموتى
ويشرب من دم الأحياء ، يسرق زادَ أطفالِ
ليتّقدَ اللظى في عَينه ، ليُميره صَوتا
يحطّمُ صوتَ كلّ الأنبياء هناك .
يا لرنين أغلالِ
ويا لصدىً من الساعات ، بالأكفان مسّ رؤوسَ أطفالِ
وفلّ عناقَ كلّ العاشقين ، ودسّ في القُبلة
مُدىً من حشرجات الموت ، ردّ أصابعَ الأيدي
أشاجعَ غابَ عنها لحمها ، وستائرُ الكُلّه
يحوّلُها صفائح تحتها جُثثٌ بلا جِلدِ
هلُمّ فبَعدُ ما لمح المجوسُ الكوكب الوهّاج تُبسَطُ
نحوه الأيدي
ولا ملأت حِرَاءَ (١) وصُبحَه الآياتُ والسوَرُ .
هلُمّ فما يزال زيوس يصبغ قمّة الجبَلِ
بجمرته ، ويُرسل ألف نسرٍ نزّ من أحداقها الشرَرُ

---

(١) الغار الذي نزل الوحي فيه على محمد .

لتخطف من يُدير الخمر [٢] يحمل أكؤسَ الصهباء

والعَسَل

هلُمّ نزور آلهةَ البحيرة ،

ثم نرفعُها لتسكن قمّةَ الجبل !

البصرة ١٩٦٢/٢/١٧

---

(٢) غانيميد الشاب اليوناني الذي ارسل اليه زيوس (كبير الآلهة) نسراً فاختطفه واصبح ساقياً للآلهة .

أفياء جيكور

نافورة من ظلالٍ ، من أزاهيرِ
ومن عصافيرِ ..
جيكورُ ، جيكورُ ، يا حَقلاً من النور
يا جدولاً من فراشاتٍ نُطاردها
في الليل ، في عالم الأحلام والقَمَرِ
ينشرْنَ أجنحة أندى من المطرِ
في أوْل الصيف .
يا بابَ الأساطيرِ
يا بابَ ميلادنا الموصولَ بالرحِمِ
من أين جئناكِ ، من أيّ المقاديرِ ؟

من أيّما ظُلَمٍ ؟
وأيّ أزمنةٍ في الليل سرناها
حتى أتيناك أقبلنا من العَدَمِ ؟
أم من حياة نسيناها ؟
جيكورُ مسّي جبيني فهو ملتهبُ
مسّيه بالسَّعَفِ
والسنبُل الترِفِ .
مدّي عليّ الظلالَ السمْرَ ، تنسحبُ
ليلاً ، فتخفي هجيري في حناياها .

ظلٌّ من النخْل ، أفياءٌ من الشّجَرِ
أندى من السَّحَرِ
في شاطىء نام فيه الماء والسُّحبُ ...
ظلٌّ كأهداب طِفلٍ هدّه اللعِبُ ،
نافورة ماؤها ضوء من القَمَرِ
أودّ لو كان في عينيّ ينسربُ
حتى أحسّ ارتعاش الحُلم ينبع من روحي وينسكبُ

نافورة من ظلالٍ ، من أزاهيرِ
ومن عصافير ...

جيكورُ .. ماذا ؟ أنمشي نحن في الزّمَنِ
أم أنه الماشي
ونحن فيه وقوفٌ ؟
أين أوله
وأين آخرُه ؟
هل مرّ أطوَله
أم مرّ أقصره الممتدّ في الشجَنِ
أم نحن سيانِ ، نمشي بين أحراشِ
كانت حياةَ سوانا في الدياجيرِ ؟
هل أنّ جيكور كانت قبل جيكورِ
في خاطر الله .. في نبعٍ من النور ؟
جيكور مدّي غِشاءَ الظلّ والزهَرِ ،
سدي به بـاب أفكاري لأنساها :
وأثقلي من غصون النوْم بالثمَرِ

بالخوخ والتين والأعناب عاريةً من قشرها الخضِرِ
ردي إليّ الذي ضيّعتُ من عُمُري
أيّام لهْوي .. وركضي خلفَ أفراسِ
تعدو من القَصَص الريفي والسّمَرِ ؛
ردّي أبا زَيْدَ ، لم يصحب من الناسِ
خلاّ على السفَرِ
إلاّ وما عاد .
ردّي السندباد وقد ألقته في جُزُرِ
يرتادها الرخ ريحٌ ذات أمراسِ

جيكورُ لُمي عظامي ، وانفضي كفَني
من طينِهِ ، واغسلي بالجدْوَل الجاري
قلبي الذي كان شبّاكاً على النارِ .
لوْلاكِ يا وطني ،
لولاكِ يا جنتي الخضراء ، يا داري
لم تَلقَ أوتاري
ريحاً فتنقل آهاتي وأشعاري ،

لولاك ما كان وَجْهُ الله من قدري .

أفياءُ جيكورَ نبعٌ سال في بالي
أبلّ منها صدى روحي ..
في ظلّها أشتهي اللقيا ، وأحلم بالأسفار والرّيحِ
والبحرِ تقدح أحداق الكواسج في صخابه العالي
كأنها كِسَرٌ من أنجمٍ سقطتْ
كأنها سُرُجُ الموتى تقلبُها أيدي المرائس من حالٍ
إلى حالِ

أفياءُ جيكور أهواها
كأنها انسرحتْ من قبرها البالي ،
من قبرِ أمي التي صارت أضالعها التعبى وعيناها
من أرض جيكور .. ترعاني وأرعاها .

جيكور - ١٩٦٢/٣/١٧

الشاعر الرجيم

« إلى شارل بودلير »

حملت للنزال سيفك الصديء
يهتز في يدٍ تكاد تحرق السماء
من دمها المتقد المضيء ،
تريدُ أن تمزّق الهواء .
وتجمعُ النساء
في امرأةٍ شفاهُها دمٌ على جليد
وجسمها الخاتل البليد
أفعى إذا مشت ، وسادة على الفراش ...
لا تريد
أن تفتح الكوى ليدخل الضياء

كيْ لا تُحسّ أنها خُواء .
ويرفع الشّرْقُ أمام عينك الستورْ ،
توشك أن تعانقَ الجَمال عند سُدّة الأله ،
تكاد أن تراه
يهفُّ وسْطَ غيْمةٍ من عَبَقٍ ونور .
تراه في حُلمة نَهْدٍ توقد النجومْ
بجمرةٍ لها ...
أرأيتَه يقوم
من قبره ، تحمله سحابةُ الدّخانْ
ينام تحت ظلّها الفقير والشريد :
فهو أميرٌ حوله الكؤوسُ والقيان ،
وبيْتُه العتيد
جزيرٌ من جُزُرُ المرْجان
كأنّ بحراً غاسلاً لسبوس[1] بالأجاج
تشربه روحك من صدىً إلى القرارْ
كأن سافو أورثتك من العروق نار ،

---

(١) الجزيرة التي اتخذت الشاعرة الاغريقية سافو هيكلاً لها فيها .

وأنت لا تضمُّ غيرَ حُلمِك الأبيدْ
كمن يضمّ طيفَه المُطلّ من زجاجْ :
حُرقةُ نرسيس ، وتنتلوسُ [1] والثمارْ !
كأنّ أفريقيةَ الفاترة الكسولْ
(أنهارُها العراضُ والطبول
وغابُها الثقيلُ بالظلال والمطرْ ،
وقيظُها النديّ .. والقمَر)
تكورتْ في امرأةٍ خليعةِ العذار
رضعتَ منها السُمّ واللهيبْ ،
قطرْتَ فيها سُمّك الغريب ...
كأنّها سحابةُ الدخانِ والخدَرْ
أقمتَ منها ، بين عالمٍ تشدّه نوابضُ النّضار
وبين عالمٍ من الخيال والفِكَرْ ،
من نشوةٍ جدار
تقبع خلف ظلّه فلا ينالكَ البَشَر .

(١) عشق نرسيس ظله . وتنتلوس جائع أبداً يقارب من فمه غصن مثقل بالثمار ، حتى إذا كاد يأكل أبعدت الريح الغصن عن فمه .

دخلتُ ، من كتابك الأثيم ،
حديقةَ الدم التي تَوَّجَ بالزّهَرْ ،
شربتُ من حروفه سلافةَ الجحيم
كأنّها أثداء ذئبةٍ على القفار
حليبُها سُعار
وفيئُها نعيم .
غرقتُ فيه ، صكّني العُبابْ
يقذفني من شاطىءٍ لشاطىءٍ قديم ،
حملتُ من قراره محارةَ العذاب
حملتُها إليكْ
فمُدَّ لي يديكْ
وزحزحِ الصخورَ والتراب

البصرة ١٩٦٢/٣/٢٤

لاني غريب

لأنـّي غريبْ
لأنّ العراقَ الحبيب
بعيد ، وأنـّي هنا في اشتياقْ
إليْه ، إليْها ... أنادي : عراق
فيرجع لي من ندائي نحيب
تفجّر عنه الصدى
أحسّ بأني عبرتُ المدى
إلى عالمٍ من ردى لا يجيب
ندائي ؛
وإمّا هززْتُ الغصونْ

فما يتساقطُ غيرُ الردى :
حجار
حجارٌ وما من ثمار ،
وحتّى العيون
حجارٌ ، وحتى الهواء الرطيب
حجارٌ ينديّه بعضُ الدمِ .
حجارٌ ندائي ، وصخرٌ فمي
ورجلاي ريحٌ تجوب القفار .

بيروت ١٩٦٢/٤/١٥

ابن الشهيد

وتراجع الطوفان ، لملم كل أذيال المياه
وتكشّفت قمم التلال ، سفوحها ، وقرى السهول ،
اكواخها وبيوتها ِخرب تناثر في فلاه .
عركت نيوب المـاء كل سقوفها ومشى الذبول
فيما يحيط بهن من شجر ... فآه
آهٍ على بلدي ، عراقي : أثمر الدم في الحقول
حسكا ، وخلـّف جرحه التتري ندباً في ثراه .
يا للقبور كأن عاليها غدا سفلا وغار إلى الظلام
مثل البذور تنام في ظلم الثمار ولا تفيق .
يتنفس الاحياء فيها كل وسوسة الرغام ،

حتى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق .
جثث هنا ، ودم هناك ..
وفي بيوت النمل مد من الجفون
سقف يقرمده النجيع ، وفي الزوايا
صفر المظام من الحنايا .
ماذا تخلف في العراق سوى الكآبة والجنون ؟
أرأيت أرملة الشهيد ؟
الزوج مد عليه من ترب لحافاً ثم نام
متمدداً بأشد ما تجد المظام
من فسحة : سكنت يداه على الأضالع ،
والعيون
تغفو إلى أبد الإله ، إلى القيامة : في سلام .
رمت الرداء العسكري ونشّرته على الوصيد ...
لثمته ، فانتفض القماش يرد برد الموت ،
برد المظلمات من القبور ،
يا فكرها عجباً .. ثقبت بنارك الأبد البعيد ،

يا فكر شاعرة يفتش عن قوافٍ للقصيد
ماذا وجدت وراء أمسي وعبر يومك من دهور ؟
« الثأر » يصرخ كل عرق ، كل باب
في الدار . يا لفم تفتّح كالجحيم .. من الصخور ،
من كل ردن في الرداء ، من النوافذ والستور ،
من عيني ابنك ، يا شهيد ، تسائلان ، بلا جواب ،
عنك الأسرة والدروب ، وتسألان عن المصير ،
مذ البسته الأم ثوبك في معاركك ، الأثير
ويداه في الردنين ضائعتان ، والصدر الصغير
في صدرك الأبوي عاصفة تغلف بالسحاب
ورنا إلى المرآة .
ابصر فيه شخصك في الثياب .
– « أبني كان أبوك نبعاً من لهيب ، من حديد ،
سوراً من الدم والرعود ،
ورماه بالاجل العميل فخرَّ – واهاً – كالشهاب ،
لكن لحاً منه شع وفض اختتام الحدود

وأضاء وجه الفوضوي ينز بالدم والصديد
وكأن في أفق العروبة منه خيطاً من رغاب » .
رتنفس الغد في اليتيم ومد في عينيه شمسه
فرأى القبور يهب موتاهن فوجاً بعد فوج
أكفانها هرئت ..
ولكن الذي فيها يضم اليه امسه
ويصيح « يا للثار ... يا للثار ... »
يصدي كل فج
وترنّ أقبية المساجد والمآذن بالنداء .
وينام طفلك وهو يحلم بالمقابر والدماء .

البصرة ١٩٦٢/٣/٩

مرثاة عام ١٩٥٣

في ليلةٍ كانت شرايينها
فحماً ، وكانت أرضُها من لحود
يأكل من أقدامنا طينُها ،
تسعى إلى الماءِ ،
إلى شراعٍ مزقته الرعود
فوق سفينٍ دون أضواءِ ،
في الضفة الأخرى .. يكاد العراق
يومىء ؟ يا أهلاً بأبنائي
لكنّنا ، واحسرتا ، لن نعود
أواهُ لو سيكارةٌ في فمي

لو غَنوةٌ .. لو ضمّةٌ ، لو عناق
لَسَمّفةٍ خضراءَ أو بُرعم
في أرضيَ السكرى برؤيا غدِ .
إنّنا مع الصبح على موعِدِ
رغم الدجى .. يا عراق !
ريفٌ وراء الشطّ بين النخيلْ
يغفو على حُلمٍ طويل طويل ،
تناءبتْ فيه ظلالٌ تسيل
كالماء بين الماء والعُشبِ .
يا ليتَ لي فيهِ
قبراً على إحدى روابيهِ ،
يا لَيتني ما زلت في لعْبي
في ريف جيكورَ الذي لا يميل
عنه الربيعُ الأبيضُ الأخضرُ :
السّهْل يندى والرّبى تُزهرُ .
ويطفىء الأحلام في مقلتي

– كأنها منفضةٌ للرمادْ –
تَمسٌ كشَوكٍ مسّ من جبهتي
يُنذر بالسارين فوقَ الجياد
(سنابك الخيْل مساميرُ نارْ
تدقّ تابوت الدجى والنهار :
ناعورةٌ تحرس كرْمَ الحدود [1]
أثقلَ طينْ الخوف ما للفرار
من قدم تدمى .. ومدّ السّدود .
أمن بلادي هاربٌ ؟ أيّ عار !!
وارتعشَ الماءُ وسار السّفينْ
وهبّتِ الريحُ من الغَرْبِ
تحمل لي دَرْبي ...
تحمل من قَبرها ذرّ طينْ ،
تحمل جيْكورَ إلى قلبي .
يا ريحُ يا ريحُ
توهّجتْ فيكِ مصابيحُ

---

(١) وضع الأبيات بين الأقواس لا يعني أنها مضمنة .

من ليل جيكور ، أضاءت ظلمةَ السفينْ
لأبصرَ الأعينَ كالشّهبِ
تلتمّ حولي ، لأراها تلين !
والنجمُ الشطّ زهورٌ كبارْ
أوشكتُ أن أبصرَ سيقانها
تمتدّ في الماء ، تمسّ القرار ،
لملمَ فجرُ الصيف ألوانَها
كأنّها أوجهُ حورٍ تحار
فيها تباريحُ الهوى والحياءْ ...
كأنّها زنبقُ نارٍ وماء .

البصرة ١٩٦٢/٣/٢١

جيكور شابت

ما نفضْتُ الندى عن ذرى العُشْب فيها ،
ما لثمتُ الضبابَ الذي يحتويها ،
جئتُها والضّحى يزرع الشمس في كلّ حقل وسطْحِ
مثلَ أعواد قمْحِ .
فرّ قلبي إليها كطَيرٍ إلى عُشّه في الغروبِ .
هل تُراهُ استعاد الذي مرّ من عُمْرِهِ ، كل جُرْحِ
وابتسامٍ ؟
أبعد انطفاءِ اللهيبِ
يستطيع الرماد اتّقاداً ؟ ومن أين ؟ من أيّ جمْرَه ؟
يا صباي الذي كان للكون عطراً وزهْواً وتيها ..

كان يومي كعامٍ ، تعدُّ المسرّه
فيه نبْضاً لقلبي تفجّر منها على كلّ زهره .
كانت الأرض تلقى صباها لأوّل مرّه ...
كان قابيلُها بذرةَ مُستَسِرّه ...
كان للأرض قلبٌ ، أُحسُّ به في الدروب ،
في البساتينِ ، في كل نهْرٍ يُروّي بنيها .
آه جيكور ، جيكور ..
ما للضّحى كالأصيلِ
يسحب النّور مثلَ الجناحِ الـكليل ؟
ما لأكواخكِ المقفرات الكئيبه
يحبس الظلُّ فيها نحيبَه ؟
أين أيْنَ الصبايا يوسْوسْنَ بين النخيل
عن هوىً كالتماع النجوم الغريبه
أو يجرّرْنَ أذيالهن التي لوّنتهنّ أقمار صَيْف
أو شموسٌ خريفيّةٌ ، عند شطٍّ ظليلِ
والشّفاهُ ابتسامات حبٍّ وخَوْف ؟؟؟

عجائزُ أو في القبور – ..
عجائزُ يغزلْنَ حول الصّلاء
ويروينَ ، عبْرَ الكرى والفتور ،
أقاصيصَ عن جنّةٍ في بيوتٍ خواءْ ،
لأحفادهنّ اليتامى .
وجيكور شابتْ وولى صباها
وأمسى هواها
رماداً ، إذا ما
تأوّهْنَ هزّته ريحٌ ..
أثارته حتى ارتمى في صداها
هباءً وذرّاً تضيقُ الصدور
به عن مداها .
أين جيكورُ ؟
جيكور ديوانُ شعري ،
موعدٌ بين ألواح نعشي وقبري .

كركرات المياه التي كسّر الشمسَ منها ارتجافُ ،
والأنينُ الذي منه كنا نخافُ
صاعداً مثل مدّ تنزّ القبور
عنه ، والشمسُ تمتصّ من كلّ نهر ،
ودرابك في الأرض تنقرهنّ البذور
وهي تنشقّ في كلّ فجرِ —
ذكرياتٌ .. كما يترك الصوت من ميّتٍ
في خيالٍ رنينه
مثلُ نايٍ تشظّى وأبقى أنينه .
ايهِ جيكور ، عندي سؤالٌ ، أما تسمعينَه ؟
هل تُرى أنتِ في ذكرياتي دفينه
أم تُرى أنتِ قبر لها ؟ فابعثيها
وابعثيني
وهيهات ! ما للصّبى من رجوعٍ .
إن ماضيّ قبري واني قَبْرُ ماضيّ :
موتٌ يمدّ الحياةَ الحزينَه ؟

أم حياةٌ تمدّ الرّدى بالدموع ؟

* * *

ما نفضتِ الندى عن ذرى العشب فيها .

جيكور ١٩٦٢/٤/٢

احتراق

وحتى حين أصهرُ جسمَكِ الحجريّ في ناري
وأنزع من يديكِ الثلج ، تبقى بين عينينا
صحارى من ثلوج تُنهك الساري ،
كأنك تنظرين إليّ من سُدُمٍ وأقمارِ ،
كأنـّا ، منذ كنـّا ، في انتظارٍ ما تلاقيْنا .
ولكنّ انتظار الحبّ لُقيا ... أين لقيانا ؟
تمزقَ جسمُكِ العاري ...
تمزقَ ، تحت سَقـْفِ الليل ، نَهْدُكِ بين أظفاري ...
تمزقَ كل شيءٍ من لهيبي ، غيرَ أستارِ
تحجّبُ فيك ما أهواهْ .

كأنّي أشرب الدمَ منك ملْحاً ، ظلّ عطشاناً
مَن استسْقاه . أين هواكِ ؟ أين فؤادكِ العاري ؟
أسدّ عليك بابَ الليل ثم أعانقُ البابا
فألثمُ فيه ظلّي ، ذكرياتي ، بعض أسراري ...
وأبحثُ عنك في ناري
فلا ألقاكِ ، لا ألقى رمادكِ في اللّظى الواري .
سأقذف كل نفسي في لظاها ، كلّ ما غابا
وما حضرا .
أريدُكِ فاقتليني كي أحِسّكِ .
واقتلي الحجرا
بفيض دمٍ ، بنارٍ منك .. واحترقي بلا نارٍ ؟
بيروت — ١٩٦١/١٠/٢٦

سهر

سهرتُ فكل شيءٍ ساهرٌ : قدماي والمصباحْ

وأوراقي .

أنا الماضي الذي سدّوا عليه البابَ ، فالألواح

غدي والحاضر الباقي .

أنا الغد في ضمير الليل ، مدّ الليل ألفَ جناح

عليه ، فطار ، لما طار ، بالظلماء والشّهْبِ .

أصخْتُ السّمعَ والظلماءُ حولي بوقُ سياره

يبثّ إلى البغيّ رسالةَ الحبّ

ويومىء للسكارى : أن تعالوا ، ألفُ خمّاره

تكسّر ، تفرج الساقين ، تقطع َنومةَ الدرب

بوَهوَهةِ النيون .

أصختُ والظلماء صفارة

وخطوةُ حارس ...

فذكرتُ نهر القرية المكسالْ

يسيل لكي يعيش ، لكي يموت ، يمصّه الجزْرُ

فيعرى جرفه الطيني حتى يُقبلّ الفجرُ

فيحمل في سناه المدّ ، يحمل زورقاً يختال

بصيادٍ يُعد شباكه ويرود في الماءِ

مساربَ كلّ ناعسةٍ من الأسماكِ خضراءِ .

ذكرتُ مقابرَ الأطفال
تلوذ بكلّ سفحٍ ، نام فيها دون أثداءِ
ولا قُمُطٍ ، صغارٌ من حصاد الجوع والداءِ
لقد رضعوا من الثدي الذي لم تبله الأجيالْ
وناموا في حمى الأمّ التي لا يستوي الأطفال
ولا الأشياءُ إلا في حماها ، في حمى تربٍ وظلماءِ .
سهرت الليل في بيروت ، لا بين المواخيرِ
(كهوف العالم المتحضّر المغسول بالنور)
هنا يتوكأون على العظام ليصعدوا أفقاً من النشوه ،
لينحدروا الى فجوه
تثاءبَ ظلّها وأصيلها بين الدياجير
وبين منابـع الأضواءْ ،

تثاءب ظلّها وأصيلُها بين العقارب والسنانير
وبين المُسرج الظلماءَ
والممتدّ حتى اللهِ في القدْس وفي سيناء .
سهرت يرنّ صورُ الموت في أذنيّ كالزلزالْ :
« تهدم حائط الأجيال
وكاد يغور إذ لمسته كفيّ ، ألفُ نوحٍ زالْ
وألفُ زليخةٍ صيّرتُ كحلَ عيونها ظُلْمه .
أنا الباقي بقاء الله أكتب باسمه الآجال
وما لسواه عند مطارق الآجال من حُرمه . »
هنا في كلّ موتٍ ألفُ موتٍ : كان في الضمّه
وفي القبلات ، في الأقداح ،
تدور الاسطوانةُ وهو فيها لمعةُ الضّوْءِ

يوَسوِسُ في تهدّج صوتِها فيُخادع الأرواح ،
ويلمس جبهةَ الملاّح في النّوءِ .
سهرتُ لأنني أدري
بأني لن أقبّل ذاتَ يوم وجنةَ الفجْرِ
سيُقْبل مطلقاً في كل عشٍّ نغمةً وجناح
وسوف أكون في قبري .

بيروت ١٩٦٢/٤/١٥

الوصية

من مرضي ،
من السرير الأبيضِ
من جاريَ انهار على فراشه وحشرجا
يمصّ من زجاجةٍ أنفاسَه المصفّره ،
من حُلـُمي الذي يمدّ لي طريق المقبره
والقمرَ الريضَ والدجى ...
أكتبها وصيّةً لزوجتي المنتظره
وطفليَ الصارخ في رقاده : « أبي ، أبي » ،

تلم في حروفها من عُمْـريَ المعذَّبِ .
لو أنَّ عوليسَ وقد عاد إلى ديارهِ
صاحتْ به الآلهةُ الحاقدةُ المدمِّره
أن ينشرَ الشراعَ ، ان يضلَّ في بحاره
دون يقينٍ أن يعود في غدٍ لداره ،
ما خضَّه النذيرُ والهواجسُ
كما تخضُّ نفسيَ الهواجسُ المبعثره ،
اليوم ما على الضمير من حياءٍ حارسُ :
أخافُ من ضبابةٍ صفراءِ
تنبع من دمائي
تلفـّني فما أرى على المدى سواها
أكاد من ذلك لا أراها ،
يقصُّ جسميَ الذليلَ مِبْضَعُ
كأنه يقصُّ طينةً بدون ماءِ

ولا أُحسّ غيرَ هبّةٍ من النسيم ترفعُ
من طرَف الستائر الضّبابِ
ليقطرَ الظلامُ ، لستُ أسمع
سوى رعودٍ رنّ في اليبابِ
منها صدىً وذاب في الهواءِ ...
أخاف من ضبابةٍ صفراءِ !
أخاف أن أزْلقَ من غيبوبة التخديرِ
إلى بحارٍ ما لها من مرسى
وما استطاع سندبادُ حين أمسى
فيهنّ أن يعودَ للعودِ وللشراب والزهور ،
صباحها ظلامْ
وليْلُها من صخرةٍ سوداء .
من ظلّ غيْبوبتي المسجور
إلى دجى الحِمامْ

ليس سوى انتقالةِ الهواءِ ،
من رئةٍ تغفو ، إلى الفضاءِ .
أخاف أن أُحس بالمبضع حين يجرحُ
فأستغيث صامتَ النـّداءِ
أصيح لا يردّ لي عوائي
سوى دمٍ من الوريد ينـْضَحُ .
وكيف لو أفقتْ من رقاديَ المخدّرِ
على صدى الصور ، على القيامة الصغيره :
يحملَ كلّ ميّتٍ ضميرَه
يشعُّ خلف الكفن المدثّـرِ ،
يسوق عزرائيلُ من جموعنا الصّفر إلى جزيره
قاحلةٍ يقهقه الجليدُ فيها ،
يصفر الهواء في عظامنا ويبكي .
ماذا لو انّ الموْتَ ليس بعده من صَحْـوَه ،

فهو ظلامٌ عدَمٌ ، ما فيه من حسٍّ ولا شعور !
أكل ذاك الأنسِ ، تلك الشقْوه
والطمعِ الحافرِ في الضمير
والأملِ الخالقِ من توثّبِ الصغيرِ
ألفَ أبي زيدٍ تفور الرغْوَه
من خيله الحمراء كالهجير ...
أكلّها لهذه النهايه ؟
تُرى الحِمامُ للحياة غايه ؟

* * *

إقبالُ يا زوجتي الحبيبة
لا تعذليني ما المنايا بيدي
ولستُ ، لو نجوْتُ ، بالمخلّدِ .
كوني لغيلان رضىً وطيبه

كوني له أباً وأماً وارحمي نحيبه

وعلّميه أن يُذيلَ القلب لليتيم والفقير

وعلميه ...

ظُلمةُ النعاس

أهدابُها تمس من عيونيَ الغريبه

في البلد الغريب ، في سريري

فترفع اللهيب عن ضميري ...

لا تحزني إن مت أي باس

أن يُحطَمَ الناي ويبقى لحنه حتى غدي ؟

لا تبعدي

لا تبعدي

لا ..

بيروت ١٩/٤/١٩٦٢

منزل الاقنان

مَنْزِلُ الأقْبَانِ

رحل النهار

رحل النهار
ها إنه انطفأت ذبالتُـه على أفقٍ توهَّج دون نار
وجلستِ تنتظرين عودة سندباد من السَّفار
والبحرُ يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود .
هو لن يعود ،
أوَما علمتِ بأنه أسرتْـه آلهةُ البحار
في قلعةٍ سوداء في جزرٍ من الدمِ والمحار .
هو لن يعود ،
رحل النهار
فلترحلي ، هو لن يعود .

الأفقُ غابات من السحب الثقيلة والرعود ،
الموتُ من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار
الموتُ من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار
الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهار
رحل النهار
رحل النهار .

وكأنّ معصمكِ اليسار
وكأنّ ساعدكِ اليسار ، وراء ساعته ، فنار
في شاطىءٍ للموت يحلم بالسفين على انتظار .
رحل النهار
هيهات أن يقف الزمان ، تمر حتى باللحودِ
خطى الزمان وبالحجار .
رحل النهار ولن يعود .

الأفق غابات من السحب الثقيلة والرعود
الموت من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار
الموت من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار

الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهال
رحل النهار
رحل النهار .
خصلات شعرك لم يَصُنْها سندباد من الدمار ،
شربتْ أجاج الماء حتى شاب أشقرها وغار
ورسائل الحب الكثار
مبتلة بالماء منطمس بها ألَقُ الوعود
وجلستِ تنتظرين هائمة الخواطر في دوار :
« سيعود . لا . غرق السفين من المحيط إلى القرار
سيعود . لا . حجزته صارخة العواصف في إسار
يا سندباد ، أما تعود ؟
كاد الشباب يزول ، تنطفىء الزنابقُ في الخدود
فمتى تعود ؟
أوّاه ، مدّ يديك بين القلب عالمه الجديد
بهما ويَحْطم عالم الدم والأظافر والسعار ،
يبني ولو لهنيهة دنياه .

آهِ متى تعود ؟
أترى ستعرف ما سيعرف ، كلّما انطفأ النهار ،
صمتُ الأصابع من بروق الغيب في ظلم الوجود ؟
دعني لآخذ قبضتَيْكَ ، كماء ثلج في انهيار
من حيثما وجّهت طرفي .. ماء ثلج في انهيار
في راحتيّ يسيل ، في قلبي يصبّ إلى القرار .
يا طالما بهما حلمتُ كزهرتين على غدير
تتفتّحان على متاهة عزلتي . »
رحل النهار
والبحر متّسع وخاوٍ . لا غناء سوى الهدير
وما يبين سوى شراعٍ رنّحته العاصفات ، وما يطير
إلا فؤادك فوق سطح الماء يخفق في انتظار .
رحل النهار
فلترحلي ، رحل النهار

بيروت ١٩٦٢/٦/٢٧

هدير البحر والأشواق

هدير البحر يفتل من دمائي ، من شراييني
حبال سفينةٍ بيضاء ينعس فوقها القمر
ويُرعش ظلّها السحر .
ومن شبّاكيَ المفتوح تهمس بي وتأتيني
سماء الصيف خلّف طيفه في صحوها المطر .
ونحن نسير ، والدنيا تسير وتقرع الأبواب
فتوقظ من رؤاه القلب : ذاك عدوك الزمن
تدور رحاه .. كم ستظلّ تخفق ؟ ها هم الأصحاب
تراب منه تمتلىء الدروب وتشرب الدمن !

يودُّ القلبُ لو حطّمتِه ، لو حطمتْ خفقاتِهِ شفتيكِ

والكتفين والصدرا ،
ولو ذرّتك من زفراتي الحرّى
رياح الوجد والحرمان . والهفي على عينيكِ
ليتهما تمران
بدمع أو بإشفاقٍ على صحراء حرماني
لينبت في مداها الزهر . ليتهما تمرّانِ ،
بما نسج التأمل من غيوم فيهما حيرى
بما نسج التفرد من نجومٍ فيهما سكرى ،
على عمري الذي عرّاه من زهراته الداءُ .
يود القلب لو حطمته لو حطمتْ خفقاته شفتيك
والكتفين والصدرا
ولو عرّاكِ ، لو ذرّاكِ ، لو أكلتكِ أشواقي
ولو أصبحتِ خفقاً أو دماءً فيه أو سرّا
فإن أحببتك الحب الذي أقسى من الموت
وأعنف من لظى البركان والحب الذي يأتي
إليّ كأنّ نفخ الصور فيه ، فكل ذر الميتين دمٌ وأحياء

فذاك لأنك النور الذي عرّى دجى الأعمى
وأنت صباي عاد إليّ ، أختاً عاد أو أمّا .
وأنت حبيبتي ، أفديك ، أفدي خفق جفنيك
وما نفضا من السحب
وافدي خفق نهديكِ
على قلبي !

بيروت ١٩٦٢/٧/١

نداء الموت

يمدّون أعناقهم من ألوف القبور يصيحون بي :
أن تعال ،
نداء يشق العروق ، يهزّ المشاش ، يبعثر قلبي رمادا
« أصيل هنا مُشعَل في الظلال
تعال اشتعل فيه حتى الزوال » .
جدودي وآبائي الأولون سراب على حد جفني تهادى .
وبي جذوة من حريق الحياة تريد المحال .
وغيلان يدعو « أبي سرْ ، فاني على الدرب ماشٍ أريد
الصباح . »
وتدعو من القبر أمّي «بنيّ احتضنّي فبرد الردى فيعروقي

فدفءٌ عظامي بما قد كسوتُ ذراعيك والصدر ، واحمِ
الجراح
جراحي بقلبك أو مقلتيك ولا تحرفنّ الخطى عن طريقي ،
ولا شيء إلا إلى الموت يدعو ويصرخ ، فـــيما يزولْ ،
خريف ، شتاء ، أصيل ، أفولْ .
وباقٍ هو الليلُ بعد انطفاء البروقِ
وباقٍ هو الموت ، أبقى وأخلد من كل ما في الحياه .
فيا قبرها افتح ذراعيك ...
إني لآتٍ بلا ضجّةٍ ، دون آه !

بيروت ٢/٥/١٩٦٢

ربيع الجزائر

سلاماً بلاد اللظى والخراب
ومأوى اليتامى وأرض القبور ،
أتى الغيث وانحلّ عقد السحاب
فروّى ثرى جائعاً للبذور .
وذاب الجناح الحديد
على حمرة الفجر تغسل في كل ركن بقايا شهيد
وتبحث عن ظامئات الجذور .
وما عاد صبحك ناراً تقعقع غضبى وتزرع ليلا
وأشلاء قتلى
وتنفث قابيل في كلّ نارٍ يسفّ الصديد

وأصبحتِ في هدأةٍ تسمعين نافورةً من هتاف
لديكِ يبشّر أن الدجى قد تولّى
وأصبحت تستقبلين الصباح المطلاّ
بتكبيرةٍ من ألوف المآذن كانت تخاف
فتأوي إلى عاريات الجبالِ
تبرقع أصداءها بالرمالِ .

* * *

بماذا ستستقبلين الربيع ؟
ببقيا من الأعظم الباليه
لها شعلة رشّت الداليه ،
تعير العناقيد لون النجيع .
وفي جانبي كل درب حزين
عيون تحدّق ، تحت الثرى
تحدّق في عورة العاجزين .
لو تستطيع الكلام
لصبّت على الظالمين

حميماً من اللعنات ، من العار ، من كل غيظ دفين .
ربيعك يمضغ قَبْحَ السلام .

* * *

بيوتك تبقى طوال المساء
مفتّحة فيك أبوابها
لعل المجاهد بعد انطفاء اللهيب وبعد النوى والعناء
يعود إلى الدار يدفن تحت الغطاء
جراحاً ، يفرّ اليه الصغار ترفرف أثوابها
يصيحون « بابا » فيُفطر قلب السماء
— « وماذا حملتَ لنا من هديّه ؟ »
— « غداً ضاحكاً أطلعتْه الدماء . »
وكم دارةٍ في أقاصي الدروب القصيّه
مفتّحة الباب ، تقرعه الريح في آخر الليل قرعا
فتخرج أم الصغار
ومصباحها في يدٍ أرعش الوجد منها ،
يرود الدجى ، ما أنار

سوى الدرب قفر المدى ، وهي تصغي وترهف سمعا
وما تحمل الريح إلا نباح الكلاب البعيد ،
فتُخفت مصباحها من جديد

* * *

« ولمّا استرحنا بكيْنا الرفاق ! »
هماس لأنييس[1] عبر القرون
وها أنتِ تدمع فيك العيون
وتبكين قتلاك .
نامت وغىً فاستفاق
بكِ الحزنُ : عاد اليتامى يتامى ،
ردىً عاد ما ظُنّ يوماً فراق .
سلاماً بلاد الثكالى ، بلاد الأيامى
سلاما
سلاما ...

بيروت : ٧ /١٩٦٢/٦

(١) بطل « انياذة » فرجيل .

خذيني

خذيني أطرْ في أعالي السماء
صدى غنوةٍ ، كركراتٍ ، سحابه !
خذيني فإن صخور الكآبه
تشدّ بروحي إلى قاع بحرٍ بعيد القرارِ
خذيني أكن في دجاك الضياء
ولا تتركيني لليلِ القفارِ .
إذا شئتِ ألاّ تكوني لناري
وقوداً ، فكوني حريقا .
إذا شئتِ أن تخلّصي من إساري ،
فلا تتركيني طليقا .

خذيني إلى صدرك المثقلِ
بهمّ السنين .
خذيني فإني حزين
ولا تتركيني على الدرب وحدي أسير إلى المجهَل .
وكانت دروبي خيوط اشتياق
ووجدٍ وحبّ ٍ
إلى منزلٍ في العراق
تضيء نوافذه ليل قلبي ،
إلى زوجةٍ كان فيها هنائي
وكانت سمائي
كواكبها ترسم الدرب ، دربي .
وهبّت عليها رياح سموم
تبعثر خيطان تلك الدروب البعيده ،
فعادت جذىً كل تلك النجوم
صُلبتُ عليها ، وعادت مسامير نعشٍ
وعادت دروبي درباً إذا جئت أمشي

رماني إليك ، كوزنٍ يقود القصيده .
فوا لهف قلبي عليكِ !
ودرب رماني إليكِ !
أما تعلمين بأني تشهّيتُك البارحه
أشم رداءكِ حتى كأني
سجين يعود إلى داره يتنشّق جدرانها :
هنا صدرها ، قلبها كان يخفق – كان التمني
يدغدغه ، يُشعل الشوق فيه إلى غيمةٍ رائحه
لأرض الحبيب : ستنضح أركانها
بذوب نداها .
تشهّيتك البارحه
فقبّلت ردن الرداء : هنا ساعداها ،
هنا إبطها ، يا لكهف الخيال
ومرفأ ثغري إذا جرفته رياح ابتهال
ودحرجه مدُّ شوقٍ ملحٍّ ، وقد حار فيه السؤال :
« تحبينني أنتِ ؟ هل تخجلين ؟

أم استنزفت شوقك الكبرياء
فلم يبقَ إلا ابتسام الرثاء ؟
أترثين لي أم ترى تشفقين
على قلبك انهدّ تحت الصليب المعلـّق في صخرةالكبرياء؟»
نباح الكلاب المبعثر في وشوشات النخيل
ينبّه في قلبي الذكريات العتاق
ويربط دقات قلبي بأرض العراق
لأسمع « بابا » فيطفأ حبي وتبرد نار الغليل
وأعدو على الدرب سدّت خطاي عليه
نوافذ بيتي تجسّد فيها الضياء :
تغربتُ عنه وعدتُ إليهِ .

بيروت ١٩٦٢/٧/٣

حامل الخرز الملون

ماذا حملت لها سوى الخرز الملوّن والضباب ؟
ما خضتَ في ظلمات بحر أو فتحت كوى الصخور
والريح ما خطفت قلوعك ، والسحاب
ما بلّ ثوبك . ما حملتَ لها سوى الدم والعذاب .
في سجنها هي ، خلف سور .
في سجنها هي ، وهو من ألمٍ وفقر واغتراب .
عشر من السنوات مرّت وهي تجلس في ارتقاب :
أطفالها المتوثبون مع الصباح
صمتوا وكفّوا عن مراح ،
زجرتهمُ لتُحسّ وقع خطاك . برعمت الزهور

وأتى الربيع وما أتيت ، وجاء صيفٌ ثم راح .
ماذا يعيقك في سواحل نائياتٍ ؟ في قصور
قفر يعيش الغول فيها ، كلما رمت الرياح
بحطام ساريةٍ تحفّز ؟ ما يعيقك عن رجوع ؟
لم تبق للغد من دموع
في مقلتيها ، لا ولم يبق ابتسامٌ للّقاء !
ستعود ، حين تعود ، بالخرز الملوّن والهباء ،
ستضم منها طيف أمس ، فلا يُجيبك في الضلوع
منها سوى دمك المفجّع والخواء !

بيروت ١٩٦٢/٥/٩

سفر أيوب

١

لك الحمد مهما استطال البلاءْ
ومهما استبدَّ الألمْ ،
لك الحمد ، ان الرزايا عطاء
وان المصيبات بعضُ الكَرَمْ .
ألم تُعطني أنت هذا الظلامْ
وأعطيتني أنت هذا السَّحَرْ ؟
فهل تشكر الأرض قَطْرَ المطر
وتغضبُ إن لم يَجُدْها الغمام ؟
شهورٌ طوالٌ وهذي الجراحْ
تمزّق جنبي مثلَ المُدى

ولا يهدأ الداءُ عند الصباح
ولا يمسح الليْلُ أوجاعه بالردى .
ولكنّ أيّوبَ إن صاح صاح :
« لك الحمدُ ، ان الرزايا ندى ،
وإن الجراحَ هدايا الحبيبْ
أضمُّ إلى الصدْر باقاتِها ،
هداياكَ في خافقي لا تغيب ،
هداياكِ مقبولةٌ . هاتِها ! »
أشدّ جراحي وأهتف بالعائدينْ :
« ألا فانظروا واحسدوني ، فهذي هدايا حبيبي .
وإن مسَّت النارُ حرّ الجبين
توهّمْتُها قُبلةً منكَ مجبولةً من لهيبِ .
جميلٌ هو السُّهدُ أرعى سماكَ
بعينيَّ حتى تغيبَ النجومْ
ويلمسَ شبّاكَ داري سناكْ .
جميلٌ هو الليل : أصداء بوم

وأبواقُ سيارةٍ من بعيد
وآهاتُ مرضى ، وأمٌّ تُعيد
أساطيرَ آبائها للوليد .
وغاباتُ ليل السُّهادِ ، الغيوم
تحجّبُ وَجْهَ السماءْ
وتجلوه تحت القمر .
وإن صاح أيّوبُ كان النداءْ :
« لك الحمد يا رامياً بالقَدَرْ
ويا كاتباً ، بَعْدَ ذاكَ ، الشّفاء ! »

لندن ١٩٦٢/١٢/٢٦

٢

من خَلَلِ الثلج الذي تنثّه السماءْ
من خَلَلِ الضباب والمطَرْ
ألمح عينيْك تشعّان بلا انتهاء
شعاعَ كوكبٍ يغيب ساعةَ السَّحَرْ
وتقطران الدمعَ في سكونْ
كأنّ أهدابها غصون
تنطف بالندى مع الصباح في شتاء .
من خلل الدّخان والمداخن الضخامْ
تمجّ من مغارِ قابيلَ على الدروب والشّجَرْ
ذرّاً من النجيع والضّرام

أسمع غيْلانَ يناديكِ من الظلام
من نوْمهِ اليتيم في خرائب الضجرْ .
سمعتِ كيف دقّ بابَنا القَدَر ؟
فارتعَشتْ على ارتجاف قرْعِهِ ضلوعْ ؟
ورقرقتْ دموع ؟
فاختلس المسافرُ الوداعَ وانحدر ؟ .

* * *

وقبلةٍ بين فمي وخافقي تُحار
كأنها التائه في القفار
كأنها الطائرُ إذْ خرّب عشّه الرياح والمطرْ ،
لم يحوها خدّ لغيْلانَ ولا جبينْ
ووجْه غيلانَ الذي غابَ عن المطار !!
وأنتِ إذْ وقفتِ في المدى تُلوّحين !!

* * *

إقبالُ ... إنَّ في دمي لوجهكِ انتظار ،
وفي يدي دمٌ ، إليكِ شدَّهُ الحنينْ .
ليتكِ تُقبلين
من خَلَلِ الثلج الذي تنثّه السماء ،
من خَلَلِ الضباب والمطر !

لندن ٢٧/١٢/١٩٦٢

٣

بعيداً عنك ، في جيكور ، عن بيتي وأطفالي
تشدُّ مخالبُ الصَّوان والأسْفلتِ والضَّجَرِ
على قلبي ، تُمزِّق ما تبقّى فيه من وترِ
يدَندنُ : « يا سكونَ الليل ، يا أنشودَةَ المطَر » ،
تشدُّ مخالبُ المالِ
على بطني الذي ما مرَّ فيه الزادُ من دَهَرِ .
عيون الجوع والوحده
نجومي في دجىً صارعتُ بين وحوشه بَرْدَه ،
وإن البرد أفظعُ ، لا .. كأنَّ الجوعَ أفظع ، لا .. فإنَّ الداء
يشلُّ خطاي ، يربطُها إلى دوّامةِ القَدَرِ .

ولولا الداء صارعتُ الطوى والبرد والظلماء .
بعيداً عنكِ أشعر أنني قد ضعت في الزحمه
وبين نواجذ الفولاذ تمضغ أضلعي لُقْمه .
يمرُّ بيَ الورى متراكضين كأنْ على سَفَرِ ،
فهل أستوقف الخطواتِ ؟ أصرخُ : « أيها الإنسان
أخي ، يا أنتَ ، يا قابيلُ .. خُذْ بيدي على الغُمَّه !
أعنّي ، خفّف الآلامَ عني واطرد الأحزان » ؟
وأين سواكِ من أدعوه بين مقابر الحَجَر ؟

* * *

ولولا الداء ما فارقتُ داري ، يا سنا داري
وأحلى ما لقيتُ على خريف العُمْر من ثَمَر .
هنا لا طيرَ في الأغصان تشدو غيرَ أطيارِ
من الفولاذ تهدر أو تُحمحِمُ دونما خوفٍ من المطرِ
ولا أزهارَ إلا خَلْفَ واجهةٍ زجاجيَّه
يُراح إلى المقابر والسجون بهنَّ والمستشفياتِ .
ألا .. ألا يا بائعَ الزهَرِ
أعندك زهرةٌ حيَّه ؟

أعندكِ زهرةٌ مما يربُّ القلبُ من حُبٍّ وأهواءِ ؟
أعندكِ وردةٌ حمراءُ سقّتها شموسٌ إستوائيّه ؟

* * *

أأصرخُ في شوارع لندنَ الصمّاءِ : « هاتوا لي أحبائي »؟
ولو أني صرختُ فمن يُجيب صراخَ منتحرِ
تمرّ عليه طولَ الليلِ آلافٌ من القُطُرِ ؟

لندن ٢٨ - ١٢ - ١٩٦٢

٤

يا ربّ أيّوبَ قد أعيا به الداءُ
في غربةٍ دونما مالٍ ولا سَكَنِ ،
يدعوك في الدُّجَنِ
يدعوك في ظَلَمَوت الموت : أعباءُ
نادَ الفؤاد بها ، فارحمه إن هتفا .
يا منجياً فُلْكَ نوحٍ مزّق السُّدَفا
عني . أعدني إلى داري ، إلى وطني !

* * *

أطفالُ أيّوب من يرعاهمُ الآنا ؟
ضاعوا ضياع اليتامى في دجىً شاتِ .

يا ربّ أرجعْ على أيّوبَ ما كانا :
جيكورَ والشمسَ والأطفال راكضةً بين النخيلات
وزوجَه تتمرّى وهي تبتسمُ
أو ترقبُ البابَ ، تعدو كلّما قرعا :
لعلّه رجعا
مشّاءةً دون عكّازٍ به القدَمُ !

* * *

في لندنَ الليلُ موتٌ نزعُهُ السّهَرُ
والبرْدُ والضّجرُ
وغُرْبةٌ في سواد القلب سوداءُ .
يا ربّ يا ليتَ أنّي لي إلى وطني
عوْدٌ لتلثمني بالشمس أجواءُ
منها تنفّستُ روحي : طينها بدَني
وماؤها الدمُ في الأعراق ينحدرُ .
يا ليتَني بيْنَ مَن في تُربها قُبروا .

* * *

لأنّه منك ، حلوٌ عنديَ المرَضُ ،
حاشا ، فلستُ على ما شئتَ أعترضُ .
والمال ؟ رزقٌ سيأتي منه موفور ،
هيهات أن يذكر الموتى وقد نهضوا
من رقدةِ الموت كم مصّ الدماءَ بها دودٌ ومدّ بساطَ
الثلج ديجورُ !
إني سأشفى ، سأنسى كلّ ما جَرَحا
قلبي ، وعرّى عظامي فهي راعشةٌ والليل مقرور .
وسوف أمشي إلى جيكورَ ذات ضُحى !

لندن ٢٩ - ١٢ - ٦٢

٥

نازلاً نازلاً من صحارى السماءْ ،
من عصور جليديّةٍ ، من قبورْ
نام فيها الهواء .
أيُّها الثلج ، يا حشرجات الدهور
وانتحابَ المساكين في كل كهفٍ يغور
في جبال السنينْ ،
كن لهيباً على أوجه العابرين ،
قنّعِ الخوفَ فيها بلون الرجاء .

* * *

أيّها الثلج رحماكَ ، إني غريب
في بلادٍ من البرد والجوع سكرى ،

ان لي منزلاً في العراق الحبيب
صبيتي فيه تملك صخرا .
آهِ ، لولاك يا داءُ ما عفتُ داري ،
ما تركت الزهورَ التي فتّحتْ في جداري
والعصافيرَ في ركن بيتي لهنّ اختصامُ .
مرّ يومٌ ، فشهرٌ ، فشهر ، فعامُ

* * *

والزمان ارتماءٌ بدون انتهاءْ
تزفر الأرض عنه وتبكي السماء .
ربِّ ، هل لي إلى منزلي من رجوع ؟
كم أمدّ الذراع وأهدم سقفَ الضلوع
لا أمسّ المدى أو أصيبُ الزمانا ،
فهو شيء على الروح يسعى : هباءٌ وظلمه .
ليت عصرَ النبوّات لم يطوِ حُلمه ...
وشتّتِ المعجزاتُ الحواشي فكانت وكنا .

* * *

ليتني العازرُ انفضّ عنه الحِمامْ ،
يسلك الدربَ عند الغروبْ ،

يتمهّلُ لا يقرع الباب : من ذا يؤوب
من سراديبَ للموتِ عبر الظلام ؟
لن تصدّق أنّي ... ستهوي يداها
عن رتاجٍ ، وتصفرُّ لي وجنتاها
ثم تركض مذعورةً ، تشدّ بخيْط الدروب
نحو قبري ، وتطويه حتى تمسَّ الضريحَ الحُطام .

* * *

إيه إقبال ، لا تيأسي من رجوعي
هاتفاً قبل أن أقرع الباب : عادا
عازرٌ من بلاد الدجى والدموعِ ،
سورُها كان ملْحاً ، نجيعاً ، رمادا .
قبّليني على جبهةٍ صكّها الموْتُ صكّاً أليما ،
حدّقي في عيونٍ شهدن الردى والمعادا .
عدتُ . لن أبرح الدارَ حتى لو أنّ النجوما
دحْرجت سُلّماً من ضياءٍ وقالت :
تخطّ السديما .

لندن ١٩٦٢/١٢/٣١

٦

خيالُ الجسَدِ العاري
يُطلّ عليّ محمولاً على موْجٍ من النارِ
من المدفأة الحمراءِ ، ذاك الرّحِمِ الضاري .

* * *

لكلّ تقلّب من موْجها خفْقٌ من القلبِ .
تدحرجَ : عُريّ النهدان ، بانَ الجيدُ والساقُ ،
تدحرجَ لي على الجنبِ ،
تدحرجَ ثمّ صكّ أضالعي ، وتُثار أعراقُ
ويطفر للجبين دمٌ ، ويعروني
دُوارٌ منه تصطكُّ النواجذُ : خوْفَ بحّارِ

يُطلّ فيُبصر التّيار يزفر مثل تنينِ .
ويصرخ آدمُ المدفونُ فيّ : رضيتُ بالعارِ ،
بطرْدي من جِنان الخُلْدِ اركض إثْرَ حوّاءا .
أريدكِ ، يا سراباً في خيالي ليس يسقيني ،
أريدك . ثمّ تُطوى موْجةٌ وتطير أشلاءا
فقاعاتٌ من النيران ، من شوْقٍ وتذكارِ .

* * *

وجاء الجسدُ العاري ،
خيالاً جاء محمولاً على موْجٍ من النارِ
من المدفأةِ الحمراء ، ذاك الرّحِمِ الضاري .

* * *

يميل عليّ كيف أشاءُ ، أعصره كما أهوى ،
ولا يقوى
على رفضي ، على تهديمِ عَرْشٍ من لظىً وارِ
أتوّج فوقه الآمالَ راعشةَ القوى شهوى .
بحارٌ بيننا : ليْلان من مُدُنٍ وأمطارِ ،

وإنـّك منكِ أقربُ ، أنتِ بعضُ دمي ،
خيالي أنتِ ، أمنيّات عمري ... كل أمنيّه
بعاطفتي تُحرّكُ لا عواطفك الأنانيّه .
علام مددتِ بحْراً بيننا ، دنيا جليديّه
أعانقُ في دجاها جسمَكِ العاري
يطلُّ عليَّ محمولاً على مَوْجٍ من النارِ
من المدفأة الحمراءِ ، من وهمي وأفكاري .

لندن ١٩٦٢/١٢/٣١

٧

البَرْدُ وهَسْهَسَةُ النارِ
ورماد المدفأةِ الرّمْلُ
تطويه قوافلُ أفكاري .
أنا وحدي يأكلني اللّيْلُ .

* * *

ويخبّ المركب إلى داري :
برقٌ يتلامح في الآفاق ، يعرّيها
ويُذرّيها
كرماد المبخرة الثكلى
في مقبرةٍ تهب اللّيلا

ألوان الموت وآهات الموتى فيها .

* * *

يا ليل ، لكم طال الدّربُ .
تعب الركبُ ،
وعراقي شطّ ، وسمّاري
ناموا . وبقيتُ ولا زادٌ
عندي ، وظمئتُ ولا ماءُ . ظمىء القلبُ :
لا سقيا غير شظيّات البرق الواري .
يا أغصانَ الليل انهمري ثمراً إذ يؤكل يزدادُ
السلّةُ منه سأملأها حتّى إن عدتُ إلى داري
فرحَ الأطفالُ به ، هتفوا : « بابا .. »
يا برق ، أما تخبو
فيغيبَ الدربُ ، ولا يبدو
كم منه على الساري بَعَدُ !

* * *

البرد وهسهسةُ النار
ورماد المدفأةِ الرملُ
تطويه قوافلُ أفكاري .
أنا وحدي يأكلني الليلُ !

لندن ١ - ٢ - ١٩٦٣

٨

ذكرتُكِ يا لميعةُ والدجى ثلجٌ وأمطارُ ،
ولندنُ مات فيها الليل ، مات تنفُّسُ النورِ .
رأيتُ شبيهةً لك شعرها ظُلَمٌ وأنهارُ ،
وعيناها كينبوعينِ في غابٍ من الحورِ .
مريضاً كنت تثقل كاهلي والظّهر أحجارُ ،
أحِنُّ لريفِ جيكورِ
وأحلم بالعراق : وراء بابٍ سدّت الظلماءُ
باباً منه والبحر المزمجرُ قام كالسورِ
على دربي .
وفي قلبي
وساوسُ مظلمات غابت الأشياء

وراء حجابهنّ وجفٌ فيها منبع النورِ .
ذكرتُ الطلعةَ السمراءْ ،
ذكرتُ يديْك ترتجفان من فرقٍ ومن بردِ
تنزُّ به صحارى للفراق تسوطُها الأنواء .
ذكرتُ شحوب وجهكِ حين زمّرَ بوقُ سيّاره
ليؤذنَ بالوداع . ذكرتُ لذْع الدمع في خدّي
ورعشةَ خافقي وأنينَ روحي يملأ الحاره
بأصداء المقابر . والدجى ثلجٌ وأمطار .

لندن ٢ — ١ — ١٩٦٣

٩

بالعضل المفتول والسواعد المجدوله
هِرَقْلُ صارع الردى في غاره المحجّبِ
بظلمةٍ من طحلب .
وقام تمّوزُ بِجرح فاغرٍ مخضّب
يصك (مَوْتَ) صكّةً ، محجّباً ذبوله
وخطْوَهُ الجليدَ بالشقيق والزنابقِ .

* * *

وانخطف الموتُ عليّ كانخطاف الباشقِ
على العصافير ، أحال ظهري
عمود ملْحٍ أو عمود جمرٍ ،

أحرّك الأطراف لا تطيعني ، مشلوله ،
مات الدم الفوّار فيها ، أُطفىء الشبابُ ،
وامتدّ نحو القبْر دَرْبٌ ، بابُ
من خشب الصليب : فالمسيحُ
ماتَ ، وفي الطوفان ضلّ نوحُ .
وأغضيتْ نواظري الذليله ...
لعلّها تعتاد من دجاها
على دُجىً غطاؤها الضريح .

***

أيّ سلاح ؟ آه ، أيّ ساعدٍ ؟
أيّةُ أزهارٍ تمدّ فاها
لتأكل الموت ؟ وأيّ ناصرٍ مساعدٍ ؟
سللتُ من قصائدي
سيْفاً كأن البرْقَ حدّادٌ رمى أصوله
وصبّ مقبضاً له وشفره .
بالشّعر ، بالمبرق ، بالمُجلْجلِ المدوّي

رميتُ وجه يهوي نحوي
كأنه الستار في روايةٍ هزيله ،
رميت وجهَ الموت ألف مرّه
إذا أطلّ وجهه البغيضُ
كأنه السيرين (١) ، يسعى جسميَ المريضُ
نحو ذراعيْه بلا تردُّدِ
فأنتضي من سيفيَ المجرّدِ ،
ويقطر الشّعْرُ ولا يغيضُ ،
لأنني مريضُ
أودّع الحياةَ أو أشُدّ بالحياةِ
بخيْطه الموروثِ عن أمواتِ
لم يدفع الشّعْرُ منايامُ وقد
جاءت إليهم غيله !

١٩٦٣/١/٢

---

(١) السيرين ، كما في الاوذيسة،حورية بحر تغني فتجذب اليها من يسمعها

١٠

يا غيمةً في أوّل الصباحْ
تعربد الرياح
من حولها ، تنتفُ من خيوطها ، تطير
بها إلى سماوةٍ تجوع للحرير ،
سينطوي الجناح ،
ستَنْتِفُ الرياح ريشَهُ مع الغروب ،
يا غيْمةً ما أمطرتْ ، تذوب .

* * *

فأبرقي وأرعدي وأرسلي المطرْ
ومزّقي ذوائبَ الشجرْ

وأغرقي السهوبْ
وأحرقي الثمرْ .
سترجحنّ بعدك السنابلُ الثقالُ بالحبوب ،
وتقطف الورودَ والأقاحْ
صبيّةٌ يؤجّ في وجنتها الجنوب ،
وأنتِ ذرّة من الدماء والجراحْ .

* * *

وأنتَ يا شاعرَ واديك ، أما تؤوب
من سَفَرٍ يطول في البطاحْ ،
تُراقص النّهَرْ
وتلثم المَطَرْ ؟
أما سمعتَ هاتف الرواحْ ؟ :
« خامٌ وزنبيلٌ من الترابْ
وآخر العُمْر ردىً » . ويطلع القَمَرْ .
فأبرق ، ارعد ، أرسل المطرْ
قصائدَ احتوى مداها دارةَ العُمُرْ ،

يا غيمةً في أول الصباح ،
يا شاعراً يهمّ بالرواح ،
ودّعِ القمرْ !

لندن ١٩٦٣/١/٢

منزل الأقنان

في جيكور

خرائبُ فانزعِ الأبواب عنها تغدُ أطلالا ،
خوالٍ قد تصكّ الريحُ نافذةً فتشرعها إلى الصبحِ
تطلّ عليكَ منها عينُ بومٍ دائبِ النوحِ .
وسلّمُها المحطّم ، مثل برجٍ دائرٍ ، مالا
يئنّ إذا أتته الريح تصعده إلى السطحِ ،
سفينٌ تعرك الأمواجُ ألواحه

* * *

وتملأ رُحبةَ الباحه
ذوائبُ سدرةٍ غبراءَ تزحمها العصافيرُ

تعدّ خطى الزمان بسقْسقاتٍ ، والمناقير
كأفواهٍ من الديدان تأكل جثّةَ الصمتِ
وتملأ عالم الموْتِ
بهَسْهسةِ الرثاء ، فتفزع الأشباح تحسب أنه النورُ
سيُشرق ، فهي تُمسك بالظلال وتهجر الساحه
إلى الغرف الدجيّةِ وهي توقظ ربّةِ البيْتِ :
« لقد طلع الصباح » . وحين يبكي طفلها الشَّبَحُ
تهدهدُه وتنشد : « يا خيول الموت في الواحه
تعالي واحمليني ، هذه الصحراء لا فرحُ
يرفّ بها ولا أمنٌ ولا حبّ ولا راحه » .

ألا يا منزلَ الأقنان ، كم من ساعدٍ مفتولْ
رأيتَ ومن خطىً يهتزّ منها صخرك الهاري !
وكم أغنيّةٍ خضراءَ طارت، في الضحى المغسولِ
بالشمس الخريفيّه ،
تحدّث عن هوىً عاري
كماء الجدول الرقراق ! كم شوقٍ وأمنيّه ! !

وكم ألم طويتَ وكم سُقيتَ بدمعٍ جاري !؟
وكم مهد تهزهز فيك : كم موْت وميلادِ
ونارٍ أوقدتْ في ليلة القرّ الشتائيه !!
يدندنُ حولها القصّاص : « يُحكى أنّ جنيّه ... »
فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دَهَشٍ وإخلاد
كأنّ زئير آلاف الأسودِ يرنّ في وادِ
وقد ضلّوا حيارى فيه ، ثمّ ترنّ أغنيّه :
« أتى قمرُ الزمان ... » ودندن القصّاص ! « جنيّه »
وبؤْسهم المرير : الجوع والأحزان والسّقَمُ
وطفلٌ مات لمّا جفّ درٌّ — ماتت المعزى
وجاعت أمّه فالثدّيُ لا لبنٌ ولا لَحَمُ .
سمعتُ صراخها والليل ينظر نجمُه غمْزا ،
ووَلْوَلةَ الأب المفجوع يخنق صوته الألَمُ

* * *

ولو خُيّرْتُ أبدلتُ الذي ألقى بما ذاقوا ،
ممضّ ما أعاني : شُلّ ظهرٌ وانحنتْ ساقُ .
على العكّاز أسعى حين أسعى ، عاثر الخطوات مرتجفا

غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحَدِ
بلا مال ، بلا أملٍ ، يقطّعُ قلبَه أسفا .
ألستُ الراكضَ العدّاء في الأمس الذي سلفا ؟
أأمكث في ديار الثلج ثم أموت من كَمَدِ
ومن جوعٍ ومن داءٍ وأرزاءِ ؟
أأمكث أم أعود إلى بلادي ؟ آه يا بلدي
وما أمل العليل لديْك شحّ المال ثم رَمَتْهُ بالداءِ
سِهامٌ في يد الأقدار ترمي كلّ من عطفا
على المرضى وشدّ ضلوع الجائعين بصدره الواهي
وكَفْكَفَ أدمع الباكين يغسلُها بما وكفا
من العبرات في عينيه — إلا رحمةُ اللهِ ؟؟

* * *

ألا يا منزل الأقنان ، سقّتْك الحيا سُحُبُ
تروّي قبري الظمآن ،
تلثمه وتنتحبُ !

لندن ١٩٦٣/١/٣

وصية من محتضر

يا صمتُ ، يا صمتَ المقابرِ في شوارعها الحزينه ،
أعوي ، أصيح ، أصيح في لَهَفٍ فأسمع في السكينه
ما تنثر الظلماءُ من ثلجٍ وقارِ
تُصدي عليه خطىً وحيداتٌ ، وتبتلع المدينه
أصداءَهنّ ، كأنّ وحشاً من حديدٍ ، من حجارِ ،
سفّ الحياة فلا حياة من المساء إلى النهارِ .
أين العراق ؟ وأين شمس ضُحاه تحملها سفينه
في ماء دجلةَ أو بُوَيْبَ ؟ وأين أصداء الغناءِ
خفقت كأجنحة الحمام على السنابل والنخيلِ
من كلّ بيتٍ في العراء ؟

من كلّ رابيةٍ تدثرُها أزاهيرُ السهول ؟
إنْ متّ يا وطني فقبرٌ في مقابرك الكئيبه
أقصى مناي . وإنْ سلمتُ فإن كوخاً في الحقولِ
هو ما أريد من الحياة . فدى صحاراك الرحيبه
أرباضُ لندن والدروب ، ولا أصابتْك المصيبه !

* * *

أنا قد أموت غداً ، فإنّ الداء يقرض ، غَيْرَ وانِ ،
حبلاً يشدّ إلى الحياة حطام جسمٍ مثلِ دارِ
نخرتْ جوانبَها الرياحُ وسقْفَها سيلُ القطارِ ،
يا إخوتي المتناثرين من الجنوب إلى الشمالِ
بين المعابر والسهول وبين عالية الجبالِ ،
أبناء شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبه ...
لا تكفروا نِعَمَ العراقِ ...
خير البلاد سكنتموها بين خضراءٍ وماءٍ ،
الشمس ، نور الله ، تغمرها بصيفٍ أو شتاء ،
لا تبتغوا عنها سواها .

هي جنّةٌ فحذارِ من أفعى تدبّ على ثراها .
أنا ميّتٌ ، لا يكذب الموتى . وأكفر بالمعاني
ان كان غير القلب منبعها .
فيا ألقَ النهارِ
أغمر بمسجدك العراق ، فأنّ من طينِ العراقِ
جسدي ومن ماءِ العراق ...

١٩٦٣/١/٢

الشاهدة[1]

« يا قارئاً كتابي
ابكِ على شبابي . »
شاهدة بين القبور تبكي
تستوقف العابرَ . يا صحابي
غضوا الخطى ولتصمتوا : إن القرون تحكي
في جملةٍ خُطت على التّرابِ .
من نام في القبر ودودَ القبرِ ؟
يُسأل لا ينطق بالجواب ؟!
سيّان عنده ائتلاقُ الفجر
وظلمة الليل ، بلا ثيابِ

(١) لوحة توضع عند القبر يكتب عليها اسم الميت أو حكمة أو أبيات من الشعر .

بلا طعام ، لا هوىً ، لا حقدُ .
أفقر أهل الفقر
فيه وأغنى الأغنياء . تعدو
في قبره الجرذان ، وهو غافِ
نام من الديدان في لحافِ ؟!

* * *

لي نومةٌ مع التراب في غدِ
صباحُها أوّلُ ليل الأبدِ ،
يمر بي الشيوخ والشبّانُ
يثرثرون : يدها فوق يدي
وعينها .. » ويُنفث الدخانُ !
رُبَّ فتى مُورَّدِ
يقرأ من شِعري على الصحابِ ،
يقرأ في كتابي
قصيدةً خضراء عن جيكور
غافيةً تحت غصونِ النورِ
تحلم بالسحابِ .
مرّ على قبري فقال : قَـبْـرُ !

وأين من هذا الرميم الشّعرُ
يدفق بالعواطفِ
كهبّةِ العواصف القواصفِ ؟ »
مَرّ على قبري فكاد الصّخرُ
يُصرخ : « تحتي نام هذا الشاعرُ
صاحبُ هذه القوافي ، يسمعُ
ما قلتموه فالعيونُ تدمعُ
في عالمٍ لا يرجعُ المسافرُ
منه ولا للنوم فيه آخرُ .
رفقاً به ، دعوه في رقدته
تؤنسه الديوانُ في وحدته
كان له قلبٌ وكان أمسُ ،
حتى إذا استنزف من مدتِه
توسد الترابا .
لا تقرأوا الكتابا »

* * *

ثمّ تغيبُ الشمسُ !

درم – ١٩٦٣/١/٦

اسمعه يبكي

أسمعُهُ يبكي ، يناديني
في ليليَ المستوحد القارس ،
يدعو : « أبي كيف تخلّيني
وحدي بلا حارس ؟ » .
غيلان ، لم أهجرْكَ عن قصْدِ ...
الداء ، يا غيلان ، أقصاني .
إني لأبكي ، مثلما أنت تبكي ، في الدجى وحدي
ويستثير الليلُ أحزاني .
فكلّما مرّ نهارٌ وجاءْ
ليلٌ من البرْدِ ،

ألفيتُني أحسب ما ظلّ في جيبي من النقد :
أيشتري هذا القليلُ الشفاء ؟
سأطرقُ البابَ على الموت في دهليز مستشفى
في البرد والظلماء والصمتِ ،
سأطرق البابَ على الموتِ
في بُرهةٍ طال انتظاري بها في معبر من دماء ،
وأرسلُ الطرفا
فلا أرى إلاّ الدجى والخَـواء .
يا ويلتي إنْ يُفتح البابُ
فأبصرُ الأمواتَ من فُرْجتِهْ
يدعونني : « مالك ترتابُ
بالموت ؟ في هجمته
ما يعدل الدنيا وما فيها :
دفء ، نُعاسٌ ، خَدَرٌ وارتخاء ! »
أوشكُ أن أعبر في برْزخٍ من جامدات الدماء
تمتدُّ نحوي كفُّها ، كفّ أمي بين أهليها :
« لا مالَ في الموت ، ولا فيه داء ! »

ثم تسدّ البابَ كفُّ الطبيب
تجرح في جسمي ،
وهاتفاً باسمي
أسمع صوْتاً ناعساً ، قد أجيبْ
فيُهزمُ الموتُ على صوتي ،
وربما استسلمتُ للموت !

درم ١٩٦٣/١/٩

هَرَمْ

هَرَمْ ...
بنفسيَ مما عزاني بَرَمْ
فمدي ذراعيكِ ولتحضنيني
إلى هوةٍ من ظلام العدم ،
فما قيمة العمر أقضيه أمشي
بعكّازة في دروب الهَرَم ؟
أهذا شبابي؟ وأين الشباب ؟
ألا حُبّ ، لا زهوَ ، لا عنفوان ؟
أهذا مشيبي ؟ حصدتُ السراب
إذا كان معنى المشيب الهوان؟

أعقبى المشيب الأسى والندم ؟
أما من شبابي الذي مرّ ذكرى ؟
أما منه مالٌ وبُقيا شمم ؟
أكان الذي منه خلّفتُ شِعرا
وبيتاً وراء الرياح انهدم ؟
درم ...
تمنّيتُ لو متُّ بين الثلوج
على جدولٍ جمّدتْه النّسَمْ ،
فروحي تجوب المروج
وتأوي إلى رمّةٍ في الظُّلَم .
ومن أين للروح هذا البقاء ؟
فناء ، فناء
سوى قصّةٍ قد تثير السّأم
يُردّدها سامرٌ في الشتاء :
« لقد خطّ شِعْراً له من هباء ،
وكانت له زوجةٌ وابنُ عم
وطفلانِ .. لا ، لا ، نسيتُ ... ابنتانْ

وطفلٌ . » ، ويخبو لديه الضّـرَم ،
فيغفو على المسند السامرُ
وتُفتحُ بوّابةٌ من دخانْ
عليها الدجى حائرُ
يُبعثر أنجمَهُ من خلال الضباب .
أهذا هو الشاعر ؟
حديثٌ يُنيم الصحاب
إذا مات ، أو عاش فهو الألم .
دَرَمْ
بنفسي مما عراني بَرَمْ !

بيروت ١٩٦٣/١/٥

قصيدة من درم

مِن دَرَمٍ أكتبُها قصيده
كالنجم في آفاقهِ البعيده
لا يبعث الدفءَ ولا يُنيرُ ،
يلمحه الصغيرُ
فيبسط الكفَّ له ، يُشير
يقطر في أحلامه السعيده
يَعلق بالضبابِ
كنُفخةِ السراب
تضلّلُ القوافلَ الشريده .

* * *

اليأسُ يوحيها أو الملالُ
كأنّها في الظلمةِ الظّلالُ
تعمّقُ الظلْمةَ حين تُنشَرُ .
أظلٌ ما يُقالُ
في نفس شاعرٍ يموتُ عمرُه ، يُبعثَرُ
ويُقبَرُ ؟
يمشي على عكّازةٍ ويعثرُ ،
أيامه إلى رَداه سَفَرُ ،
وعيْشُهُ انسلالُ
عَبْرَ جدار الموتِ ما يزالُ ؟
شاء الرّدى ، حاول أن يُريده ،
لكنّ وحشاً ضارياً يُزمجرُ
في كهفه ، وحيّةٌ من بابلَ التليده —
يطير نحوَ الموت منه شرَرُ ،
تفحُّ في وجه الردى وتصفرُ ،
فيكتب القصيده
يريد أن يجدّد البقاء ، أن يُعيده ،

أن يهديَ القوافلَ الشريده
فلا تتيهَ في صحارى العَدَمِ .
بقبره في دَرَمِ .

* * *

من درمِ أكتبها قصيده
كالنجم ضلّ في سديم العَدمِ .

درم ١٩٦٣/١/٥

قالوا لأيوب

قالوا لأيوبَ : « جفاكَ الآلهْ ! »
فقال : « لا يجفو
من شدّ بالأيمان ، لا قبضتاه
تُرخى ولا أجفانُه تغفو » .
قالوا له : « والداء من ذا رماه
في جسمك الواهي ومن ثبّتَه ؟ »
قال : « هو التفكيرُ عمّا جناه
قابيلُ والشاري سُدىً جنّته .
سيُهزَم الداء : غداً أغفو
ثمّ تفيقُ العينُ من غفوَه

فأسحبُ الساقَ الى خَلْوه
أسأل فيها اللهَ أن يعفو .
عكّازتي في الماء أرميها
وأطرقُ الباب على أهلي .
إنْ فتحوا البابَ فيا وَيْلي
من صرخةٍ ، من فرحةٍ مسّتْ حوافيها
دوّامةَ الحُزْنِ .. وأأيّوبُ ذاكْ ؟
أم أن أمنيّه
يقذفُها قلبي ، فألفيها
ماثلةً في ناظري حيّه ؟
غيلان ، يا غيلان ، عانقْ أباكَ ! »

* * *

يا ربّ لا شكوى ولا من عتاب ،
ألستَ أنت الصانعَ الجِسْما ؟
فمن يلوم الزارع التَمّا
من حوله الزرعُ ، فشاء الخراب

لزهرةٍ والماءَ للثانيه ؟
هيهات تشكو نفسيَ الراضيه .
إني لأدري أنّ يومَ الشفاء
يلمحُ في الغيْبِ ،
سينزع الأحزانَ من قلبي
وينزع الداءَ ، فأرمي الدواء ،
أرمي العصا ، أعدو إلى دارنا وأقطف الأزهار في دَرْبي
ألمّ منها باقةً ناضره
أرفعُها للزوجةِ الصابره
وبيْنها ما ظلّ من قلبي !

درم ١٩٦٣/١/٦

الليلة الاخيرة

وفي الصباح يا مدينةَ الضبابْ
والشمس أمنيّةٌ مصدورٍ تُدير رأسَها الثقيلْ
من خَلَلِ السحاب ،
سيحملُ المسافرُ العليلْ
ما تركَ الداءُ له من جسمِه المذاب
ويهجرُ الدخانَ والحديدْ
ويهجر الأسفلْتَ والحَجَرْ .
لعله يلمح في درامَ من نَهَرْ ،
يلمح وجه الله فيها ، وجهه الجديد

في عالم النقود والخمور والسَّهَرْ .

* * *

رُبَّ صباحٍ ، بعد شهرٍ ... بعد ما الطبيب
يراه — من يعلم ماذا خبَّأ القَدَر ؟ —
سيحمل الحقيبةَ المليئه
بألف ألفِ رائعٍ عجيبْ ،
بالحَلْي والحجر ،
باللُّعَب الخبيئه
يفجأ غيلانَ بها — يا طول ما انتظر !
يا طولَ ما بكى ونام تملأ الدموعْ
برنَّةِ الأجراس أو بصيحةِ الذئاب
عوالم الحُلْم له ، وتنشر القلوع
يجوب فيها سندبادُ عالم الخطَرْ :
هناكَ فارس النحاس يرقبُ العُباب
ويُشرع السهْمَ ليرمي كلَّ من عَبَرْ !

* * *

إنْ يكتب اللهُ ليَ العوْدَ الى العراق
فسوف ألثم الثرى ، أعانق الشجر ،
أصيحُ بالبَشَرْ :
« يا أرجَ الجنّةِ ، يا إخوة يا رفاقْ ،
ألحَسنُ البصْريّ جابَ أرض واقِ واق
ولندنَ الحديدِ والصّخَرْ ،
فما رأى أحسنَ عيْشاً منه في العراق . »
ما أطولَ الليلَ وأقسى مديةَ السّهَرْ
صديئةَ تحزّ عينيّ الى السّحَرْ !

* * *

وزوجتي لا تطفىء السراجَ : « قد يعودْ
في ظلمة الليل من السّفَرْ . »
وتُشعل النيرانَ في مَوْقدِنا : « برودْ
هو المساء ، وهو يهوى الدفءَ والسّمَرْ . »

* * *

وتنطفيء مدفأتي ، فأضرمُ اللهيبْ

وأذكر العراقَ : ليْت القمر الحبيب
من أفق العراق يرتمي عليّ : آهِ يا قمر
أما لثمتَ وَجْه غيْلانَ ؟ أنا الغريب
يكفيه ، لو لثمتَ غيْلان ؟ أن انتثر
منك ضياءٌ عبْرَ شبّاك الأبِ الكئيب
ومسّ منه الثّغْرَ والشّعَرْ :
أحسُّ منه أنّ غيلان (شذىً وطيب
من كفّه الليّنةِ انتشر)
عابثَ شَعْري ، صاحَ : « آهِ جاء
أبي ، وعاد من مدينة الحَجَرْ ! »
وشدّ بالرداء .
ما أطول الليلَ وأقسى مدْيةَ السّهَرْ
ومديةَ النوم بلا قمر !

لندن ١٩٦٣/١/٤

القصيدة والعنقاء

جنازتي في الغرفةِ الجديده
تهتفُ بي أن أكتب القصيده ،
فأكتبُ
ما في دمي وأشطبُ
حتى تلينَ الفكرةُ العنيده .
وغرفتي الجديده
واسعةٌ ، أوسعُ لي من قبْري .
إذا اعتراني تـَعَبُ
من يقظةٍ فالنوم منها أعذبُ ،
ينبع حتى من عيون الصّخْرِ ،

حتّى من المدفأةِ الوحيده
تقومِ في الزاوية البعيده .

* * *

وترفع الجنازةُ اليابسةُ المهدّمه
من رأسها ، ترنو إلى الجدرانِ
والسقْف والمرآةِ والقناني .
ما للزوايا مظلمه
كأنهنّ الأرضُ للأنسانِ
تريد أن تحطّمه
بالمال والخمور والغواني .
والكذْب في القلب وفي اللسانِ ،
تريدُ أن تعيده
للغابة البليده ؟
وصفحةُ المرآةِ ما لها تُطلّ خاويه
ما أثمرْت بغانيه ،
بالشفةِ المرجانِ

تُنيرها ، كالشَفَقِ ، العينان
وبالنهود العاريه ؟
كهذه المرآةِ
ستُصبح الأرضُ بلا حياةِ .
وفي الليالي الداجيه ،
في ذلك السكون ليس فيهِ
إلاّ الرياحُ العاويه ،
سيفزع اللهُ من الأمواتِ
ويسحبُ الموتَ ويغفو فيه
مثلَ دثارٍ في الليالي الشاتيه

* * *

وهكذا الشاعرُ حينَ يكتب القصيدّه
فلا يراها بالخلود تنبضُ ،
سيهدمُ الذي بنى ، يقوّضُ
أحجارَها ثم يملأُ الصمتَ والسكونا .
وحين تأتي فكرةٌ جديده ،

يسحبُها مثلَ دثارٍ يحجب العيونا
فلا ترى . إنْ شاء أن يكونا
فليهدم الماضيَ ، فالأشياء ليس تنهضُ
إلا على رمادها المحترقِ
منتثراً في الأفـُقِ ..
وتولد القصيده .

درم ١٩٦٣/١/١٠

هرم المغني

بالأمسِ كنتُ إذا كتبتُ قصيدةً فرحَ الدمُ
فأغمغمُ
وأهيم ما بين الجداول والأزاهر والنخيلْ
أشدو بها ، أترنّمُ :
زادٌ لروحي منذ سقسقةِ الصباح إلى الأصيل .
زادٌ .. ولكنْ عنه قد صدفت ، تجوع ولا تريدْ
ما يُنعش الآمالَ فيها ،
هي حشرجاتُ الروح أكتبها قصائد لا أفيد
منها سوى الهُزْء المرير على ملامحِ قارئيها .

هَرِمَ المغنّي ، هدّ منه الداءُ فارتبكَ الغناءْ .

بالأمس كان إذا ترنّم يُمسكهُ الليلُ الطروبْ
بنجومه المترنّحات فلا تخرّ على الدروب ،
واليوم يهتف ألفَ آهٍ لا يهزُّ مع المساء
سَعَفَ النخيل ولا يُرجّجُ زورقَ العرس المحلّى
بعيون آرامٍ ودفْلى
ودرابكَ ارتعدت حناجِرُها فأرعدت الهواء .

هرم المغني فاسمعوه ، برغم ذلك ، تسعدوه ،
ولتُوهموه بأنّ من أبَدٍ شبابٌ من لحونْ
وهوى ترقرقُ مقلتاه له وينفح منه فوه .
هو مائتٌ ، أفتبخلونَ
عليه حتى بالحُطام من الأزاهر والغصون ؟
أصغوا إليه لتسمعوه
يرثي الشبابَ ولا كلامَ سوى نشيجٍ : « بالعيون
سلّمْ عليّ إذا مررتَ . » ،
أتى وسلّمَ .. صَدّقوه !
هرم المغنّي فارحموه .

درم ٥/ ١٦٩٣/

قصيدة إلى العراق الثائر

عملاءُ « قاسمَ » يُطلقون النارَ ، آهِ ، على الربيعْ
سيذوب ما جمعوه من مالٍ حرامٍ كالجليدْ
ليعود ماءً منه تطفحُ كلُّ ساقيةٍ ، يُعيد
ألقَ الحياةِ إلى الغُصون اليابساتِ فتستعيد
ما لُصَّ منها في الشتاء القاسيّ . . فلا يضيع
يا للعراقْ !
يا للعراق ! أكاد ألمحُ ، عَبْرَ زاخرةِ البحارْ ،
في كلِّ مُنعطَفٍ ، ودربٍ ، أو طريق ، أو زقاق
عَبْرَ الموانىء والدروبْ ،
فيه الوجوه الضاحكات تقولُ : « قد هربَ التتارْ

والله عاد إلى الجوامع بعد أن طلع النهار ،
طلع النهار فلا غروب ! »
يا حفصة ، (١) ابتسمي فثغركِ زهرة بين السهوب ،
أخذتْ من العملاء ثأركِ كفُّ شعبيَ حين ثار
فهوى إلى سَقَرٍ عدوّ الشّعْب ، فانطلقتْ قلوب
كانت تخاف فلا تحنّ إلى أخٍ عبَرَ الحدودْ ،
كانت على مَهَلٍ تذوب ،
كانت إذا مال الغروب
رفعتْ إلى الله الدّعاء : « ألا أغِثْنا من ثمود ،
من ذلك المجنون يعشق كلّ أحمرَ ، فالدماءْ
تجري وألْسِنةُ اللهيب تُمدُّ ، يُعجبه الدمار .
أحرقْه بالنيران تهبط ، كالجحيم ، من السماء ،
واصرعْه صرعاً بالرّصاص ! فإنّه شبحُ الوباء » .

* * *

هرع الطبيبُ إليّ — آهِ ، لعلّه عرف الدواء
للداء في جسدي فجاء ؟ —

---

(١) عذراء عربية من الموصل ، صلبها عملاء قاسم ومثلوا بها .

هرع الطبيب إليّ وهو يقول : « ماذا في العراق ؟
الجيْشُ ثارَ ومات « قاسم »..» — أيّ بُشرى بالشّفاء!
ولكدتُ من َفرَحي أقوم ، أسيرُ ، أعدو دون داء .
مرحى له .. أي انطلاقْ !؟
مرحى لجيْش الأمّةِ العربيةِ انتزع الوثاق !
يا اخوتي بالله ، بالدم ، بالعروبة ، بالرجاء ،
هُبّوا فقد صُرِعَ الطغاةُ وبدّد اللّيْلَ الضياء !
فلتحرسوها ثورةً عربيّةً صُعِق « الرِّفاقْ »
منها وخرّ الظالمون ،
لأنّ « تمّوزَ » استفاقْ
من بعدِ ما سرق العميل سناه ، فانبعثَ العراقْ

لندن ـ مستشفى سان ماري ١٩٦٣/٢/٨

أنشودة المطر

أُنْشُودَةُ المَطَر

غريب على الخليج

الريح تلهث بالهجيرةِ ، كالجثام ، على الأصيلِ
وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشَّرُ للرحيل
زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ
من كلّ حافٍ نصف عاري .
وعلى الرمال ، على الخليج
جلس الغريبُ ، يسرّح البَصَر المحيَّر في الخليج
ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيجِ
« أعلى من العبّاب يهدر رغوُهُ ومن الضجيجِ
صوتٌ تفجّر في قرارة نفسيَ الثكلى : عراق ،
كالمدّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع الى العيون

الريح تصرخ بي : عراق ،
والموج يُعوِل بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق !
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق .
بالأمس حين مررتُ بالمقهى ، سمعتك يا عراقُ ...
وكنت دورة أسطوانه
هي دورة الأفلاك من عُمُري ، تكوّر لي زمانه
في لحظتين من الزمان ، وان تكن فقدت مكانه .
هي وجه أُمي في الظلامِ
وصوتُها ، يتزلّقان مع الرؤى حتى أنام ؛
وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمّ مع الغروب
فاكتظّ بالأشباح تخطفُ كلّ طفلٍ لا يؤوبُ
من الدروب ؛
وهي المفلّية العجوز وما توشوش عن « حزام » [1]
وكيف شقّ القبر عنه أمام « عفراءَ » الجميله

(١) هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق عروة بن الحزام عند العامة الذين يروون قصة حبه لعفراء وموته ويرددون معاني قصيدته ، بشعر عامي .

فاحتازها .. إلا جديله .
زهراء ، أنت .. أتذكرين
تنـّورنا الوهّاج تزحمه أكف المصطلين ؟
وحديثَ عمتيَ الخفيضَ عن الملوك الغابرين ؟
ووراء بابٍ كالقضاء
قد أوصدته على النساء
أيدٍ تُطاع بما تشاء ، لأنها أيدي رجال —
كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال .
أفتذكرينَ ؟ أتذكرين ؟
سُعداءَ كنا قانعينَ
بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء .
حَشْدٌ من الحيَوات والأزمان ، كنا عُنْفُوانه ،
كنا مَداريْه اللذين بينهما كيانه .
أفليس ذاك سوى هباء ؟
حُلُمٌ ودورة اسطوانه ؟
إنْ كان هذا كلٌّ ما يبقى فأين هو العزاء ؟

أحببتُ فيكِ عراقَ روحي أو حببتُكِ أنتِ فيه ؛
يا أنتما ، مصباح روحي أنتما – وأتى المساء
والليل أطبق ، فلتشعّا في دجاه فلا أتيه .
لو جئتِ في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء !
الملتقى بك والعراقُ على يديّ .. هو اللقاء !
شوق يخضُّ دمي إليه ، كأنّ كلّ دمي اشتهاء ،
جوع إليه .. كجوع كلّ دم الغريق الى الهواء .
شوق الجنين إذا اشرأبّ من الظلام الى الولاده !
إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون !
أيخون إنسانٌ بلاده ؟
إن خان معنى أن يكون ، فكيف يمكن أن يكون ؟
الشمس أجمل في بلادي من سواها ، والظلامْ
– حتى الظلام – هناك أجملُ ، فهو يحتضن العراق .
واحسرتاه ، متى أنامْ
فأحسّ أن على الوساده
من ليلك الصيفي طلاّ فيه عطرُك يا عراق ؟

بين القرى المتهيّبات خطاي والمدن الغريبه
غنّيْتُ تربتكَ الحبيبه ،
وحملتُها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبه ،
فسمعتُ وقع خطى الجياع تسيرُ ، تدمى من عثار
فتذرُّ في عينيَّ ، منكَ ومن مناسمها ، غبار .
ما زلتُ أضرب ، مُتربَ القدمين أشعث ، في الدروب
تحت الشموس الأجنبيّه ،
متخافقَ الأطمار ، أبسط بالسؤال يداً نديّه
صفراءَ من ذُلٍّ وحُمّى : ذلُّ شحّاذٍ غريبِ
بين العيون الأجنبيه ،
بين احتقارٍ ، وانتهارٍ ، وازورارٍ .. أو «خطيّه»[1] ،
والموت أهون من « خطيه » ،
من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيه
قطراتِ ماءٍ .. معدنيّه !
فلتنطفي ، يا أنتِ ، يا قطراتُ ، يا دمُ ، يا .. نقودُ ،
يا ريح ، يا إبراً تخيط لي الشراعَ — متى أعودُ

---

(١) كلمة اشفاق في اللهجة العراقية (والكويتية) الدارجة

إلى العراق ؟ متى أعودُ ؟
يا لمعةَ الأمواجِ رنّحهنَّ مجدافٌ يرودُ
بيَ الخليجَ ، ويا كواكبه الكبيرةَ .. يا نقودُ !

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سِفارِ
أو ليت أنَّ الأرضَ كالأفق العريضِ ، بلا بحار !
ما زلتُ أحسب يا نقود ، أعدّكنَّ وأستزيد ،
ما زلتُ أُنقِصُ ، يا نقود ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي ،
ما زلتُ أُوقد بالتماعتكنَّ نافذتي وبابي
في الضفّة الأخرى هناك فحدثيني يا نقودُ
متى أعود ؟ متى أعودُ
أتُراه يأزف ، قبل موتي ، ذلك اليوم السعيدُ ؟
سأفيقُ في ذاك الصباح ، وفي السماء من السحابِ
كِسَرٌ ، وفي النسمات بَرْدٌ مُشبع بعطور آبِ ؛
وأُزيح بالثُّؤَباء بُقيا من نعاسي كالحجابِ
من الحرير ، يشفُّ عما لا يبينُ وما يبينْ :

عما نسيتُ وكدتُ لا أنسى ، وشكٍّ في يقين .
ويضيءُ لي – وأنا أمدُّ يدي لألبسَ من ثيابي –
ما كنتُ أبحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب
لِمَ يملأ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضباب ؟
اليوم – واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأُني – أعودُ !

واحسرتاه .. فلن أعـودَ إلى العراق !
وهــل يعودُ
من كان تُعْوِزُهُ النقود ؟ وكيفَ تُدَّخَرُ النقودُ
وأنت تأكل إذ تجوع ؟ وأنت تُنفقُ مــا يجودُ
به الكرام ، على الطعام ؟
لتبكِيَنَّ على العراقِ
فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك ، دون جدوى ، للرياح وللقلوع !

الكويت – ١٩٥٣

مرحى غيلان

- « بابا ... بابا ... »
ينساب صوتُكَ في الظلام ، إليّ ، كالمطر الغضيرِ ،
ينساب من خَلَلِ النُّعاس وأنت ترقد في السريرِ
من أيّ رؤيا جاء ؟ أيّ سماوةٍ ؟ أيّ انطلاقٍ ؟
... وأظلُّ أسبح في رشاشٍ منه ، أسبح في عبير .
فكأنّ أوديةَ العراقِ
فتحتْ نوافذَ من رؤاكَ على سهادي : كلُّ وادِ
وهبته عشتارُ الأزاهرَ والثمار . كأنّ روحي
في تربةِ الظلماءِ حبةُ حنطةٍ وصداكَ ماءُ .
أعلنتِ بعثي يا سماءُ .

هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءُ .

« بابا ... » كأنَّ يد المسيح
فيها ، كأنَّ جماجم الموتى تُبرِعمُ في الضريحِ .
تموز عاد بكل سنبلةٍ تُعابث كلَّ ريحِ .

« بابا ... بابا ... »
أنا في قرار بويبَ [1] أرقد ، في فراشٍ من رمالِهْ ،
من طينه المعطور ، والدم من عروقي في زلاله
ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيلِ .
أنا بَعْلُ : أخطر في الجليلِ ...
على المياه ، أنثُّ في الورقات روحي والثمارِ
والماء يهمس بالخرير ، يصلُّ حولي بالمحار
وأنا بوَيْبُ أذوب في فرحي وأرقد في قراري .

« بابا ... بابا ... »
يا سُلَّمَ الأنغام ، أيَّةُ رغبةٍ هي في قرارِكْ ؟
« سيزيف » يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارِك .
يا سُلَّمَ الدم والزمان : من المياه إلى السماءِ

(١) بويب نهر في قرية الشاعر .

غيلانُ يصعد فيه نحوي ، من تراب أبي وجدي
ويداه تلتمسان ، ثمّ ، يدي وتحتضنان خدّي
فأرى ابتدائي في انتهائي .
« بابا ... بابا ... »
جيكور[1] من شفتيكَ تولَد ، من دمائِكَ ، في دمائي
فتُحيل أعمدةَ المدينه
أشجار توت في الربيع . ومن شوارعها الحزينه
تتفجّرُ الأنهار ، أسمع من شوارعها الحزينه
ورَقَ البراعم وهو يكبر أو يمصُّ ندى الصباحِ
والنسغَ في الشجرات يهمس ، والسنابلَ في الرياح
تَعِدُ الرّحى بطعامهنّ .
كأنّ أوردةَ السماءِ
تتنفّسُ الدمَ في عروقي والكواكبَ في دمائي .
يا ظلّيَ الممتدّ حين أموت ، يا ميلاد عمري من جديدِ :
الأرضُ (يا قفصاً من الدم والأظافر والحديدِ
حيث المسيح يظلُّ ليس يموت أو يحيا .. كظلّ ،

---

(١) جيكور قرية الشاعر في جنوب العراق .

كبدٍ بلا عَصَبٍ ، كهيكل ميّتٍ ، كضُحى الجليد ،
النور والظلماءُ فيه متاهتان بلا حدودِ)
عشتار فيها دون بَعْلِ
والموت يركض في شوارعها ويهتف : يا نيامُ
هبّوا ، فقد وُلِدَ الظلامُ (١)
وأنا المسيح ، أنا السلامُ .
والنار تصرخ : يا ورود تفتّحي ، وُلِدَ الربيعُ
وأنا الفُرات ؛ ويا شموعُ
رشّي ضريحَ البَعْل بالدم والهُباب وبالشحوبِ .
والشمس تَعْوِل في الدروبِ :
بردانةٌ أنا والسماء تنوء بالسُحُب الجليد .

« بابا ... بابا ... »
من أيّ شمس جاء دفؤُك أيّ نجمٍ في السماء ؟
ينسلُّ للقَفَص الحديدِ ، فيورقُ الغدُ في دمائي ؟

---

(١) كان كهنة ايزيس ينطلقون ، في منتصف ليلة ١٢/٢٥ من كل عام ، هاتفين في شوارع الاسكندرية : لقد وضعت العذراء حملها وقد ولدت الشمس.

إغنية في شهر آب

تموز يموت على الأفُقِ
وتغور دماه مع الشفقِ
في الكهف المعتم . والظلماءْ
نقّالة إسعافٍ سوداءْ
وكأن الليل قطيع نساءْ :
كحلٌ وعباءاتٌ سودُ .
الليل خباءْ .
الليل نهار مسدودُ .

ناديت مربّية الأطفال الزنجيه :

الليل أتى يا مُرجانه
فأضيئي النور . وماذا ؟ إني جوعانـه .
و .. نسيت – أمـا من أغنيّه ؟
بمَ يهذر هذا المذياعُ ؟
في لندن ، موسيقى جازٍ ، يا مرجانه ،
فأليها .. إني فرحانه
والجاز من الدم إيقاعُ .

تموز يموت ومرجانه
كالغابة تربض بردانه ..

وتقول ، ويخذلها النـّفَسُ :
« الليل ، الخنزير الشرسُ ،
الليل شقاءٌ ! »
مرجانه .. هل قرع الجرسُ
فتقول ، ويخذلها النـّفَسُ :

« في الباب نساء . »
وتعد القهوة مرجانه .

وعلى الأكتاف البيض فراءٌ :
الذئب يدثّر إنسانه ،
وعلى الأثداء من النّمرِ
شرقٌ يتسلّل ، ملء الغاب ، من الشجرِ
والليل يطول مع السمر ..
الليل كتنورٍ — من أشباح البشرِ
خبزٌ يتنشق نيرانه
والضيفة تأكل جوعانه
من هذا الزاد . ومرجانه
كالغابة تربض بردانه .

والضيفة تضحك وهي تقول : « خطيب سعادٌ
جافاها ، وانطوتِ الخطبه !

الكلب تنكّر للكلبه .. »
تموز يموت بدون معاد ،
والبرد ينثّ من القمرِ
فتلوذ بدفأة من أعراض البشر .
والليل يطفّىء شطآنه
والضيفة تقبع بردانه
وفراء الذئب تغطيها ..
وتطفأت النيران اللاتي كانت بالدم تذكيها .

ليلٌ وجليد
يتساقط عبرهما صوتٌ ، رنّات حديدْ
وعواء ذئاب يخفيها ..
الصوت بعيد
والضيفة مثلي بردانه .

فتعال وشاركني بردي

بالله تعالْ

يا زوجي ، ها إني وحدي

– والضيفة مثلي بردانه –

فتعال تعالْ

فأمامك وحدك أقدر أن أغتاب الناس بلا استثناءْ

بالله تعالْ

فالناس كثيرٌ .. والظلماءْ

نقّالة موتى سائقها أعمى ، وفؤادك جبّانه .

غارسيا لوركا

في قلبه تنّور
ألنار فيه تطعم الجياع
والماء من جسمه يفور :
طوفانه يطهّر الأرضَ من الشرور
ومقلتاه تنسجان من لظى شراع
تجمعان من مغازل المطر
خيوطه ، ومن عيونٍ تقدح الشررْ
ومن ثديّ الأمهات ساعة الرضاعْ
ومن مُدى تسبل منها لذة الثمرْ
ومن مُدى للقابلات تقطع السررْ

ومن مدى الغزاة وهي تمضغ الشعاع
شراعه النديّ كالقمرْ
شراعه القوي كالحجرْ
شراعه السريع مثل لمحة البصرْ
شراعه الأخضر كالربيع
الأحمر الخضيب من نجيع
كأنه زورق طفل مزّق الكتاب
يملأ مما فيه ، بالزوارق النهر ،
كأنه شراع كولمبس في العبابْ
كأنه القدر .

تعتيم

حين يذرّ النُّورْ

ـ يلقي به التنور ـ

عن وجهك الظلماء

ويهمس الديجورْ

آهاته السمراء

على محيّاكِ

تهجس عيناكِ

بكلّ حزن الدهور

وكل أعيادها :

أفراح ميلادها

وغمغمات النذور
وزهرها والخمور !

ألنور والظلماء
أسطورة منحوتة في الصخورْ :
كم ذادَ بالنّـارِ ،
من أسدٍ ضاري
وكم أخاف النمور ،
إنسان تلك العصور
بالنّـور والنّـارِ !
فأطفئي مصباحنا أطفئيه
ولنطفىء التنورْ
وندفن الخبز فيه ،
كي لا تعيد الصخورْ
أسطورة للنار ، ظلّـت تدور
حتى غدا أول ما فيها

آخر ما فينا — وليل القبور
أوّل ما فيها —
ولنبق في الديجور
كي لا ترانا نمور
تجوس في الظلماء
لترجم الأحياء
— من غابة في السماء —
بالصخر والنار
وتستبيح القبور !

المخبر

أنا ما تشاء : أنا الحقيرْ
صبّاغ أحذية الغزاة ، وبائع الدم والضمير
للظالمين . أنا الغراب
يقتات من جثث الفراخ . أنا الدمار ، أنا الخراب !
شفة البغيّ أعفّ من قلبي ، وأجنحة الذباب
أنقى وأدفأ من يديّ . كما تشاء ... أنا الحقير !
لكنّ لي من مقلتيّ — إذا تتبّعتا خطاك
وتقرّتا قسمات وجهك وارتعاشك — إبرتينِ
ستنسجان لك الشراكْ
وحواشيَ الكفن الملطّخ بالدماء ، وجمرتينِ

تروّعان رؤاك إن لم تحرقاكْ !
وتحول دونها ودونك بين كفيّ الجريده
فتندّ آهتك المديده
وتقول : « أصبح لا يراني » ... بيد أن دمي يراك
إني أحسّك في الهواء وفي عيون القارئين .
لِمَ يقرأون : لأنْ تونسَ تستفيق على النضال ؟
ولأن ثوّار الجزائر ينسجون من الرمالْ
ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين
كفنَ الطغاة ؟ وما تزال قذائف المتطوعين
يصفرن في غسق القنال ؟
لِمَ يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حين
كالشامتين ؟
سيعلمون من الذي هو في ضلالْ
ولأيّنا صدأُ القيود ... لأيّنا صدأ القيود ..
لأيّنا ...—

نهض الحقـــير
وسأقتفيه فما يفرّ ، سأقتفيه إلى السعير .
أنا ما تشاء : أنا اللئيم ، أنا الغبيّ ، أنا الحقود
لكنّما أنا ما أريد : أنا القويّ ، أنا القدير .
أنا حامل الأغلال في نفسي ، أقيّد من أشاءُ
بمثلهنّ من الحديد ، واستبيح من الخدود
ومن الجباه أعزُهنّ . أنا المصير ، أنا القضاء .
الحقد كالتنور فيّ : إذا تلهّب بالوقود
– الحبر والقرطاس – أطفأ في وجوه الأمّهات
تنورهنّ ، وأوقف الدم عن ثديّ المرضعات .
في البدء كان يطيف بي شبَحٌ يقال له : الضمير
أنا منه مثل اللص يسمع وقع أقدام الخفير .
شبَحٌ تنفّس ثمّ مـات
واللص عاد هو الخفيرْ .
في البدء لم أكُ في الصراع سوي أجير
كالبائعات حليبهنّ ، كما تؤجّر – للبكاء

ولندب موتى غير موتاهنّ – في الهند النساء .
قد أمعن الباكي على مضضٍ ، فعاد هو البكاء !

ألخوف والدمُ والصفّار . فأي شيء أرتجيه ؟
فعلى يديّ دمٌ وفي أذنيّ وهْوهة الدماء
وبمقلتيّ دمٌ ، وللدّم في فمي طعمٌ كريه !
أثقل ضميرك بالآثام فلا يحاسبك الضمير
وانسَ الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا .
لا تمسح الدم عن يديك فلا تراه وتستطير
لفرط رعبك أو لفرط أساك .. واحتضن الخطايا
بأشدّ ما وسع احتضانٌ تنجُ من وخز الخطايا .

قوتي وقوتُ بنيّ لحمٌ آدمي أو عظام
فليحقدنّ علي كالحمم المستعرّة ، الأنام
كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك ، ولا أكون
وريث قابيل اللعين سيسألون

عن القتيل فلا أقول :
« أأنا الموكّل ، ويلكم بأخي ؟ » فإن المخبرين
بالآخرين موكّلون !

سحقاً لهذا الكون أجمع وليحلّ به الدمارْ !
مالي وما للناس ؟ لست أباً لكل الجائعين
وأريد أن أروى وأشبع من طوىً كالآخرين
فلينزلوا بي ما استطاعوا من سباب واحتقار
لي حفنة القمح التي بيـــدي ودانية السنين
— خمسٌ وأكثر .. أو أقلّ — هي الربيع من الحياة
فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاة
روحَ النماء ، وبالبيادر وانتصار الكادحين
فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من يجوع .
إني سأحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع ،
لا شيء غير الرعب والقلق الممض على المصير
ساء المصير !

ربّاه إن الموت أهون من تَـرقُّـبهِ المرير

ساء المصير :

لِمَ كنت أحقر ما يكون عليه إنسانٌ حقير ؟!

عرس في القرية

مثلما تنفض الريحُ ذرَّ النُّضارْ
عن جناح الفراشة ، مات النهار —
ألنهار الطويلْ .
فاحصدوا يا رفاقي ، فلم يبق إلاّ القليل .
كان نَقْرُ الدّرابكِ منذ الأصيل
يتساقط ، مثلَ الثمار ،
من رياح تهوّم بين النخيل —
يتساقط مثل الدموع
أو كمثلِ الشرار :
إنها ليلة العُرس بعد انتظار !

مات حبٌّ قديمٌ ، ومات النهار

مثلما تُطفىءُ الريح ضوءَ الشموع .

ألشموع ... الشموع ،

مثل حقل من القمح عند المساء ،

من ثغور العذارى تعبٌّ الهواء ،

حين يرقصنَ حول العروس

منشداتٍ : « نوار ، اهنئي يا نوار !

حلوةٌ أنتِ مثل الندى ، يا عروس » .

يا رفاقي ، سترنو إلينا نوار

من علٍ في احتقار .

زهّدتها بنا حفنةٌ من نُضار :

خاتمٌ أو سوار ، وقصرٌ مشيدْ

من عظام العبيد ...

وهي ، يا ربّ ، من هؤلاء العبيد !

ولو انّا وآباءنا الأولين

قد كدحنا طوال السنين

وادّخرنا – على جوع أطفالنا الجائمين –
ما اكتسبناه في كدّنا من نقود ،
ما اشترينا لها خاتماً أو سوار !
خاتمٌ ضمّ في ماسه الأزرقِ
من رفات الضحايا مئات اللحود
اشتراها به الصيرفيُّ الشقي .
مثلما تنثر الريح عند الأصيل
زهرة الجلّنار –
أقفر الريفُ لمّا تولّت نوار .
بالصبابات ، يا حاملاتِ الجرار
رحْنَ واسألنَها : « يا نوار
هل تصيرين للأجنبي الدخيل ؟
للذي لا تكادين أن تعرفيه ؟
يا ابنة الريف ، لم تنصفيه !
كم فتىً من بنيه
كان أولى بأن تعشقيه ؟

إنهم يعرفونك منذ الصغر
مثلما يعرفون القمر ...
مثلما يعرفون حفيف النخيل
وضفاف النهر
والمطر
والهوى ، يا نوار ... »
احصدوا يا رفاقي ، فإن المغيب
طاف بين الروابي يرش اللهيب
من أباريق مجبولة من نضار ؛
والزغاريد تصدي بها كل دار :
أوقد القصر أضواءه الأربعين ،
فاتبعوني اليها مع الرائحين .
اتركوني أغني أمام العريس
وأراقص ظلي كقرد سجين
وأمثّل دور المحب التعيس
ضاحكاً من جراحات قلبي الحزين ،

من هواي المضاع ،
من قلوب الجياع
حين تهوى ، ومن ذلة الكادحين .
سوف آكل حتى ينزّ الدمُ
من عيوني ... فما زال عندي فمُ :
كل ما عندنا نحن ، هذا الفمُ !
كان وهماً هوانا ، فان القلوب
والصبابات وقفٌ على الأغنياء !
لا عتابٌ ... فلو لم نكن أغبياء
ما رضينا بهذا ، ونحن الشعوب .

مرثية الآلهة

بلينا ومـــا تبلى النجوم الطوالعُ [1]
ويبقى اليتامى بعدنـــا والمصانـــعُ
ويبقى «كربُ» [2] الجالب الكربَ : كالصدى
يغصّ المنادي بالردى ، وهو راجـــعُ
كأنّ الأميبى [3] توأمٌ وهـــو توأمٌ
لهـــا ، فهو في منجىً من الموت قابعُ

---

(١) لم توضع الأبيات المضمنة بين أقواس ، وإنما اكتفيَ بالاشارة اليها .
(٢) كرب Krupp صاحب معامل الأسلحة الالمانية الشهيرة .
(٣) الاميبى حيوان ذو حجيرة واحدة ، وهو خالد لا يموت لانعـــدام شخصيته .

ولكنــــه الفرد الذي يزحف الورى
إلى حيث ترمي مقلتيــــه المطامــــعُ
أعنقــــاءُ من صحراء نجــــدٍ تقحّمت
بهــــا مغرب الشمس البعيد الزعازعُ
أم انسلّ من أهرام فرعون هاجــــعٌ
وقتْـه انتقاصَ الدود منه ، المباضعُ ؟
ومن ليس يحيــــا لن يرى وهو هالكٌ
فلو كان يحيا ما عدتــــه الفواجعُ
وما كان إلا اسماً « كربٌ » ابن مثــله
به يُدمغ اثنانــــِ : الورى والبضائعُ
ولكنــــه اسمٌ بالأساميّ يغتــــذي
تهجّــــاه زفّار اللّظى والمدافــــعُ
تمنّيتُ أني آلــــةٌ : لا يُصيبهــــا
كلالٌ ولا وقتٌ بهــــا مرّ ضائــــعُ
لهــــا من دماء الناس قوتٌ وخلفهــــا
من المال عن أن ينفد القوتَ مانعُ

وما تخطىء الآلات في الجمـــع تارةً
وفي الطـَّرح ، إن يخطىءْ من الناس جامعُ
ولا عاقبتهـــا عصبةٌ من ورائهـــا
علينـــا عقابٌ برِّئوا منـــه ، واقعُ
ألا كم رفعنـــا من إلهٍ وكم هـــوى
إلـــهٌ وأضحى ثالث وهو رابـــعُ
فمـــا جاوزتْنا صورةٌ منه خطَّهـــا
على غفـــلةٍ منـــا مُجيعٌ وجائعُ
وما كان معبوداً سوى مـــا نخافه
ونرجوه أو مـــا خيَّلته الطبائـــعُ
فتموز مثل اللَّاتِ ، والرعد ما رمى
بغـــير الذي تُطوى عليه الأضالـــعُ
وكم ألَّه التمرَ التهامـــيّ معشرٌ
لما ليس يحيـــا دونه الناس راكـــعُ
فلمّـــا شكا بعد الأثافيّ قدرهـــا
وضنَّت على الشِّدق الحفيّ المراضعْ

كفى كل ثغرٍ كان يدعوه جوعه
إلهٌ أحاطته المدى والأصابعُ

دمي هذه الخمر التي تشربونها
ولحمي هو الخبز الذي نال جائع

ولما تشظّى قلب نرسيس وانثنى
يلمّ الشظايا منه شارٍ وبائعُ

وغذّى بها القلب الذي حين ذاقها
نما فيه ناباً كوسجٍ فهو قاطعُ

هوى كلُّ عالٍ من إله وسافلٍ
إلى حيث ما من راحلٍ ثمّ راجعُ

وأفضى إلى العرس السديميّ معدنٌ
بما امتاحَ من أحداق « ميدوز » [1] لامعُ

هو الشمس إلاّ أنّ في زمهريره
من الموت ظلاً حجّبته البراقع

---

(١) ميدوز هولة في أساطير الاغريق تحيل من تلتقي عينه بعينها إلى صخر .

جزى أمّه الأرض التي من عروقهـا
ربا واغتذى في جوفهـا وهو هاجعُ
بشرّ الذي يُجزى بــه شرّ من عذا
وأروى ، ويجزاه العــدوُّ المنــازعُ
فأدمى بنيهـا وارتعى من بناتها
حقولاً ترجّى ، فهـي شوهٌ بلاقعُ
كقابيــل يغتــال الأشقـاء ، راكلٌ
– كأوديب – للخـبز الإلهي صافِـعُ
وهذا الإله الأملس الفظّ مـا جَلا
لنرسيس يجثو عنــده وهو خاشعُ
سوى وجــه نرسيس الرخامي ، شابه
شحوبٌ يهـوذيٌّ التلاوين ناقــعُ
وأوفى من الأرباب جيل يئمّــه
على قمّــة الأولمب ربٌّ مخادعُ

ترى « فحمَ » إذ يلقاه يَلقاه راجفـــاً
و « فولاذ » من تلماح عينيه مائعُ [1]

ويا عهد كنّا كابن حلاّج : واحـــداً
مع الله إن ضاع الورى فهـــو ضائع

أكلّ الرّجال الجوف أن يملأوا بـــه
خـــواء الحشا هـــذا الإله المضارعُ

فعادَ الفقـــير الرّوح من ليس كاسياً
به ظاهراً منّا ... فحلّ التنازعُ .

---

(١) جرّدت من الفحم والفولاذ شخصين لإلهين من الأرباب الجدد ، أتباع زيوس الجديد ـ الذهب ـ وعاملتهما كاسمي علم ، ومنعتهما من الصرف .

من رؤيا فوكاي

(فوكاي ، كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيما ،
جُن من هول ما شاهده غداة ضربت بالقنبلة الذرية).

١ – هياي .. كونغاي ، كونغاي[1]

ما زال ناقوس أبيكِ يُقلق المساءْ

---

(١) تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوساً ضخماً يصنع من الذهب ، والحديد ، والفضة ، والنحاس . وكلف أحد الحكام بصنعه . ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي – وهي ابنة ذلك الحاكم – العرافين بالأمر فأنبأوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء .. وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن .. فكان الناقوس .. وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق :
« هياي .. كونغاي ، كونغاي » .

بأفجع الرثاء :

« هياي .. كونغاي ، كونغايْ » .

فيفزع الصغارُ في الدروبْ

وتخفق القلوب

وتغلق الدُّور ببكّينَ وشنغهايْ

من رَجع : كونَغاي ، كونَغاي .!

فلتُحرقي وطفلكِ الوليد ،

ليجمعَ الحديد بالحديد

والفحمَ والنحاسَ بالنُّضار

والعالمَ القديمَ بالجديد

آلهة الحديدِ والنحاس والدّمار ،

أبوكِ رائدُ المحيطِ ، نامَ في القرار :

من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار (١) ...

---

(١) شكسبير – العاصفة : أغنية « أريل » – روح الهواء الذي سخره « بروسبيرو » الساحر – لفرديناند : « على عمق أذرعة خمس ينام أبوك في قرارة البحر ، لقد أصبحت عيناه لؤلوتين ... اسمع ها هو الناقوس ينعاه » وقد اتخذه ت . س . إليوت في قصيدته الكبرى « الأرض الخراب » رمزاً عن « الحياة من خلال الموت » ولكن لاحظ كيف حولت « يبيعه التجار » المعنى !

وحظكِ الدُّموع والمحار
وعاصف عاتٍ من الرصاص والحديد .
وذلك الجلجلُ المرنُّ من بعيد :
لمن ، لمن يدق : « كونَغاي ، كونَغاي » ؟
أهمَّ بالرَّحيلِ في « غرناطة » الغجرْ ؟
فاخضرَّت الرياحُ ، والغديرُ ، والقمرْ [1] ؟
أم سمَّر المسيحُ بالصليب فانتصرْ
وأنبتتْ دماؤه الورودَ في الصخَرْ ؟
أم أنها دماءُ كونَغاي ؟
ورغمَ أن العالمَ استسرّ واندثر[2] ،

(١) هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الاسباني القتيل لوركا . شاعر الغجر .

(٢) هذا البيت والأبيات الستة التي تليه - تكاد تكون حرفية - عن الشاعرة الانكليزية ايديث ستويل من قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البابيون - القردة - في قاع المحيط تهزّ مهد طفل بشري - قتل « طائر الحديد » أمه - وتغني له مصبحة بهذا - وهي القردة - أماً للطفل البشري ومعلمة له أيضاً .

وليلاحظ قراء قصيدتي هذه أن هناك شخوصاً ثلاثة تترابط في ذهني : الصياد الياباني - أو الصيني - الغريق الذي أخاطب ابنته ، وأبو «فرديناند» - الذي زعم اريل انه غرق - ، والقردة « البابيون » التي اتخذت مكان أم الطفل في قرارة المحيط ، كما جاء في قصيدة ايديث ستويل .

ما زال طائرُ الحديد يذرعُ السماء ،
وفي قرارة المحيطِ يعقد القرى
أهداب طفلكِ اليتيم – حيثُ لا غِناءْ
إلاّ صراخَ « البابيون » : « زادُكَ الثرى ،
فازحفْ على الأربع ... فالحضيض والعلاء
سيّان والحياة كالفناء ! »
سيّانِ « جنكيزُ » ، و « كونَغايْ »
هابيلُ قابيلُ ، وبابلٌ كشنغهاي ،
وليست الفضّة كالحديد !
هياي .. كونغاي ، كونغاي !
الصين حقلُ شايْ ،
وسوقُ شنغهاي
يعجُّ بالمزارعين قبلَ كلّ عيد .
هياي ... كونغاي . كونغاي !

٢ – تسديد الحساب

تلك الرواسي كم انحطَّ النهار على
أقصى ذُراها ، وكم مرَّت بها الظلَمُ
فما فرحنَ بآلافِ الشموسِ ، ولا
من ألــفِ نجمٍ تردى مسَّها ألم
صمَّاءُ ، بكماء ، لم تأخذ ، ولا وهبتْ
ولا ترصَّدهــا موت ولا هرم
لو أودع الله إياهــا أمانتــه
لنالهــنَّ على إستيداعهــا ندمُ
ولاقتسمنَ مع الأحياء مــا دفعت
من جزيةٍ لا تُوفّى حين تُقتسم :
عن كلِّ قهقهــةٍ من صرخةٍ ثمنٌ
ومــا استجدَّ دمٌ إلا وضاع دم
ومــا تحمَّل آلام المخاض ولم
يقرب من النور إلاَّ الفكرُ والرحمُ
وإن يكن أسعدَ الأحياء أكملها
فإنمــا هو أشقاهنَّ لا جَرَمُ ؟

« قابيلُ » باقٍ وان صارت حجارته
سَيفاً ، وإن عادَ ناراً سيفُه الخـــذم

وردّ « هابيلُ » ما قضاه بارئـــه
عن خـَلقهِ ، ثمّ ردّت باسمه الأمَـــمُ

واليومَ ، في حين وفـّى الدّينَ غارمه
إلا بقـــايا وكادت تخلص الذّمم

وكاد يُرجـــع للدنيـــا بشاشتها
ما قرّبتـــه الضحايا وهي تبتسمُ

مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه
من وحشها في المخاض الأولِ الضرمُ

خَلقٌ تراءى لـ « يحيى »[1]ساعة افترست
عينيه رؤيا لهـــا مِن هؤلاء فمُ

لو يُقبض النـــورُ بالأيدي لسوّره
دونَ الورى .. ولتعمّ العـــالم الظلّم

ريّانُ عطشانُ لا يروى ، بلا فرحٍ
جذلانُ ، بادٍ عليه الجوع والبشمُ

(١) القديس يوحنا – كما يسميه المسيحيون .

كأنه – وهو ماض في غوايته –
من نفسه اقتصّ ، فهو الماءُ والحممُ
تفجر الضّحِكُ المسلوبُ من رئةٍ
منخوبةٍ بعد أخرى هدها السقم
عن ضحكة أطلقوها فهي صاعقةٌ
أصابهم والورى من رجعها صمم
واستنزفوا متعةَ الأحياء : ما دفعوا
عنها ، ولا غارماً ما استنزفوا رحموا
ثم استزادوا .. فإن لم يذهبوا ديةً
أو يقصروا عن طماحٍ يرجحِ العدمُ !

٣ – حقائق كالخيال (١)

ماذا تريد العيون السود من رجلٍ
قد حاش زهر الخطايا حين لاقاها

(١) المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب لأحمر في هيروشيما ، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل أشياء لا وجود لها ، ولكنه – خلال أوهامه ودون وعي منه – يصور جانباً مما حدث في هيروشيما حين القيت عليها القنبلة .

زهراً على جسمي المحمومِ أقطفه
في باقةٍ من جراحٍ بتُّ أصلاها :
هذا الربيع الذي تهـدي شقائقه
ريحَ المنـايا إلى قلبي بريـّاها .

أزهار تموز[1] ما أرعى : أسلـّمه
في عتمةِ العـالم السُّفليِّ اياها ؟
أم صِلّ حوّاء بالتفـّـاح كافأني
وهو الذي أمسِ بالتفاح أغواها ؟

ماذا تريد العيون السود ؟ إن لها
ما لستُ أنساه منها حين أنساها
ما بالهن استعَضنَ البوم أوعيةً
عن أوجه الغيد .. حتى ضاع معناها
أين المناقـير من لعس مراشفها
ربـّي ؟ وأين ابتسام كان يغشـاها

(١) تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء ، وحبيب عشتروت – أو فينوس – إلهة الحب . وهو يقضي نصفاً من السنة – الشتاء – في العالم السفلي مع برسفون، والنصف الآخر – الصيف أو الربيع – على الأرض مع فينوس.

من هذه الخربةِ الظلماء محدقة
بي أعينَ البومِ من أجداثِ موتاها ؟
قفراءُ من غيرِ ثكلى شفّ مئزرها
عن وهج فانوسها الكابي وأخفاها
تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعته[1]
طفلٌ ، وطارت وقد ألوى جناحاها
محنيّة تتقرّى كل شاهدة
من كل قبرٍ ، كما لو كان طفلاها
في كلّ قبرٍ يذوقان الردى : دية
عمّن يؤاوي وعن أحياء دنياها
نادتهما فانبرى يزقو لصيحتها
— من حيث ردّ الصدى — بومٌ وناداها :
« أمّاه إنا هنا . ريحٌ بنا عصفت
لم ندر أين انهينا بعد لقياها »
وانشقّ من خلفها قبرٌ ليبلعها
واحتازها واشرأبّت منه كفّاها

(١) اليراعة : ذبابة مضيئة ، حباحب .

يختضّ فانوسها التّمتامُ بينها
والريحُ خرســاء تعبى ...
غيرَ « ها . ها .. ها .. »

ويُلمّ سازاك[1] كيف اندك حائطه
حتى تعرى ليَ السهلُ الذي حجبا ؟
سهلٌ يكنّ الصلال الرّقْط ، أجهضه
عــادٍ من المحل حتى يفزع العطبا
وانبحّت التربةُ العجفاء — من عطش —
عن أشدُقٍ فاغراتٍ تنبح السحبــا
والشمس كالأطلس[2] المسعور تنهشه
والريحُ تصليه من تنورهــا لهبا

(١) الدكتور سازاكي كان طبيباً في مستشفى الصليب الأحمر في مدينة هيروشيما .
(٢) الأطلس : الذئب .

الريح ؟ لا ليست الريح التي ركضت
بيضاء سوداء رقطاء القفــا عجبا
عنقاء [1] في مِسعر الجوزاء أعينُهــا
والصخر يرفضّ من أظلافهــا شهبا
تلك الزرافات [2] في السهل العقيم لهــا
مرعى روًى من سرابٍ ، ينبت السّغبا
ما روّعتهــا سوى ضوضاء خشخشة
في كفّ أبرص يعدو خلفهــا خببا
تخفيه عنهــا ضماداتٌ ، ويظهره
ما نزّ من قيحه الدامي ومــا شخَبا
نادى ، وكفّاه تختضّان ، « واحربًا »
فاستعبر العاصف المصدور « واحربا » .
« ماء اسْقِ يا ماء .. » تلهاثٌ مقاطعه
منزوعــة من لسان يشبه الخشَبا

(١) عنقاء طويلة العنق .
(٢) الزرافات جمع زرافة ، الحيوان المعروف .

حتى استجاب السحاب الجوْن فانعقدت
في الجوّ حبّاتـــه الغبراء فاحتجبا
وانهلَّ : لا عن ندىًّ صافٍ ولا مطر
بل عنْ دم ، من ثُديٍّ مزّقت حُلبـــا
أو عن مشاش من الاحداق فقّأهـــا
سيخٌ لجنكيزَ [1] دامٍ ينفث اللهبـا
« ماء، اسق ياماء.. » والغيث الرهيب كلىٌّ
مَفرية سحّت الآجـــال والكربا
لم يبقَ من مرتوٍ أو ظامىء ، بفمٍ
أو دونَ .. ، إلا ومن ماء الردى شربا

ويـــلٌ لسازاك ! ماذا ينْتوي بدمي
من نيّةٍ .. فهو يستصفي ويمتـــار ؟
تلك الزجاجات أشـــلاء مجزأة
مني ، دمي مخـــترٍ فيهنّ موّار !

---

(١) جنكيزخان السفاح المشهور .

لم تثن سازاك عن شحذٍ لمديتــه
آهات مرضى ، ولا ألهــاه زوار

إني لدارٍ بأني حين يشرعهـا
رانٍ إليهـــا ، فملدوغٌ ، فمُنْهار

هـــل تبتغي شفرتاها غـــير آنيةٍ
فيها دمي راجفٌ ، والداء والعار ؟

ما كنت يوماً ولا المرضى سوى عَرضٍ
- في عين سازاك - يُجبى منه إيجار

ست وعشرون : أعـدادٌ على سررٍ
أمـــا الأصحاء والمرضى فأصفار !

فالرقم « عشرونَ » لا يسقى سوى لبنٍ
والرقم « عشرٌ » نعاه اليومَ بحرارُ

واليوم لم يبقَ مـــا اعطيه عن مرضٍ
إلا دعائي وقولي « نِعمتِ الدارُ » !

فليلْقَ سازاكُ من يسمى « ثمانية »
غيري ، ويستوفِ أجرَ القبر حفارُ !

قافلة الضياع

أرأيت قافلة الضّياع ؟ أما رأيت النازحين ؟
ألحاملين على الكواهل ، من مجاعات السنين
آثامَ كل الخاطئين
ألنازفين بلا دماءْ
ألسائرين إلى وراءْ
كي يدفنوا « هابيل » وهو على الصليب ركام طين ؟
« قابيل ، أين أخوك ؟ أين أخوك ؟ »
جمّعت السماءْ
آمادَها لتصيح . كوّرت النجوم إلى نداءْ :
« قابيل ، أين أخوك ؟ »
— « يرقد في خيام اللاجئين

السلّ يُوهن ساعديه ، وجئته أنا بالدواءْ
والجوع لعنة آدم الأولى وإرثُ الهالكين
ساواه والحيوان ثم رماه أسفل سافلين
ورفعته أنا بالرغيف ، من الحضيض إلى العلاءْ » .
أالليل يُجهض ، والسفائن مثقلات بالغزاه :
بالفاتحين من اليهود
يلقين في حيفا مراسيهنّ — كابوس تراه
تحت التراب محاجر الموتى فتجحظ في اللحود .
أالليل يجهض فالصباح من الحرائق .. في ضحاه
أالليل يجهض فالحياه
شيء ترجّح لا يموت ولا يعيش بلا حدودْ
شيء تفتّح جانباه على المقابر والمهود
شيء يقول « هنا الحدود !
هذا لكل اللاجئين ، وكل هذا .. لليهودْ ! »

ألنار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب

في كل منعطف تصيح : « أنا النضار ، أنا النضار »
من كل سنبلة تصيح ومن نوافذ كل دارْ :
« أنا عجل « سيناء » الإله ، أنا الضمير ، أنا الشعوب
أنا النضار ! »
ألنار تتبعنا ، كأنّ مدى اللصوص وكل قطّاع الطريقْ
يلهثن فيها بالوباء ، كأن ألسنة الكلاب
تلتزّ منها كالمبارد وهي تحفر في جدار النور بابْ
تتصبّب الظلماء كالطوفان منه ؛ فلا ترابْ
لِيُعاد منه الخلق ، وانجرف المسيح مع العبابْ
كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيقِ
يسدّ ما حفرته ألسنة الكلاب
فاجتاحه الطوفان : حتى ليس ينزف منه جنب أو جبين
إلا دجىً كالطين تبنى منه دور اللاجئين .
ألنار تركض كالخيول وراءنا . أهمُ المغولُ
على ظهور الصافنات ؟ وهل سألت الغابرينَ
أروّضوا أمس الخيول ؟

أم نحن بدء الناس : كل تراثنا أنصاب طينْ .

ألنار تصهل من ورائي والقذائف لا تنامُ
عيونـُها وأبي على ظهري ، وفي رحمي جنينْ
عريان دون فمٍ ولا بصرٍ تكوّر في الظلامْ
في بركة الدم وهو يفرك أنفه بيدٍ . وكالجرس الصغيرِ
يرن ملء دمي صداه – تكاد تومض كل روحي بالسلام
حتى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير
عريان دون فم كأفقر ما يكون : بلا عظامْ
وبلا أب ، وبدون حيفا دون ذكرى – كالظلام ا
أسريت أعبر ، تحت أجنحة الحديد به الزمانِ
من الحقول إلى المراعي فالكهوف
والأرض تطمس من وراء ظهورنا ، كالأبجديه
ألدور فيها والدوالي شاخصات كالحروف
فكأن أمسٍ غدٌ يلوح وليس بينهما مكانْ .
لم يخرجونا من قرانا وحدهنّ ولا من المدن الرخيّه :

لكنهم قد أخرجونا من صعيد الآدميّه !
فاليوم تمتلىء الكهوف بنا ونعوي جائعين
ونموت فيها لا نخلّف للصغار على الصخورِ
سوى هباب ما نقشنا فيه من أسدٍ طعين !
ونموت فيها لا نخلّف بعدنا حتى قبور
ماذا نخطّ على شواهدها ؟ . أ . . « كانوا لاجئين » ؟
أليوم تمتلىء الكهوف بنا : تظلل بالخيامِ
وبالصفيح ، وقد تغلفهنّ بالآجرّ دور
والنور كالتابوت فيها ، ليس فيه سوى ظلامْ .

بين الكهوف وبين حيفا من ظلامٍ ألف عام أو يزيدْ
بين الكهوف وبين أمس هناك بئر لا قرارَ
لها ، كهاوية الجحيم تلزّ فاها دون نارْ
تتعلّق الأحداث فيها كالجلامد في جدارْ
لحداً على لحدٍ ، أزيح الطين عنها والحجارْ
من يدفنَ الموتى وقد كشفوا وماتوا من جديدْ ؟
من يدفن الموتى

ليولد ، تحت صخرة كل شاهدة ، وليدْ ؟
من يدفن الموتى لئلا يُزحموا باب الحياةِ
على أكفِّ القابلاتْ ؟
من يدفن الموتى لنعرف أننا بشر جديدْ !
في كل شهرٍ من شهور الجوع يومىء يوم عيدْ
فنخفّ نحمل من « تذاكرنا » صليب اللاجئين :
– « يا مكتباً للغوث في سيناء هبْ للتائهين
منّاً وسلوى من شعيرٍ ، والمشيمةَ للجنين
واجعل له المطّاط سرّه
وارزقه ثدياً من زجاجٍ واحشُ بالإدريج صدره . »

وبأيما لغة نقول فيستجيب الآخرون
ونورث الدم للصغار ؟
أعلمتَ – حين نقول : دار أو سماء – أيّ دارٍ
أو سماء تخطران على العيون ؟
هيهات ، ليس للاجئين واللاجئات من قرار
أو ديار ،

إلا مرابع كان فيها أمس معنى أن نكون
سنظل نضرب كالمجوس نجسّ ميلاد النهار !
كم ليلةٍ ظلماء كالرّحم انتظرنا في دجاها
نتلمس الدم في جوانبها ونعصر من قواها
شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاح نار
حتى حسبنا أن باب الصبح يفرج – ثم غارَ
وغادر الحرسُ الحدود .
واختصّ رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار ،
ثم اضمحلّ الى غبار بين أحذية الجنود .
ألليل أجهض : ناره الحمّى وديمته انتحاب الضائعين
ألليل أجهض : ليس فيه سوى مجوس اللاجئين .

ألنار تركض كالخيول وراءنا . أمُ المغولُ
على ظهور الصافنات ؟ وهل سألتَ الغابرينَ
أروّضوا أمسِ الخيول ؟
أم نحن بدء الناس : كل تراثنا أنصاب طين ؟

يوم الطغاة الأخير

(أغنية ثائر عربي من تونس لرفيقته)

— « إلى الملتقى ... » ، وانطوى الموعدُ
وظلّ الغدُ :
غد الثائرين القريبْ .
يداً بيدٍ من غمار اللهيب
سنرقى إلى القمة العاليه
وشعرك حقلٌ حباه المغيب
أزاهيره القانيه .

نرى الشمس تنأى وراء التلالْ

وبين الظلال

وقد يرفّ ، مثل الجناح الكسير –
على كومةٍ من حطام القيود
على عالم بائدٍ لن يعود –
سناها الأخير .

تقولين لي : « هل رأيت النجوم ؟
أأبصرتها قبل هذا المساء
لها مثل هذا السّنا والنّقاء ؟ »
تقولين لي : « هل رأيتَ النجوم
وكم أشرقت قبل هذا المساء
على عالم لطّخته الدماء :
دماء المساكين والأبرياء ! »
تقولين لي : « هل رأيت النجوم
تُطلّ على أرضنا وهي حرّه
لأول مرّه ؟ »
نعم . أمس حين التفتّ إليكِ

تراءينَ كالهجس في مقلتيكِ .

وإذ يستضيء المدى بالحريق
فيندكّ سجن ويُجلى طريقْ
ويُذكي بأطيافه الدافئه
محيّاكِ باللهفة الهانئه ؟
تقولين « نحن ابتداء الطريق –
ونحن الذين اعتصرنا الحياه :
من الصّخر تدمى عليه الجباه
ويمتصّ ريّ الشفاه ،
من الموت في موحشات السّجونِ ؛
من البؤس ، من خاويات البطون ؛
لأجيالها الآتيه .
لنا الكوكب الطالعُ
وصبح الغد الساطعُ
وآصاله الزاهيه ! »

الى جميلة بو حيرد

لا تسمعيها .. إنّ أصواتنا
تخزى بها الريحُ التي تنقلُ ،
بابٌ علينا من دمٍ ُمقْفَلُ
ونحن في ظلمائنا نسأل :
« من مات ؟ من يبكيه ؟ من ُيقتلُ ؟
من يصلب الخبز الذي نأكلُ ؟
نخشى إذا واريتِ أمواتنا
أن يفزعَ الأحياءَ ما ُيبصرونْ ،
إذ ُيقفر الكهف الذي يأهلون ؛
إن عربد الوحشُ الذي يطعمون

من أكبُد الموتى ، فمن يبذلُ ؟

يا أختنا المشبوحةَ الباكيه ،
أطرافُك الداميه
يقطرْن في قلبي ويبكين فيه .
يا من حملتِ الموتَ عن رافعيه
من ظلمة الطين التي تحتويه
إلى سماوات الدم الواريه ،
حيث التقى الإنسان والله، والأموات والأحياء في شهقةٍ،
في رعشةٍ للضربة القاضيه .
الأرضُ ، أمُّ الزهر والماء والأسماك والحيوان والسنبلِ ،
لم تبلُ في إرهاصها الأولِ
من خضّة الميلاد ما تحملينْ :
ترتجُّ قيعان المحيطات من أعماقها ، ينسحُّ فيها حنين ،
والصخر منشدٌّ بأعصابه — حتى يراها — في انتظار الجنين.
الأرض ؟ أم أنت التي تصرخين ؟

في صمتك المكتظِّ بالآخرين ؟

في ذلك الموت، المخاض، الحب، المبغض، المنفتح، المقفلِ.

ونحن ؟ أم أنت التي تولدين ؟

أسخى من الميلاد ما تبذلين ،

والموت، أقسى منه، من كل ما عاناه أجيالٌ من الهالكين،

أنَّ الذي من دونه الجُلْجله

والسوطَ والسجّانَ والمقصله ،

أنَّ الذي يفديكِ أو تفتدين ،

غيرُ الذي آذه بالنار أو بالعار والماء الذي تشربين :

عبءٌ من الآجال ما أثقله !

كم حاول الجلاد أن ينزله ،

كم ودَّ أن تُلقيه إذ تعجزين .

مشبوحةَ الأطراف فوق الصليبْ ،

مشبوحة العينين عبر الظلام ،

يأتيك من وهرانَ — يا للزحام ! —

حَشْدٌ مُشع باشتعال المغيب ،

يأتيك كلُّ الناس ، كل الأنام ،
يرجون ، مما تبذلين ، الطعام
والأمنَ والنعماء والعافيه .
وأنتِ مثلُ الدوحةِ العاريه ،
لم يُبقِ منك البغيُ إلا الجذور
الموتُ واهٍ دونها ، والنشورُ
فيها وتجري دونكِ الساقيه .
ما شبَّ في وهرانَ من بُرعُمِ
أو أزهرت في أطلسٍ عوسَجه ،
إلا ودبّت في مسيل الدمِ
غمغمةٌ منعشةٌ مبهجه
توحي بأن الأرض ظلت تدور
طاحونةً للقاتل المجرمِ
تسحق منه واهنَ الأعظُمِ ،
وأنَّ ألوانَ الأذى والعذاب
ذُخرٌ لنا ، نجلوه يومَ الحساب

نسقي به الباغين ، نُروي التراب
من لَفْحِهِ – أنَّ الهوى والشباب
لم يذهبا – أن البعاد اقتراب –
أن من الدمع الذي تسكبين
أسلحةً في أذرع الثائرين .
جاء زمانٌ كان فيه البشرْ
يفدون من أبنائهم للحجر :
« يا ربّ عطشى نحن . هات المطر !
روِّ العطاشى منه . روِّ الشَّجَرْ » .
وجاء حينٌ عاد فيه البشر
يفدون بالأنعام ما تحبس السماء في أعماقها من قدر .
وجاء عصرٌ سار فيه الإله
عريانَ ، يدمى ، كي يروّي الحياه .
واليوم ولـّى محفلُ الآلهه ،
اليوم يفدي ثائر بالدماءْ
الشيبَ والشبانَ ، يفدي النساء ،

يفدي زروع الحقل ، يفدي النماء ،
يفدي دموع الأيِّم الوالهه .
بالأمس دوّى في ثرى يثربِ
صوتٌ قويٌّ من فقيرٍ نبي ،
ألوى ببغي الصَّخْر . لم يضربِ
وحطّم التيجانَ . أيُّ انطلاقْ
في مصرَ ، في سوريّةٍ ، في العراق ،
في أرضكِ الخضراء . كان انعتاق !
بالأمس وارى قومك الآلهه .
عشتار، أمُّ الخِصْب،والحب،والإحسان، تلك الربّة الوالهه
لم تُعطِ ماأعطيتِ،لم تُروِ بالأمطارِ ماروّيتِ :قلبَ الفقير ،
لم يعرف الحقد الذي يعرفونْ
والحسَدَ الآكلَ حتى العيون .
نحن بنو الفقر الذي يزعمون
في كل عصر أنهم وارثوه .
قابيل فينا ما تهاوى أخوه

من ضربة الحقد التي يضربون .
يوم ابتدأنا كان عبءُ السماء
ملقىً على أطلسٍ ،
يزحمه بالمنكب الأملسِ .
ثم ارتقى «إيفل»[1] ، تمّ البناء
فانحطّ ذاك العبءُ حيناً عليه ،
ثم انطلقنا نحن من جانبيه
حتى حملنا عبئها ، كلّ ما فيها من الأبراج والأنجمِ ،
يا أختنا المشبوحة الباكيه ،
أطرافك الداميه
يقطرن في قلبي ويبكين فيه .
لم يلقَ ما تلقين أنتِ المسيحُ —
أنتِ التي تفدين جُرحَ الجريح
أنت التي تُعطين .. لا قبضَ ريح ،
يا أُختنا ، يا أُمّ أطفالنا

---

(١) برج إيفل في باريس .

يا سقفَ أعمالنا

يا ذروة تعلو لأبطالنا .

ما حزّ سوط البغي في ساعديْك

إلا ، وفي غيبوبة الأنبياءْ ،

أحسستِ أنّ السوط ، أن الدماء ،

أنّ الدجى ، أن الضحايا .. هباء

من أجل طفل ضاحكته السماء

فرحانَ في أرضه

وبعضُه فرحانُ من بعضِه ،

أحسستِه يحبو على راحتيْك ،

سمعتِه يضحك في مسمعيْك ،

يهتف : « يا جميله

يا أختيَ النبيله ،

يا أختيَ القتيلة ،

لك الغد الزاهي كما تشتهينْ »

وأنت إذ أحسستِ ، إذ تسمعين ،

تعلو بك الآلام فوق التراب
فوق الذرى ، فوق انعقاد السحاب ،
تعلين حتى محفل الآلهه
كالربّة الوالهه ،
كالنسمةِ التائهه .

لا تسمعيها .. إنّ أصواتنا
تخزى بها الريحُ التي تنقلُ ،
بابٌ علينا ، من دمٍ ، مقفلُ
ونحن نُحصي ، ثَمّ ، أمواتنا .
اللهَ لولا أنت يا فاديه
ما أثمرت أغصانُنا العاريه
أو زنبقت أشعارنا القافيه .
إنّا هنا .. في هوةٍ داجيه
ما طاف لولا مقلتاكِ الشعاع
يوماً بها . نحن العراة الجياع ؛

لا تسمعي ما لفّقوا ، ما يُذاع ،
ما زيّنوا ، ما خطّ ذاك اليراع .
إنّا هنا كومٌ من الأعظمِ
لم يبق فينا من مسيل الدمِ
شيء نرويّ منه قلبَ الحياة .
إنّا هو موتى ، حفاة ، عراة .
لا تسمعيها ، ان أصواتنا
تخزى بها الريحُ التي تنقلُ ،
بابٌ علينا ، من دمٍ ، مقفلُ
ونحن في ظلمائنا نسأل :
« من مات ؟ من يبكيه ؟ من يُقتَلُ ؟ »
يا نفحةً من عالم الآلهه
هبّت على أقدامنا التائهه ،
لا تمسحيها من شواظ الدماء ،
إنا سنمضي في طريق الفناء ؛
ولترفعي « اوراسَ » حتى السماء

حتى تروّى من مسيلِ الدماء
أعراقُ كلّ الناس ، كلّ الصخور ،
حتى نمسّ اللهَ .

حتى نثور !

رسالة من مقبرة

« الى المجاهدين الجزائريين »

من قاع قبري أصيحْ
حتى تئنّ القبورْ
من رَجع صوتي ، وهو رملٌ وريح :
من عالمٍ في حفرتي يستريح ،
مركومةٌ في جانبيه القصورْ ،
وفيه ما في سواه
إلاّ دبيبَ الحياه ،
حتى الأغاني فيه ، حتى الزُّهور
والشمسُ ، إلاّ أنها لا تدور

والدُّود نخَّارٌ بها في ضريح .
من عالمٍ في قاع قبري أصيح :
« لا تيأسوا من موْلدٍ او نشور ! »

النور من طينٍ هنا أو زجاجْ ،
قُفلٌ على باب سورْ .
النور في قبري دجىً دون نور .
النور في شُبّاك داري زجاج ،
كم حدّقتْ بيَ خلفه من عيونْ
سوداءَ كالعارِ
يجرحن بالأهداب أسراري
فاليوم داري لم تعدْ داري
والنور في شبّاك داري ظنونْ
تمتصُّ أغواري .
وعند بابي يصرخ الجائعون :
« في خُبزِكَ اليوميّ دفءُ الدّماء

فاملأ لنا ، في كل يومٍ ، وعاء
من لحمك الحيّ الذي نشتهيه ،
فنكهةُ الشمس فيه
وفيه طعم الهواء ! »
وعند بابي يصرخ الأشقياءْ :
« أُعصرْ لنا من مقلتيكَ الضياء
فأننا مُظلمون ! »
وعند بابي يصرخ المخبرون :
« وَعرٌ هو المرقى إلى الجلجلة [1] ،
والصخرُ ، يا سيزيفُ ، ما أثقله .
سيزيف ... إنّ الصخرةَ الآخرون ! »

لكنْ أصواتاً كقرع الطبولْ
تنهــــلُّ في رمسي
من عالم الشمسِ

(١) الجلجلة الجبل الذي حمل المسيح صليبه الى قمته .

هذي ُخطى الأحياء بين الحقول
في جانب القبر الذي نحن فيه .
أصداؤها الخضراء
تنهلُّ في داري
أوراقَ أزهارِ
من عالم الشمس الذي نشتهيه .
أصداؤها البيضاء
يَصدعنَ من حولي جليدَ الهواء
أصداؤها الحمراء
تنهلُّ في داري
شلالَ أنوارِ ،
فالنور في شبّاكِ داري دماء
ينضَحنَ من حيث التقى ، بالصخور
في ُفوهةِ القَبر المغطّاةِ ، سور .
هذا مخاضُ الأرض لا تيأسي ؛
ُبشراكِ يا اجداث ، حانَ النشورْ !

بشراكِ .. في « وهران » أصداءُ صوْر .
سيزيفُ ألقى عنه عبء الدُّهور
واستقبلَ الشمسَ على « الأطلسِ » !

آهٍ لوهرانَ التي لا تثور !

في المغرب العربي

قرأتُ اسمي على صخره
هنا ، في وحشة الصحراءْ ،
على آجرّةٍ حمراء ،
على قبرٍ . فكيف يحسُّ إنسانٌ يرى قبره ؟
يراه وإنه ليحارُ فيه :
أحيٌّ هو أم ميتٌ ؟ فما يكفيه
أن يرى ظلًّا له على الرمالْ ،
كمئذنةٍ مُعفّرةٍ
كمقبرةٍ
كمجدٍ زالْ

كمئذنةٍ تردَّد فوقها اسمُ الله
وخُطَّ اسمٌ له فيها ،
وكانَ محمدٌ نقشاً على آجرّةٍ خضراءْ
يزهو في أعاليها ...
فأمسى تأكل الغبراء
والنيرانُ ، من معناه ،
ويركله الغزاة بلا حذاء
بلا قدمِ
وتنزف منه ، دونَ دمٍ ،
جراحٌ دونما ألمِ —
فقد ماتْ ...
ومتنا فيه ، من موتى ومن أحياء .
فنحن جميعنا أموات
أنا ومحمد والله .
وهذا قبرنا : أنقاض مئذنة معفّرةٍ
عليها يُكتبُ اسم محمدٍ والله ،

على كِسرةٍ مبعثرةٍ
من الآجرّ والفخّار .
فيا قبر الإله ، على النهار
ظلٌّ لألف حربةٍ وفيلْ
ولونُ أبرهَه
وما عكسته منه يدُ الدليل
والكعبة المحزونة المشوّهه .
قرأت اسمي على صخره ،
على قبرين بينهما مدى أجيالْ
يجمل هذه الحفره
تضمّ اثنين : جد أبي – ومحضُ رمالْ
ومحضُ نثارة سوداء منه ، استنزلا قبره –
وإياي ، ابنَه في موته والمضغةِ الصلصال .

وكان يطوف من جدّي
مع المدّ

هتافٌ يملأ الشطآنَ : يا وديانَنا ثوري !
ويا هذا الدمُ الباقي على الأجيالْ
يا إرثَ الجماهيرِ ،
تشظَّ الآن واسحقْ هذه الأغلالْ
وكالزلزال
هُزَّ النيرَ ، أو فاسحقه واسحقنا مع النيرِ . »
وكان إلهنا يختالْ
بين عصائب الأبطال ،
من زندٍ إلى زندِ
ومن بنـْدٍ إلى بندِ

إلهُ الكعبة الجبّارْ ،
تدرَّعَ أمسِ في ذي قار
بدرعٍ من دم النعمان في حافاتها آثارْ .
إله محمد وإله آبائي من العربِ ،
تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار ،

وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار .
وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحبِ :
جريحاً كان في احيائنا يمشي ويستجدي ،
فلم نضمدْ له جرحاً
ولا ضحَّى
له منا بغير الخبز والانعام من عبْدِ !

وأصوات المصلين ارتعاشٌ من مراثيهِ
إذا سجدوا ينزُّ دمُ
فيسرع بالضماد فمُ :
بآياتٍ يغضّ الجرح منها خير ما فيهِ ،
تداوي خوفنا من علمنا أنا سنحييه
إذا ما هلل الثوار منا : « نحن نفديه ! »

أغار ، من الظلام على قرانا
فأحرقهنَّ ، سربٌ من جرادِ

كأن مياه دجلة ، حيث ولّى ،
تمّ عليه بالدم والمدادِ .
أليس هو الذي فجأ الحُبالى
قضاه ، فما ولدْنَ سوى رمادِ ؟
وأنعل ، بالأهلة في بقايا
مآذنها ، سنابك من جوادِ ؟
وجاء الشام يسحب في ثراها
خُطى أسدين جاعا في الفؤادِ ؟
فأطعم أجوع الأسدين عيسى
وبلّ صداه من ماء العمادِ
وعضّ نبيّ مكة .. فالصحارى
كل الشرق ينفرُ للجهادِ ؟

أعاد اليوم ، كي يقتصّ من أنّا دحرناهُ ؟
وإن الله باقٍ في قرانا ، ما قتلناه ؟
ولا من جوعنا يوماً أكلناه ؟

ولا بالمال بعناهُ —

كما باعوا

إلههُم الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه ؟

كما أكلوه إذ جاعوا —

إلهمُ الذي من خبزنا الدامي جبلناهُ ؟

وفي باريس تتخذ البغايا

وسائدهنّ من ألم المسيحِ

وبات العقمُ يزرع في حشاها

فم التنّين : يشهق بالفحيحِ

ويقذف من حديدٍ في حمانا

جحافل كالفوارس ، دون روحِ

تجدّ وراء مكة في الصياصي

أقمناها ، ويثرب في السفوحِ

قرأت اسمي على صخره ..

وبين اسمين في الصحراءْ

تنفس عالمُ الأحياء
كما يجري دمُ الأعراق بين النبض والنبض
ومن آجرّةٍ حمراء ماثلة على حُفره
أضاء ملامح الأرضِ
بلا ومض
دمٌ فيها ، فسمّاها
لتأخذ منه معناها
لأعرف أنها أرضي
لأعرف أنها بعضي
لأعرف انها ماضيّ ، لا أحياه لولاها
وأني ميّت لولاه ، أمشي بين موتاها .
أذاك الصاخب المكتظّ بالرايات وادينا ؟
أهذا لونُ ماضينا
تضوّأ من كوى « الحمراءْ »
ومن آجرّةٍ خضراء
عليها تكتب اسمَ الله بقيا من دمٍ فينا ؟

أنبرٌ من أذان الفجر ؟ أم تكبيرة الثوار
تعلو من صياصينا ..؟
تمخّضت القبور لتنشرَ الموتى ملايينا
وهبّ محمدٌ وإلهه العربيّ والأنصار :
إن إلهنا فينا

مرثية جيكور

يا صليب المسيـــح ألقاكَ ظلا

فوق « جيكور »[1] طائر من حديد

يا لظلٍّ كظلمة القبر في اللون ، وكالقبر في ابتلاع الخدود

والتهامِ العيون من كل عذراءَ كعذراءِ « بيت لحم » الولود .

مرّ عجلان بالقبور العواري من صليبٍ على النصارى شهيد

فاكتست منه بالصليب الذي ما كان إلا رمز الهلاك الأبيد :

لا رجاءٌ لهـــا بأن يُبعث الموتى ولا مأمل لها بالخلود !

ويلَ جيكور ؟ أين أيامها الخضرُ وليلاتُ صيفها المفقود ؟

---

(١) جيكور ، قرية الشاعر في جنوب البصرة .

والعشاءُ السخيّ في ليـــلة العرس وتقبيلة العروس الودود
وانتظـارٌ له على الباب ؟ .

— « محمود ، تأخرت يا أبا محمودِ
نادِ محمود ! »

ثم يوفي على الجمـــعِ بمنديل عرسه المعقود
نقطتْه الدماء يشهدنَ للخدر بعذراء ، يا لها من شهود[1]
لا على العقم والردّى ،بل على الميلاد والبعث والشباب الجديد !
أيّ صوت يصيح: «محمود، محمود تأخرتَ !» كالنواح البعيد؟
أين محمود ؟ ليس محمود في الدار ولا الحقل !
يا أبا محمودِ
نادِ محمود. كاد أن يهتف الديكُ وما زال جمعنا في الوصيد
قل له يُبرز الدماءَ فانـّا في انتظار لها وشوق مبيد !
ذر نجمُ الصباح . محمود ، محمود ، أأقبلت بالدم المنشود ؟
أي جرح ينزّ منه الدم الموّار في باب داركَ المرصود ؟
إنه منك! منك هذا الدم الثرّ ومن جانب العروس القديد!

(١) من التقاليد المتبعة في الريف العراقي أن يبرز العريس في ليلة العرس منديلاً ملطخاً بالدماء يشهد على أن العروس عذراء !

الصليبُ، الصليبُ! إنّا رأيناه وقد مرّ كالخيال الشّرود،
قد رأيناه في الصباح. وفي الليل سمعنا كقعقعات الرعود.
أهو هذا الذي يريدون ؟ أشلاءٌ وأنقاضَ منزل مهدود ؟
أفما قامت الحضارات في الأرض كعنقاءَ من رماد اللحود؟
لا ولم تُفرخ العقولُ على المجهول يسبرْنَ فيه غورَ الوجود!
أو يشقُّ العُبابَ قلعٌ يصكُّ الريحَ صكاً إلى البعيد البعيد؟
أو يلمّ النسيمَ عقداً من النور ويذروه باقـــة من ورود
ساحرٌ فجّر المدى عن مدى ملآنَ باللحن مُترعٍ بالنشيد؟
أو تدقّ الأجراس: «يا أرضُ، يابشراكِ بالحبّ والمسيح الوليد»؟
لا ولم يُختم الزجاج على كل «هِرقَلٍ»(1) من العقار الأكيد
يخنق الموتَ كلما همّ بالناس ويجتاح كامرات الأسود ؟
لا ولا قيسَ بعدما لفّه الليل من الأرض واحتوى من حدود
بالذي قاس حافةَ الساعةِ القوراء في قرصها ذراعا حديد؟
أو يفضّ الظلام؟ — الا لكي تندكّ «جيكور» بالسلاح الجديد؟
كي يراها على اتساع المدى والشأوِ من ليس طرفه بالحديد؟

(1) هرقل الجبار ، خنق الموت وذلل الأسود الكاسرة .

من وراء المحيط والليل والغابات والبيد والذرى والسدود!
أين من شال «جين» أطمار «كلثوم»؟ وأن الغضا من ألاميزكيد؟
فيمَ أسرى صحاب «جين» المغاوير إلى زوج «كلثم» المنبكود؟
يا رماداً تذرّه الزعزع الشعثاء في مقلة القمير الوحيد،
أنت «جيكور» كل جيكور: أحداق العذارى وباسلات الزنود
والرؤوس التي حثا فوقهنّ الدهر ما في رحاه من تنكيد:
صرّد القمح من نثار لها اللون، ولم تحظَ بالرغيف الوئيد
فهي صحراء تزفر الملح آهات وشكوى، لمائها الموؤود!

خورس[1]:

شيخ اسمُ الله .. ترللا

قد شابَ ترلّ ترلّ ترارِ ... وما هلاّ

ترلل .. العيد ترللا

ترللا . عرّس «حمادي»،

زغردن ترلّ ترلّلا

(١) يغني الخورس اغنيتين عراقيتين شعبيتين: (شيخ اسم الله) نبات كالحلفاء تؤكل أزهاره وهي في براعمها، وتتفتح عن سنابل تشبه الرؤوس التي شابت.

الثوب من الريز ... ترلـلا .
والنقشُ صناعةُ بغدادَ

إنها الريح! فاملئي الريح يا جيكور بالضحك أو نثار الورود!
قطـّب الصمتُ حيث كانت أغانيك،وحيث العبير نتن الصديد.
جاء قرنٌ وراح والمدن في ضوضاء، ما زلن من حساب النقود،
ضاع صوتُ الضعاف فيها وآهات النبيّين وابتهال الطريد
واستحال الفضاء – من ضجة الآلات فيها ومن لهاث العبيد –
غير هذا الفضاء : شيئاً لغير الآدميين – ربما للقرود ...
ربما للذئاب والدود والأدنى من الدود في الحضيض البليد !
ظلّ ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود ،
ثمة التمّ في كرات من النار ... فألقى عليك صمت اللحود !
لا عليك السلام يا عصر «تعبان بن عيسى» وهنتَ بين العهود !
ها هو الآن فحمة تنخر الديدانُ فيها فتلتظي من جديد :
ذلك الكائن الخرافيّ في جيكورَ، «هومير[1]» شعبه المكدود

(١) هومير الشاعر الاغريقي الأعمى .

جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط « الرشيد » ،
يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام ، بالشدق والخيال الوئيد
ما تزالُ « البسوسُ » محمومة الخيل لديه ، وما خبا من «يزيد»
ثار عينين ألقتاها على « الشمْر »[1] ظلالاً مذبحات الوريد !
كلما لزّ شمره الخيل أو عرّى أبو زيده [2] التحام الجنود
شدّ راحاً وأطلق المغزل الدوّار يدحوه للمدار الجديد !
وانتهى من حديثه الضخم عن ضخم من الغزل، وانتهى من قعود
نصف عريان يسحب الطرف عن صدر تعرى وعن قميص فقيد
غير بقيا على فمٍ دقّ حتى عن فم العنكبوت، في رأس عود :
مغزلٌ ينقض الذي حاكه النولُ ، وجهد أضاع شق جهود
فهو كدّ وليس بالكدّ ، أردى قبله اثنين وادعى بالمزيد –
حاضر غير حاضر ، منه للماضي فناء وللغد الموعود !
لا عليك السلام يا عصر تعبان بن عيسى وهنت بين العهود
أنت أيتمت كل روح من الماضي ، وسوّدت آلة من حديد
تسكب السم واللظى لا حليبَ الأم أو رحمةَ الأب المفقود

(١) الشمر قاتل الحسين ، وتصوره القصص مرتدياً ثياباً حمر اللون .
(٢) أبو زيد الهلالي .

سُلّمٌ في الحضيض أعلاه – مرقاه انخفاضٌ وإن بدا كالصعود
حدّقت منه في الورى مقلتا «فوكاي» تستشرقان أيام «هود»
والمسيحَ المبيعَ بخساً بما لو بيع لحماً لناء عن تسديد !
حدّقي حيث شئتِ، يا عين فوكاي المدمّاة، من مداك المديد !
فهي سوق تُباع فيها لحومُ الآدميين دون سلخ الجلود :
كلُّ أفريقيا وآسية السمراء، ما بين زنجها والهنود
واشترى لحم كلّ من نطق الضاد تجار تبيعه لليهود !
هكذا قد أسفّ من نفسه الانسان وانهار كانهيار العمود
فهو يسعى وحلمه الخبز والأسمال والنعل واعتصار النهود !
والذي حارت البرية فيه [1] بالتآويل، كائنٌ ذو نقود !

(١) قال المعري : والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد .

تموز جيكور

- ١ -

نابُ الخنزيرِ يشقّ يدي
ويغوص لظاه إلى كبدي ،
ودمي يتدفّـق ، ينسابُ :
لم يغدُ شقائقَ أو قمحا
لكنْ ملحا .
« عشتار » .. وتخفقُ أثوابُ
وترفّ حياليَ أعشابُ
من نعْلٍ يخفق كالبرق
كالبرق الخلبِ ينسابُ .
لو يومض في عِرْقي

نورٌ ، فيضيء ليَ الدنيا !
لو أنهض ، لو أحيا !
لو أُسقى ! آهٍ لْو أسقي !
لو أنّ عروقي أعناب !
وتقبّل ثغري عشتارُ ،
فكأنّ على فمها ظُلْمه
تنثال عليّ وتنطبقُ ،
فيموت بعينيّ الألق
أنا والعُتْمه ...

٢

جيكورُ .. ستولدُ جيكورُ :
النَّوْر سيُورق والنُّورُ .
جيكور ستولد من جُرْحي ،
من غصّة موتي ، من ناري ؛
سيفيض البَيْدر بالقمحِ ،
والجرْن سيضحك للصبحِ ،

والقريةُ داراً عن دارِ
تتماوج أنغاماً حلوَه ،
والشيخ ينامُ على الربوه ؟
والنخل يوسوس أسراري .
جيكور ستولد .. لكنّي
لن أخرجَ فيها من سجْني
في ليل الطين الممدودِ
لن ينبض قلبي كاللحْنِ
في الأوتارِ ،
لن يخفقَ فيه سوى الدودِ .

٣

هيهات . أتولد جيكورُ
إلا من خضة ميلادي ؟
هيهات . أينبثقُ النورُ
ودمائي تُظلم في الوادي ؟
أيُسَقْسقُ فيها عصفورُ

ولساني كومةُ أعوادِ ؟ .
والحقل ، متى يلد القمحا
والوردَ ، وجُرحي مغفورُ
وعظامي ناضحةٌ مِلحا ؟
لا شيء سوى العدم العدم ،
والموتُ هو الموتُ الباقي .
يا ليلُ أظِـلّ مسيلَ دمي
ولتغدُ تُراباً أعراقي ؟
هيهات . أتولد جيكور
من حقد الخنزير المدثّـر بالليـْل
والقـُبْلة بُرعمةُ القَتل
والغيمةُ رملٌ منثورُ
يا جيكور ؟

جيكور والمدينة

وتلتفُّ حولي دروب المدينه :
حبالاً من الطين يمضغن قلبي
ويعطين ، عن جمرةٍ فيه ، طينه ،
حبالاً من النار يجلدْن ُعريَ الحقول الحزينه
وُيحْرقن جيكور في قاع روحي
ويزرعن فيها رماد الضغينه .
دروبٌ تقول الأساطير عنها
على َموْقدٍ نام : ما عاد منها
ولا عاد من ضفّة الموت سارٍ ،
كأن الصدى والسكينه

جناحا أبي الهول فيها، جناحان من صخرةٍ في ثراها دفينه.
فمن يَفجر الماءَ منها عيوناً لتُبنى قرانا عليها ؟
ومن يرجع الله يوماً إليها ؟

وفي الليل ، فردَوْسها المستعادِ ،
إذا عرّش الصخرُ فيها غصونه
ورصّ المصابيحَ تُفاحَ نارٍ
ومدّ الحوانيتَ أوراقَ تينه ،
فمن يُشعل الحبَّ في كل درب وفي كلّ مقهى وفي كل دار؟
ومن يُرجع المِخلبَ الآدميَّ يداً يمسح الطفلُ فيها جبينه ؟
وتخضلُّ من لمسها ، من ألوهية القلب فيها، عروق الحجار؟
وبين الضُّحى وانتصافِ النهار :
اذا سبّحت باسم ربّ المدينه
ـ بصوت العصافير في سدرة يخلق الله منها قلوب الصغار ـ
رحى معدنٍ في أكُفّ التجار
لها ما لأسماك جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كثار ،

فمن يسمع الروحَ؟من يبسط الظلّ في لافحٍ من هجير النضار؟
ومن يهتدي في بحار الجليد اليها فلا يستبيحُ السفينه ؟
وجيكور ، من غلّق الدور فيها – وجاء ابنها يطرق
البابَ – دونه ؟
ومن حوّل الدرب عنها.. فمن حيث دارَ اشرأبّت اليه المدينه؟
وجيكور خضراءُ مسّ الأصيل ذرى النخل فيها
بشمس حزينه .
يمدُّ الكرى لي طريقاً اليها :
من القلب يمتدُّ، عبرَ الدهاليز عبر الدجى والقلاع الحصينه..
وقد نام في بابلَ الراقصون
ونام الحديدُ الذي يشحذونه ،
وغشّى، على أعين الخازنين، لهاثُ النضار الذي يحرسونه :
حصادَ المجاعات في جنتيها .
رحىً من لظى مرّ دربي عليها ،
وكرم من عساليجُه العاقراتُ شرايينُ تموزَ عبرَ المدينه ،
شرايين في كل دارٍ وسجنٍ ومقهى

وسجنٍ وبارٍ وفي كل ملهى
وفي كل مستشفيات المجانين ...
في كل مبغىً لعشتار ..
يُطلعنَ أزهارَهنَّ الهجينه :
مصابيحَ لم يُسرج الزيتُ فيها وتمسسه نار
وفي كل مقهى وسجن ومبغى ودار :
« دمي ذلك الماء ، هل تشربونه ؟
ولحمي هو الخبز ، لو تأكلونه ! »
وتموز تبكيه لاةُ الحزينه .

ترفع بالنواح صوتها مع السَّحَرْ
ترفع بالنواح صوتها ، كما تنهَّد الشجر
تقول : « يا قطار ، يا قدَرْ
قتلتَ – إذ قتلته – الربيعَ والمطرْ » .
وتنشر (الزمان) و (الحوادثُ) الخبرْ [1] .
ولاة تستغيث بالمضمّد ، الحفرْ

(١) واضح ان « الزمان » و « الحوادث » جريدتان .

أن يُرجِع ابنها : يديه ، مقلتيه ، أيّما أثرْ !
وترسل النواحَ : « يا سنابل القمَرْ
دم ابنيَ الزجاجُ في عروقه انفجر ..
فكهرباءُ دارنا أصابت الحجَرْ
وصكّه الجدارُ ، خضّه ، رماه لمحةَ البصرْ .
أراد أن يُنير ، أن يبدّد الظلامَ .. فاندحرْ »
وتُرسل النواحَ ...
ثم يصمت الوَترْ .

وجيكور خضراء
مسّ الأصيل
ذرى النخل فيها
بشمسٍ حزينه .
ودربي إليها كومض البروق ،
بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنارَ المدينه
وعرّى يدي من وراء الضّماد كأن الجراحات فيها حروق.

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه .

فمن يخرق السورَ؟ من يفتح البابَ؟يدمي على كل قفل يمينه؟

ويُمناي : لا مخلبٌ للصراع فاسعى بها في دروب المدينه

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين ..

لكنها محضُ طينه .

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابةٌ

واحتوتها سكينه .

العودة لجيكور

على جواد الحُلُم الأشهبِ
أسريتُ عَبرَ التلالْ
أهرب منها ، من ذُراها الطوال ،
من سوقها المكتظّ بالبائعين ،
من صبحها المتعَبِ
من ليلها النّابح والعابرين ،
من نورها الغَيهب ،
من ربها المغسول بالخمر ،
من عارها المخبوء بالزهر ،
من موتها الساري على النهر [1]

(١) كان المسيح ، في عهده ، هو الذي مشى على الماء .

يمشي على أمواجِه الغافيه .
أواه لو يستيقظ الماء فيه ،
لو كانت العذراء من وارديه ،
لو أن شمس المغرب الداميه
تبتلُّ في شطّيه أو تُشرقُ ،
لو أن أغصان الدُّجى تورقُ
أو يُوصَدُ الماخور عن داخليه .

٢

على جواد الحُلُم الأشهبِ
وتحت شمس المشرق الأخضر
في صيف جيكور السخيِّ الثري
أسريتُ أطوي دربيَ النائي
بين الندى والزهر والماءِ
أبحث في الآفاق عن كوكب (١)

(١) ... وبزغ كوكب عرف منه المجوس ان المخلص قد ولد .

عن مولد للروح تحت السماء
عن منبع يُروي لهيب الظماء
عن منزلٍ للسائح المُتْعبِ .

٣

جيكور ، جيكور : أين الخبزُ والماءُ ؟
الليل وافى وقد نام الادلاّءُ ؟
والركبُ سهرانُ من جوعٍ ومن عطشٍ
والريح صَرٌّ ، وكل الأفق أصداءُ .
بيداءُ ما في مداها ما يبين به
دربٌ لنا وسماء الليل عمياءُ
جيكور مدّي لنا باباً فندخلَه
أو سامرينا بنجم فيه أضواء !

٤

من الذي يسمع أشعاري ؟
فان صمت الموت في داري

والليلَ في ناري .
من الذي يحمل عِبْءَ الصليبْ
في ذلك الليل الطويل الرهيب ؟
من الذي يبكي ومن يستجيب
للجائع العاري ؟
من يُنزل المصلوبَ عن لَوحِهِ ؟
من يطرد العقبان عن جرحه ؟
من يرفع الظلماء عن صبحه ؟
ويُبدل الأشواكَ بالغارِ(١) ؟
أواه يا جيكور لو تسمعينْ !
أواه يا جيكور .. لو توجَدين !
لو تنجبين الروح ، لو تُجهضين
كي يُبصر الساري
نجماً يُضيء الليلَ للتائهين .

(١) وألبسوا المسيح تاجاً من الشوك .. سخريةً به .

٥

نَزْعٌ ولا مَوْتُ ،
نُطْقٌ ولا صوتُ ،
طَلْقٌ ولا ميلاد .
من يصلب الشاعرَ في بغداد ؟
من يشتري كفيه أو مُقلتيه ؟
من يجعل الاكليلَ شوكاً عليه ؟
جيكور يا جيكورْ
شدّت خيوطُ النور
أرجوحةَ الصُّبْحِ .
فأولمي للطيور
والنملِ من جُرْحي .

هذا طعامي أيها الجائعون
هذي دموعي أيها البائسون
هذا دعائي أيها العابدون :
أن يقذف البركانُ نيرانَهُ ،

أن يُرسل الفراتُ طوفانَهُ ،
كي نُشرق الظُلْمَه ،
كي نعرف الرحمه ؛
جيكور يا جيكور
شدّت خيوط النور
أرجوحة الصبحِ
فأولمي للطيور
والنملِ من جُرْحي !

٦

هذا حرائي[١] حاكت العنكبوتْ
خيطاً إلى بابه
يهدي إليّ الناس إني أموت
والنور في غابه
يُلقي دنانير الزمان البخيلْ

---

(١) حراء ، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد . حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ - والمشركون جادون في أثره - في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجوراً ولم يهتد المشركون إلى مخبأ محمد .

من شرفةٍ في سعفات النخيل .
جيكور ، يا جيكور : خلٌ وماءْ
ينساب من قلبي ،
من جُرحيَ الواري ،
من كل أغواري .
أواه يا شعبي ...
جيكور ، يا جيكور هل تسمعينْ ؟
فلْتفتح الأبواب للفاتحين
ولتجمعي أطفالك اللاعبين
في ساحة القرية . هذا العشاءْ .
هذا حصاد السنين :
الماء خمرٌ ، والخوابي غذاء [1]
هذا ربيع الوباء .

(١) .. وأحال المسيح الماء إلى خمر فشرب الحاضرون .

٧

أقوى من الأسوار هذا الجوادْ
« أقوى جوادُ الحُلُمِ الأشهبُ »
لأنَّ الحديدُ المغتذي بالحداد
والمخذل الموكبُ .
جيكور ، ماضيكِ عاد .
. . . .
هذا صياحُ الديك : ذاب الرقاد
وعدتُ من معراجيَ الأكبر :
الشمس أمْ السنبل الأخضرِ
خلف المباني ، رغيفْ .
لكنها في الرصيف
أغلى من الجوهر .
والحُبُّ : « هل تسمعين
هذا الهتافَ العنيف ؟
ماذا علينا ؟ إن عبد اللطيف (١)

(١) اقرأ مذكراتي «كنت شيوعياً» المنشورة في جريدة الحرية العراقية.

يدري بأنـا ... ما الذي تحذرين ؟
وانخطفتْ روحي ، وصاح القطارْ
ورقرقت في مقلتيّ الدموعْ
سحابةً تحملني ، ثم سار .
يا شمس أيامي ، أما من رجوع ؟

. . . .

جيكور ، نامي في ظلام السنين .

رؤيا في عام ١٩٥٦

حطّت الرؤيا على عينيَّ صقراً من لهيبْ :
انها تنقضّ ، تجتثُّ السواد
تقطع الأعصاب تمتص القذى من كل
جفنٍ ، فالمغيبْ
عاد منها توأماً للصبح — أنهار المدادْ
ليس تطفي غلّة الرؤيا : صحارى من نحيب
من جحورٍ تلفظ الاشلاء ، هل جاء المعادْ ؟
أهْو بعثٌ ، أهْو موتٌ ، أهْي نار أم رماد ؟
أيها الصّقر الالهيّ الغريبْ
أيها المنقضُّ من أولمبَ في صمتِ المساءْ

رافعاً روحي لأطباق السماء
رافعاً روحي – غنيميدا [1] جريحا ،
صالباً عينيّ – تموزاً ، مسيحا ،
أيها الصقر الإلهيّ ترفّقْ
إن روحي تتمزق ،
إنها عادت هشيماً يوم أن أمسيت ريحا .

في غيمة الرؤيا
يوم بلا ميعاد
جنكيز هل يحيا
جنكيز في بغداد ؟
عينٌ بلا أجفانْ
تمتدّ من روحي
شدقٌ بلا أسنانْ

(١) غنيميد راعٍ يوناني شاب وقع زيوس كبير آلهة الاولب الاغريقي في حبه ، فأرسل صقراً اختطفه وطار به اليه .

يندّاح في الريح
يعوي : أنا الإنسانْ .

٢

يا جواداً راكضاً يعدو على جسمي الطريح
يا جواداً ساحقاً عينيّ بالصخر السنابك
رابطاً بالأربع الأرجل قلبي
فاذا بالنبض نقرٌ للدرابك
وإذا بالنار دربي .
سحّت الرؤيا ضياء من لظاها
صابغاً ما تبصر العين القريحْ
مازجاً بالشيء ظلّه
خالطاً فيها يهوذا بالمسيح ،
مدخلاً في اليوم ليله
بانياً في عروة المهد الضّريح
الدماء
الدماء

الدماء
وحدّت بالمجرمين الأبرياء ،
نصبت في شدقيي الذئبة كرسي القضاء ،
ماذا جنى شعبي ؟
حلت به اللعنه
من زاده المحنه ،
رحماك يا ربي .
من مائه الديدان
من لبسه الأكفان
من طيره الغربان
ينقرن في قلبي .
واليوم في بيدري
لم يبقَ من حبي
شيءٌ — هنا حبتان
فأمطري أمطري
وإن يكن نيرانْ .

وأثمري أثمري
وإن يكن ثعبان .

٣

ما الذي يبدو على الأشجار حولي من ظلال ؟
منجلٌ يجتثّ أعراق الدوالي
قاطعاً أعراق تموز الدفينه .
وعلى القنّب أشلاء حزينه :
رأس طفلٍ سابح في دمه
نهد أمٍ تنقر الديدان فيه ، في سكينه ،
أي آهٍ من دمٍ في فمه ؟
ما الذي ينطف من حلمته ، من لحمه ؟
يا حبال القنبِ التفّي كيحيات السعيرِ
واخنقي روحي وخلّي الطفل والأم الحزينه ؟
يا حبالاً تسحب الموتى إلى قبرٍ كبيرِ
— جفنةٍ قد هيّأوها للوليمه —
يا حبالاً تسحب الاحياء — من شيخٍ كبيرٍ ،

من فتاةٍ أو عجوزٍ ، من ضلوعٍ حطموها
علّقت فيها تميمه ،
من صدورٍ مزّقوها ،
زرعوا فيها بذوراً من رصاصٍ ، من حديد .
ما الذي تثمر هاتيك البذور
غير أحجار القبور ؟
غير تفاح الصديدْ ؟

٤

تموز هذا ، أتيس [١]
هذا ، وهذا الربيع .
يا خبزنا يا أتيس ،
أنبتْ لنا الحب وأحيِ اليبيس .
إلتأم الحفل وجاء الجميع

(١) أتيس يقابل تموز الإله البابلي عند سكان آسيا الصغرى القدماء . يحتفل بعيده في الربيع ، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة . وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه ، يجرحون أنفسم بالسيوف والمدى حتى تسيل دماؤهم قرباناً دلالة الخصب .

يقدّمون النذورْ ،
يحيون كل الطقوس
ويبذرون البذور
سيقان كل الشجرْ
ضارعة ، والنفوس
عطشى تريد المطر
شدّوا على كل ساق
يا ربّ ، تمثالكْ
فلْتسقِ كل العراقْ
فلتسقِ فلاحيك ، عمالك
شدّوا على كل ساق
أواه ، ما شدّوا ؟
أوّاه ، ما سمّروا ؟
أغصان زيتوننا أثقلها الوردُ
ورد الدم ، الأحمر .

شدوا على كل ساقْ
يا رب تمثالك
فاسمعْ صلاة الرفاق
ولترع فلاحيك ، عمالك
تمثالك البعلُ
تمثالك الطفل
تمثالك العذراءْ
تمثالك الجانون والأبرياء
تمثالك الأمّ الشماليه ،
لأنها ليست شيوعيه
يُقطع نهداها
تُسمل عيناها ،
تُصلب صلباً فوق زيتونه ،
تهزها الريح الجنوبيه .
تمثالك الآلاف ، مجنونه
من رعبها ، تمثالك الأحمرْ

كأنه الشقيق[1] إذ يُزهرْ .

٥

عشتار [2] على ساق الشّجره
صلبوها ، دقّـوا مسمارا
في بيت الميلاد – الرَّحِـمِ .
عشتار بحفصةَ [3] مستتره
تدعى لتسوق الأمطارا
تدعى لتـُساقَ إلى العدمِ .
عشتار العذراء الشقراء مسيل دمِ
صلـّوا .. هذا طقسُ المطرِ
صلـّوا .. هذا عصر الحجر
صلوا ، بل أصلوها نارا .
تموز تجسـّد مسمارا
من حفصةَ يخرج والشجره .

---

(١) في الأساطير البابلية ان دم تموز القتيل أصبح شقائق .
(٢) إلهة الخصب والحب عند البابليين وهي حبيبة تموز .
(٣) حفصة إحدى شهيدات مذبحة الموصل .

النهد الأعذَرُ فاض ليطعم كل فمٍ
خبزَ الألمِ .
« الأقـّةُ » ، صاح القصّابُ ،
« من هذا اللحم بفلسينِ » ،
إقطعْ من لحم النهدينِ
اللحمُ لنا ، والأثوابُ —
ستكون لمسح السكـّينه
من آثار دم الأطفالِ
من آثار دم المسكينه
فلتحيَ زنود العمال .
في قلبي دمدم زلزالُ
فجنائن بابل تندثرُ ،
في قلبي يصرخ أطفالُ ،
في قلبي يختنق القمر .
الظلمة تعبس في قلبي
والجو رصاصْ

والريح تهبُّ على شعبي
والريح رصاص
أواه لقد هجم التتر
فالصبح رصاص
والليل رصاص .

٦

الرؤيا تلمح كالقلعِ
في بحر يُزبد غضبانا ،
طوراً للاغوار وأحيانا
يعلو فنراه ، وفي سمعي
أصداء تصمت أو تعلو ،
وبياني يغمض أو يجلو :

أي حشد من وجوهٍ كالحات ،
من أكفٍّ كالتراب
نبتها الآجرّ والفولاذ كالأرض اليباب ؟
أي حشدٍ من ذئاب ؟

يطعمون الجو ريح المعملِ ؟
أي نعشٍ ، أي شكوى ، أي دمعٍ من نساء ثاكلات ؛
أي جمعٍ من عذارى نادبات
أي موتٍ مثكل
يا لعشتاراتِنا يبكينَ تموز القتيل .

العازر قام من النعش —
شخنوب [1] العازر قد بعثا
حياً يتقافز أو يمشي .
كم ظلَّ هناكَ وكم مكثا .
أترى عاماً أم عامين ؟
أم دامت ميتته ساعه ؟
شخنوب العامل ، من راعه ؟
فتنكر للدينارين
وتواثب يركض مذعورا ؟
الموت الزائف خاتمةٌ

(١) العازر الميت الذي أحيـــاه المسيح من قبره . وشخنوب هو عامل السمنت الذي استأجره الفوضويون ، فتظاهر بالموت وحملوه في النعش تشهيراً بالجيش « الذي يقتل العمال » كما قالوا ، ثم قام ماشياً حين سقط النعش .

لحياة زائفة مثله ،
والبحث الزائف عاقبةٌ
للموت الزائف من قبله .

٧

ولفني الظلام في المساءْ
فامتصت الدماء
صحراءُ نومي تُنبت الزهَرْ ؛
فإنما الدماء
توائم المطر .

قارىء الدم

أنا أيها الطاغوت مقتحم الرِّتاج على الغيوب
أبصرت يومك وهو يأزف
هذه سحب الغروب
يتوهَّج الدم في حفافيها وتنثر في الدروب
شفقَ البنفسج والورود ولون أردية الضحايا
فتشعّ أعمدةٌ عوابس ، والرصيف من الصبايا
والنسوةِ المتهامسات كحقل قمح ، والسطوح
كأن بابل أودعتها من جنائنها بقايا
لو أن غرساً كان من بشر ، وأسمع من يصيح
« هوذا يساق الى الحساب » كأن أعراق المغيب

قطعت فصاح ، كأن صوتاً على لظى حملته ريح
من كل أودية الجحيم — هواه ... — !

إني شهدت سواك ينسفه اختنــاقٌ للصدورِ
بغيظها ، وسمعت قفقفة الضحايا في القبورِ
ودم الحوامل وهو تشربه الأجنة في دجاها
فسمعت وقع خطاك خائرة تجر إلى السعيرِ
حطام جسمك ، والسعير مدى تراها
تحتز من قصبات صدرك ثأر كل دم العصور ؛
إني أكلت مع الضحايا في صحاف من دماء ،
وشربت ما ترك الفم المسلول منه على الوعاء،
وشممتُ ما سلخ الجُذام من الجلود على ردائي
ونشقت ماء جوارب السجناء في نفَس الهواء
فشممت فيه دخان دارك واحتراق بنيك فيها
وشواء لحم بنيك ، لولا أن شيمة محرقيها
ألا يذوق الأبرياء جزاء غير الأبرياء

إني شببت مع الجياع ، مع الملايين الفقيره
فعرفت أسراراً كثيره :
كل اختلاجات القلوب وكل ألوان الدعاء :
إغضاءة المقل الضريره
يتطلع الدم في ظلام جفونهن إلى الضياء ،
والحاملات نذورهن إلى قبور الأولياء
ألموقدات شموعهنّ تلقّ ألسنها الكثيره
كِسَر الرغيف ويعتصرن دم الثدي الى الدماء
وتأوّه المستنقعات وزفة البردي فيها
وطنين أجنحة البعوض كأن غرقى ساكنيها
يتنفسون من القرار ويضرعون الى السماء
أن ينجوَ الأطفالَ من غرق وحمّى في الهواء
وملالة الأكواخ تشرب كل أمطار الشتاء
حتى تغص بها فللقصب النقيع بكل ماء
شهقات محتضر يُغرّ وإن تقيأ بالدواء ،
وتنهد الأشجار عطشى يابسات في الظهيره

تتكسر الورقات فيها والمناقير الصغيره ،
فكأن مقبرة الهجيره
تمتصُّ من رحم الحياة لتسقي الموتى عصيره .

أنا قارىء الدم لا تراه وأنت أنت المستبيحُ ،
أفلست تجرؤ ان تحدق فيه علك تستريحُ
من ازدياد دمٍ تُذرّ على جفونك منه نار
لزج يسل مع الرقاد كأن بؤبؤك الذبيح
قابيل حدّق في دماء أخيه أمس .
وأنت يأخذك الدوار
من رؤية الدم وهو ينزف ثم يركد فالغبار
من تحته كفم الرضيع له اختلاج وافترار
أتخاف ان تطأ النبؤة مقلتيك « هو الدمار »
أتخاف منها أن تفرّ كأن سرب قطا يثارُ
فأنت من هلع تخض ّ إلى المشاش « هو الدمار »
إني خبرت الجوع يعصر من دمي ويمصّ مائي

وعرفت ما قلق الطريد يكاد كل فم ورائي
يعوي بـ « ها هوذا » وتوشك كل عين ألتقيها
أن يومض اسمي في قرارتها وجهلي بالدروبِ
ولست أسأل عابريها عن بعيد عن قريب
من منتهاها واكتئابي والحنين مع الغروب
وتوقع المتعقبين خطاي أحسب في صداها
وقع الخطى وأكاد ألتفت التفاتة مُستريبِ
ألا تشدّ يدٌ على كتفي ، وأوشك أن أراها .
أعرفتَ ذاك ؟ فسوف تعرف منه دنيا في مداها
تصطفّ أعمدةٌ عوابسُ ثم تسمع من يصيحُ
« هوذا يساق إلى الحساب » كأنما اطّرحت رداها
جثثُ القبور ، كأن صوتاً من لظى حملته ريح
من كل أودية الجحيم : هوا ... ه !

ثعلب الموت

كم يُمضّ الفؤادَ أن يُصبح الإنسان صَيْداً لرميةِ الصيّاد ؟
مثل أيّ الظّـبّاءِ ، أيّ العصافير ، ضعيفا
قابعاً في ارتعادة الخوف ، يختضّ ارتياعاً ، لأنّ ظلّاً مخيفا
يرتمي ثمّ يرتمي في اتّـئّادِ .
ثعلبُ الموت ، فارسُ الموت ، عزرائيل يدنو ويشحـذ
النّصْلَ . آه
منه آهٍ ، يصكّ أسنانه الجوعى ويرنو مهدّداً . يا إلهي
ليت أنّ الحياة كانت فناء
قبل هذا الفناءِ ، هذي النهايه ،
ليت هذا الختامَ كان ابتداء .

واعذاباه ، إذ ترى أعْينُ الأطفالِ هذا المهدّدَ المستبيحا ،
صابغاً بالدماء كفّيْه ، في عينيْه نارٌ وبين فكّيْه نارُ .
كم تلوّتْ أكفّهم واستجاروا ،
وهو يدنو .. كأنّه احتثّ ريحا ،
مستبيحا ،
مستبيحاً ، مهدّداً ، مستبيحا .
مَنْ رآها ، دجاجةَ الريف ، إذ يُمسي عليها المساءُ في بستانِه؟
حين ينسلُّ نحوها الثعلب الفرّاس ، يا للصريف من أسنانِه !
وهي تختضُّ ، شلّها الرعبُ ، أبقاها بحيثُ الردى —
كأنّ الدروبَ ..
.. استلّها ماردٌ ، كأنّ النيوبا
سورُ بغداد موصد الباب ، لا منجى لديه ولا خلاصٌ يُنال .
هكذا نحن ، حينما يُقبل الصيّادُ عزريل :
رجفةٌ فاغتيالُ .

المبغى

بغدادُ[1] ؟ مبغىً كبيرْ
(لواحظ المغنّيه
كساعةٍ تتكُّ في الجدارْ
في غرفة الجلوس في محطّة القطارْ)
يا جثّةً على الثّرى مستلقيَه
الدود فيها موجةٌ من اللهيب والحريرْ .

. بغداد كابوسٌ : (ردىً فاسدُ

---

(١) كتبت في العهد الباد قبل ثورة سنة ١٩٥٨ .

يجرعه الراقدُ
ساعاته الأيام ، أيّامه الاعوام ، والعام نيرْ :
العام ُجرْحٌ ناغرٌ في الضمير)

عيون المها بين الرصافة والجسْرِ
ثقوب رَصاصٍ رقّشتْ صفحة البدرِ ؛
ويسكب البدر على بغداد ؟
من ُثقْبيَ العينين شلاّلاً من الرمادْ :
الدور دارٌ واحده ،
وُتعصر الدروب ، كالخيوط ، كلّها
في قبضةٍ ماردهْ .
تمطّها ، تشلّها ،
ُتحيلها درْباً الى الهجيرْ .
وأوجه الحسان كلّهنّ وجه « ناهده »
(حبيبتي التي ُلعابها َعسَلْ ،
صغيرتي التي أردافُها جبل

وصدرُها قُللٌ .)

ونحن في بغداد ؟ من طينٍ
يعجنه الخزّافُ تمثالا ،
دنيا كأحلام المجانين
ونحن ألوانٌ على لجّها المرتجّ أشلاءً وأوصالا

بالأمس كان العيد ، عيد الزهورْ :
الزادُ تحشوه الربى ، والخمور ،
والرقص ، والأغنيات
والحب ، والكركرات .
ثم انتهى الا بقايا طيور
تلتقط الحَبَّ ، وإلاّ دماء
ممّا نماه الحقلُ — طيرٌ وشاء —
وغير أطفال يطوفون أور :

– « العيدُ » من قال انتهى عيدُنا ؟
فلتملأ الدنيا أناشيدُنا
فالأرض ما زالت بعيدٍ تدور ..
بالأمس كان العيد ، عيد الزهور ،
واليوم ؟ ما نفعلُ ؟
نزرعُ أم نقتلُ ؟

أهذه بغـــداد ؟
أم أن عاموره
عادتْ فكان المعادْ
موتاً ؟ ولكنني في رنـّة الأصفادْ
أحسَسْتُ .. ماذا ؟ صوتَ ناعوره
أم صيحةَ النشْغ الذي في الجذورْ ؟

النهر والموت

بُوَيْبُ ...
بُوَيْبُ ...
أجراسُ بُرجٍ ضاع في قرارة البَحَرْ .
الماء في الجرار ، والغروب في الشَّجَر
وتنضحُ الجرارُ أجراساً من المطرْ
بلَّورُها يذوب في أنينْ
« بُوَيْبُ ... يا بُوَيبُ ! » ،
فيَدْلَهِمُّ في دمي حنينْ
إليكَ يا بُوَيْب ،
يا نهريَ الحزينَ كالمطرْ .

أودُّ لو عدوْتُ في الظلامْ
أشدُّ قبضتيَّ تحملان شوقَ عام
في كلِّ إصبعٍ ، كأني أحملُ النذورْ
إليكَ ، من قمحٍ ومن زهور .
أودُّ لو أطلُّ من أسرّةِ التلال
لألمحَ القمرْ
يخوض بينَ ضفتيكَ ، يزرع الظلالْ
ويملأ السلال
بالماء والأسماكِ والزَّهرْ .
أودُّ لو أخوض فيكَ ، أتبعُ القمرْ
وأسمعُ الحصى يصلُّ منك في القرار
صليلَ آلافِ العصافير على الشجر .
أغابةٌ من الدموعِ أنت أم نهرْ ؟
والسمكُ الساهرُ ، هل ينام في السَّحَرْ ؟
وهذه النجومُ ، هل تظلُّ في انتظارْ
تُطعِمُ بالحرير آلافاً من الإبَرْ ؟

وأنتَ يا بُويب ...
أودُّ لو غرقتُ فيك ، ألقِطُ المحارْ
أشيدُ منه دارْ
يُضيءُ فيها خُضْرةَ المياهِ والشّجرْ
ما تنضحُ النجومُ والقمر ،
وأغتدي فيكَ مع الجَزْرِ إلى البحَرْ !
فالموت عالمٌ غريبٌ يفتنُ الصِّغار ،
وبابُه الخفي كانَ فيكَ ، يا بُوَيبْ ..

ـ ٢ ـ

بوَيبُ .. يا بُويبْ ،
عشرون قد مضيْن ، كالدُّهور كلُّ عام .
واليوم ، حين يُطبقُ الظّلامْ
وأستقِرُّ في السرير دون أن أنام
وأرهفُ الضميرَ : دوحةً إلى السَّحَرْ

مرهفة الغصونِ والطيور والثمرْ —
أحسُّ بالدّماء والدموع ، كالمطرْ
ينضَحُهُنّ العالمُ الحزينْ :
أجراس موتى في عروقي تُرعشُ الرنينْ ،
فيدلهمُّ في دمي حنين
إلى رصاصةٍ يشق ثلجُها الزؤامْ
أعماقَ صدري ، كالجحيم يُشعِل العظام .
أودُّ لو عدوتُ أعضد المكافحينْ
أشدّ قبضتيّ ثم اصفعُ القدَرْ .
أودُّ لو غرقتُ في دمي إلى القرار ،
لاحملَ العبْءَ مع البشرْ
وأبعثَ الحياة . إنّ موتيَ انتصار !

المسيح بعد الصلب

.

بعدما أنزلوني ، سمعتُ الرياحْ
في نواحٍ طويلٍ تسفُّ النخيلْ ،
والخطى وهْيَ تنأىَ . إذن فالجراحْ
والصليبُ الذي سمّروني عليه طوال الأصيلْ
لم تُمتْني . وأنصتُّ : كان العويلْ
يعبر السهلَ بيني وبين المدينه
مثل حبل يشدّ السفينه
وهي تهوي إلى القاع . كان النواح
مثل خيط من النور بين الصباح
والدجى ، في سماء الشتاء الحزينه .

ثم تغفو ، على ما تُحسُّ ، المدينه .

حينما يُزهر التوتُ والبرتقالْ ،
حين تمتدُّ « جَيكورُ » حتّى حدودِ الخيال ،
حين تخضرُّ عشباً يغنّي شذاها
والشموسَ التي ارضعتها سناها ،
حين يخضرُّ حتى دجاها ،
يلمس الدفءُ قلبي ، فيجري دمي في ثراها .
قلبيَ الشمسُ إذْ تنبضُ الشمس نورا ،
قلبيَ الأرض ، تنبض قمحاً ، وزهراً ، وماءً نميرا ،
قلبيَ الماءُ ، قلبي هو السنبلُ
مَوته البعثُ : يحيا بمن يأكلُ .
في العجين الذي يستدير
ويُدحى كنهدٍ صغير ، كثَدي الحياه ،
متُّ بالنار : أحرقت ظلماء طيني ، فظلَّ الإله .
كنتُ بدءاً وفي البدء كان الفقيرْ .

متُّ ، كي يؤكل الخبز باسمي ، لكي يزرعوني مع الموسمِ ،
كم حياةٍ سأحيا : ففي كل حفره
صرتُ مستقبلاً ، صرت بذره ،
صرتُ جيلاً من الناس : في كل قلبٍ دمي
قطرةٌ منه أو بعض قطره .

هكذا عدتُ ، فاصفرَّ لما رآني يهوذا ...
فقد كنت سِرَّه .
كأن ظلاً ، قد اسودَّ ، منّي ، وتمثال فكره
جُمِّدتْ فيه واستُلَّتِ الروحُ منها ،
خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه ...
(عيناه صخره
راح فيها يُواري عن الناس قبرَه)
خاف من دفئها ، من محالٍ عليه ، فخبَّر عنها .
ـ « انتَ ! أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفضَّ نورا ؟
أنت من عالم الموت تسعى ! هو الموتُ مرَّه .
هكذا قال آباؤنا ، هكذا علمونا فهل كان زورا ؟ »

ذاك ما ظنّ لما رآني ، وقالته نظره .

قدمٌ تعدو ، قدمٌ ، قدمُ
القبر يكاد بوقْع خطاها ينهدمُ .
أترى جاءوا ؟ من غيرهمُ ؟
قدمٌ .. قدمٌ : قدمُ
ألقيتُ الصخر على صدري ،
أوَما صلبوني أمسِ ؟.. فها أنا في قبري .
فليأتوا — إني في قبري .
من يدري أني ... ؟ مَن يدري ؟؟
ورفاق يهوذا ؟! من سيصدّق ما زعموا ؟
قدَمٌ .. قدمُ .
ها أنا الآن عريانُ في قبريَ المظلم :
كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنّ ، كالبرْعم ،
تحت أكفانيَ الثلجِ ، يخضلُّ زهرُ الدمِ ،
كنتُ كالظلّ بين الدجى والنهارْ —

ثم فجّرتُ نفسي كنوزاً فعرّيتها كالثمار .
حين فصّلتُ جيبي قماطاً وكمّي دثار ،
حين دفّأتُ يوماً بلحمي عظامَ الصغار ،
حين عرّيتُ جرحي ، وضمّدتُ جرحاً سواه ،
حطّمَ السورُ بيني وبين الإله .

فاجأ الجندُ حتى جراحي ودقات قلبي
فاجأوا كلّ ما ليس موتاً وإن كان في مقبره
فاجأوني كما فاجأ النخلةَ المثمره
سربُ جوعى من الطير في قريةٍ مقفره .

أعينُ البندقيات يأكلنَ دربي ،
شرّعٌ تحلم النارُ فيها بصلبي ،
إن تكن من حديدٍ ونارٍ ، فأحداقُ شعبي
من ضياء السماوات ، من ذكرياتٍ وحبٍّ
تحمل العبءَ عني فيندى صليبي ، فما أصغره

ذلك الموتُ ، موتي ، وما أكبره !

بعد أن سمّروني وألقيتُ عينيَّ نحو المدينه
كدتُ لا أعرف السهلَ والسور والمقبره :
كان شيءٌ ، مدى ما ترى العينُ ،
كالغابة المزْهره ،
كان ، في كلّ مرمى ، صليبٌ وأمٌّ حزينه .
قُدّس الربُّ !
هذا مخاضُ المدينه .

مدينة السندباد

جوعانُ في القبر بلا غذاءْ
عريان في الثلج بلا رداء
صرختُ في الشتاء :
أقِضّ يا مطرْ
مضاجعَ العظام والثلوج والهباءْ ،
مضاجعَ الحَجَرْ ،
وأنبتِ البذورَ ، ولتفتّح الزّهرْ ،
وأحرقِ البيادرَ العقيمَ بالبروقْ
وفجّر العروقْ
وأثقلِ الشجرْ .

وجئتَ يا مطرَ ،

تفجّرْت تنثك السماءُ والغيومْ

وُشقّق الصخَر ،

وفاض ؛ من هباتِك ، الفراتُ واعتكرْ

وهبّتِ القبورُ ، هزّ موتها وقامْ

وصاحتِ العظام :

تبارك الالهُ ، واهبُ الدّمِ المطرْ .

فآهِ يا مطرْ !

نودُّ لو ننامُ من جديد ،

نودُّ لو نموت من جديد ،

فنومنا براعِمُ انتباه

ومَوتنا يخبّىء الحياه ؛

نودُّ لو أعادنا الإله

الى ضمير غيبه المُلبّد العميق ؛

نودُّ لو سعى بنا الطريق

الى الوراءِ ، حيث بدْؤه البعيدَ .

مَنْ أيقظَ « العازرَ » من رقاده الطويلْ ؟
ليعرف الصباحَ والأصيلْ
والصيفَ والشتاءْ ،
لكي يجوع أو يُحسَّ جمرةَ الصدى ،
ويحذرَ الردى ،
ويحسب الدقائق الثّقال والسِّراعْ
ويمدح الرعاع
ويسفك الدماء !
منْ الذي أعادنا ، أعاد ما نخاف ؟
منْ الإلهُ في ربوعنا ؟
تعيش نارُه على شموعنا
يعيش حقده على دموعنا .

– ٢ –

أهذا أدونيس ، هذا الخواءْ ؟
وهذا الشحوبُ ، وهذا الجفافْ ؟

أهذا أدونيس ؟ أين الضياءُ ؟
وأين القطافُ ؟
مناجلُ لا تحصد ،
أزاهرُ لا تَعقدُ ،
مزارعُ سوداء من غير ماءْ !
أهذا انتظار السنين الطويله ؟
أهذا صراخ الرجوله ؟
أهذا أنينُ النساء ؟
أدونيس ! يا لانحدار البطوله .
لقد حطّم الموتُ فيك الرجاءْ
وأقبلتَ بالنظرة الزائغه
وبالقبضةِ الفارغه :

بقبضةٍ تهدّدُ
ومنجل ، لا يحصدُ
سوى العظام والدمِ .

اليومَ ؟ والغدُ ؟
متى سيولد ؟
متى سنُولد ؟

- ٣ -

الموتُ في الشوارعِ ،
والعقم في المزارعِ ،
وكلُّ ما نحبّه يموتْ .
الماء قيّدوه في البيوتْ
وألهثَ الجداولَ الجفافْ .
هُمُ التتارُ أقبلوا ، ففي المدى رُعافْ ،
وشمسنا دمٌ ، وزادُنا دمٌ على الصّحاف .
محمّدُ اليتيمُ أحرقوه فالمساءْ
يضيءُ من حريقه ، وفارتِ الدماءْ
من قدميه ، من يديه ، من عيونهِ

وأحرق الإله في جفونه .
محمّد النبيُّ في « حِراءَ » قيّدوه
فسُمّرَ النهارُ حيث سمّروه .
غداً سيُصلب المسيحُ في العراقْ ،
ستأكل الكلابُ من دم البراقْ (١)

- ٤ -

يا أيها الربيع
يا أيها الربيعُ ما الذي دهاكْ ؟
جئتَ بلا مطرْ
جئتَ بلا زَهَرْ ،
جئتَ بلا ثَمرْ ،
وكان منتهاكَ مثل مبتداكْ
يلفّه النجيع ...

---

(١) الجواد الذي أسرى عليه النبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ليلة معراجه .

وأقبل الصيفُ علينا أسودَ الغيومْ
نهاره هموم ،
وليله نسهر فيه نحسب النجوم ؛
حتى إذا السنابلُ
نضجْنَ للحصادْ
وغنّت المناجلُ
وغطّت البيادرُ الوهادْ ،
خُيِّل للجياعِ أنَّ ربّة الزّهرْ ،
عشتار ، قد أعادت الأسير للبشر ،
وكلّلت جبينه الغضيرَ بالثمَر ،
خُيِّل للجياع أنَّ كاهل المسيحْ
أزاح عن مدفنه الحجَر
فسار يبعث الحياة في الضّريحْ
ويُبرىءُ الأبرصَ أو يجدّد البصر ؟
من الذي أطلق من عقالها الذئاب ؟
من الذي سقى من السّراب ؟

وخبّأ الوباءَ في المطرْ ؟

ألموتُ في البيوت يُولَدُ ،
يولد قابيلُ لكي ينتزعَ الحياه
من رَحِم الأرض ومن منابع المياه ،
فيُظلم الغدُ
وتُجهض النساء في المجازر ،
ويرقص اللهيبُ في البيادر ،
ويهلكُ المسيحُ قبل العازر ؛
دعوه يرقدُ ،

دعوه فالمسيح ما دعاه !
ما تبتغون ! لحمه المقدَّدُ
يُباع في مدينة الخُطاه ،
مدينةِ الحبال والدمـاء والخمور ،
مدينة الرصاص والصخور !
أمس أزيح من مداها فارس النُّحاس ،
أمس أزيح فارسُ الحجر ،

فران في سمائها النعاسْ
ورنّق الضجَر ،
وجال في الدروب فارسٌ من البشرْ
يقتل النساء
ويصبغ المهودَ بالدماء
ويلعن القضاء والقدر !

٥

كأن بابل القديمة المسوَّره
تعود من جديدْ ،
قبابها الطِوالُ من حديدْ
يدق فيها جرسٌ كأنّ مقبره
تئن فيه والسماء ساحُ مجزره
جنانها المعلقات زرعها الرؤوس
تجزُّها قواطعُ الفؤوس
وتنقر الغربان من عيونها ،
وتغرب الشموس

وراء شعرها الخضيب في غصونها .
أهذه مدينتي ؟ أهذه الطلول
ُخطٍّ عليها : « عاشت الحياة »
من دم قتلاها ، فلا إله
فيها ، ولا ماءَ ، ولا حقول ؟
أهذه مدينتي ؟ خناجر التتر
تغمد فوق بابها ، وتلهث الفلاه
حول دروبها ، ولا يزورها القمر ؟
أهذه مدينتي أهذه الحُفرُ
وهذه العظامْ ؟
يطلُّ من بيوتها الظلام
وتُصبغ الدماء بالقتام
لكي تضيع ، لا يراها قاطع الأثر ؟
أهذه مدينتي ؟ جريحة القباب
فيها يهوذا أحمر الثيابْ
يسلّط الكلاب

على مهود إخوتي الصغار ... والبيوت ،
تأكل من لحومهم . وفي القرى تموت
عشتار عطشى ، ليس في جبينها زهَرْ ،
وفي يديها سلةٌ ثمارُها حجَرْ
تَرجُم كلّ زوجة به . وللنخيلْ
في شطّها عويل

انشودة المطر

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ ،
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر .
عيناكِ حين تبسمان تورق الكرومْ
وترقص الأضواء ... كالأقمار في نهَرْ
يرجّه المجذاف وهْناً ساعة السَّحَر
كأنما تنبض في غوريهما ، النُّجومْ ...

وتغرقان في ضبابٍ من أسىً شفيفْ
كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء ،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف ،

والموت ، والميلاد ، والظلام ، والضياء ؛
فتستفيق ملء روحي ، رعشة البكاء
ونشوة وحشية تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر !
كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم
وقطرة فقطرة تذوب في المطر ...
وكركر الأطفال في عرائش الكروم ،
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودة المطر ...
مطر ...
مطر ...
مطر ...
تثاءب المساء ، والغيوم ما تزال
تسح ما تسح من دموعها الثقال .
كأن طفلاً بات يهذي قبل أن ينام :
بأن أمه – التي أفاق منذ عام

فلم يجدها ، ثمّ حين لجّ في السؤال
قالوا له : « بعد غدٍ تعودْ .. » —
لا بدّ أن تعودْ
وإن تهامس الرفاق أنّها هناكْ
في جانب التلّ تنام نومة اللّحودْ
تسفّ من ترابها وتشرب المطر ؛
كأن صياداً حزيناً يجمع الشّباك
ويلعن المياه والقَدَر
وينثر الغناء حيث يأفل القمرْ .
مطر ..
مطر ..
أتعلمين أيّ حُزْنٍ يبعث المطر ؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر ؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضّياع ؟
بلا انتهاء — كالدّم المراق ، كالجياع ،
كالحبّ ، كالأطفال ، كالموتى — هو المطر !

ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ
سواحلَ العراق بالنجوم والمحار ،
كأنها تهمّ بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ .
أصيح بالخليج : « يا خليجْ
يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والرّدى ! »
فيرجعُ الصّدى
كأنّه النشيجْ :
« يا خليج
يا واهب المحار والردى .. »

أكاد أسمع العراق يذْخرُ الرعودْ
ويخزن البروق في السّهول والجبالْ ،
حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرّجالْ
لم تترك الرياح من ثمودْ
في الوادِ من أثرْ .

أكاد أسمع النخيل يشربُ المطر
وأسمع القرى تئنّ ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع ،
عواصف الخليج ، والرعود ، منشدين :
« مطر ...
مطر ...
مطر ...
وفي العراق جوعْ
وينثر الغلالَ فيه موسم الحصادْ
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشّوان والحجر
رحىً تدور في الحقول ... حولها بشرْ
مطر ...
مطر ...
مطر ...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل ، من دموعْ

ثمَّ اعتللنا – خوف أن نلامَ – بالمطر ...
مطر ...
مطر ...
ومنذ أنْ كنَّا صغاراً ، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطل المطر ،
وكلَّ عام – حين يعشب الثرى – نجوعْ
ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوعْ .
مطر ...
مطر ...
مطر ...
في كل قطرة من المطر
حمراءُ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ .
وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة
وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حُلمةٌ تورّدتْ على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتيّ ، واهب الحياة !
مطر ...
مطر ...
مطر ...
سيُعشبُ العراق بالمطر ... »

أصيح بالخليج : « يا خليج ..
يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردى ! »
فيرجع الصدى
كأنّـه النشيج :
« يا خليج
يا واهب المحار والردى . »
وينثر الخليج من هِباته الكثارْ ،
على الرمال ، : رغوه الأُجاجَ ، والمحار
وما تبقّـى من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظلّ يشرب الردى

من لجّة الخليج والقرار ،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرّحيقْ
من زهرة يربُّها الفرات بالنّدى .
وأسمع الصدى
يرنّ في الخليج
« مطر .
مطر ..
مطر ...
في كلّ قطرة من المطرْ
حمراء أو صفراء من أجنّةِ الزّهَرْ .
وكلّ دمعة من الجياع والعراة
وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد
أو حُلمةٌ تورّدت على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة . »

ويهطل المطرْ ..

سربروس في بابل

ليعوِ سَرْبروس[1] في الدروب
في بابلَ الحزينةِ المهدّمه
ويملأ الفضاءَ زمزمه ،
يمزّق الصغار بالنيوب ، يقضم العظامْ
ويشرب القلوبْ .
عيناه نيزكان في الظلامْ
وشدقُه الرهيب موجتان من مُدى

---

(١) الكلب الذي يحرس مملكة الموت ، في الأساطير اليونانية ، حيث يقوم عرش « برسفون » آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت . وقد صوره دانتي في « الكوميديا الإلهية » حارساً ومعذباً للارواح الخاطئة .

تخبىء الردى .
أشداقه الرهيبة الثلاثةُ احتراقْ
يؤجُّ في العراقْ —
ليعوِ سَربروس في الدروب
وينبش التراب عن إلهنا الدفينْ
تموزِنا الطعين ،
يأكله : يمص عينيه إلى القرارْ ،
يقصم صلبه القويَّ ، يحطم الجرار
بين يديْهِ ، ينثر الورود والشقيقْ .
أواه لو يُفيق
إلهنا الفتيُّ ، لو يُبرعمُ الحقولْ ،
لو ينثر البيادرَ النُّضارَ في السهول ،
لو ينتضي الحُسام ، لو يفجر الرعود والبروقَ والمَطرْ
ويطلق السيول من يديه . آه لو يؤوب !
لحافنا التراب ، فوقه من القَمَرْ
دمٌ ، ومن نهودِ نسوة العراق طينْ .
ونحن إذ نبصُّ من مغاور السنين

نرى العراقَ ، يسألُ الصغارُ في قراه
« ما القمحُ ؟ ما الثمرُ ؟ »
ما الماء ؟ ما المهود ؟ ما الإله ؟ ما البَشَرْ ؟
فكلُّ ما نراه
دمٌ ينزُّ أو حبالٌ ، فيه ، أو حُفَرْ .
أكانت الحياه
أحبَّ أن تُعاشَ ، والصغارُ آمنين ؟
أكانت الحقولُ تُزهرُ ؟
أكانت السماء تُمطر ؟
أكانت النساء والرجال مؤمنينْ
بأنّ في السماء قوّةً تدبِّرُ ،
تُحِسُّ ، تسمع الشكاةَ ، تُبصر ،
ترقُّ ، ترحم الضِّعافَ ، تغفر الذنوبْ ؟
أكانت القلوبْ
أرقَّ ، والنفوسُ بالصفاء تقطرُ ؟ »
وأقبلتْ إلهة الحصادْ ،
رفيقةُ الزهورِ والمياه والطيوبْ ،

عشتارُ ربّةُ الشمال والجنوبْ ،
تسير في السهول والوهادْ
تسير في الدروب
تلقط منها لحم تمّوزَ اذا انتثرْ ،
تلمّه في سلّةٍ كأنه الثمر .
لكنْ سربروسَ بابل – الجحيم
يحبُّ في الدروب خلفها ويركضُ ،
يمزّق النعالَ في أقدامها ، يعضعضُ
سيقانَها اللدانِ ، ينهش اليدين أو يمزّق الرداءْ ،
يلوّث الوشاح بالدمِ القديم
ويمزج الدمَ الجديدَ بالعواءْ .
ليعوِ سوبروسُ في الدروبْ
لينهش الإلهة الحزينةَ ، الإلهة المروّعة ؛
فأن من دمائها ستُخصب الحبوبْ ،
سينبت الالهُ ، فالشرائحُ الموزّعة
تجمّعتْ ؟ تململتْ . سيُولَدُ الضياءْ
من رَحِمٍ ينزّ بالدماء .

مدينة بلا مطر

مدينتُنا تؤرّق ليلَها نارٌ بلا لَهَبِ .
تُحمُّ دروبها والدُّور ، ثم تزول حمّاها
ويصبغها الغروبُ بكلّ ما حملتْه من سُحُبِ
فتوشك أن تطيرَ شرارةٌ ويهبّ موتاها :
« صحا من نومه الطينيّ تحت عرائش العِنَبِ ..
صحا تمّوزُ ، عاد لبابلَ الخضراءِ يرعاها . »
وتوشك أن تدقّ طبولُ بابلَ ، ثم يغشاها
صفيرُ الريح في أبراجها وأنينُ مرضاها .
وفي غرفات عُشْتارِ
تظل مجامر الفخّار خاويةً بلا نارِ ،

ويرتفع الدعاءُ ، كأن كلّ حناجر القَصَبِ
من المستنقعات تصيح :
« لاهثة من التَعَبِ
تؤوب إلهةُ الدمِ ، خُبْزُ بابلَ ، شمسُ آذارِ .
ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دارِ
لنسألَ عن هداياها .
جياعٌ نحن .. واأسَفَاه ! فارغتان كفّاها ،
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب .
سحائبُ مُرْعداتٌ مُبرِقاتٌ دون إمطارِ
قَضَيْنا العامَ ، بعد العام ، بعد العام ، نرعاها ،
وريحٌ تشبه الإعصار ، لا مرّت كإعصارِ
ولا هدأتْ – ننام ونستفيقُ ونحن نخشاها .
فيا أربابنا المتطلعين بغَيْر ما رحمهْ ،
عيونكمُ الحجار نُحِسُّها تنداح في العتمه
لترجمنا بلا نقمه ؛

تدور كأنهنّ رحىً بطيئاتٌ تلوكُ جفونَنَا ..
حتى ألفْناها ،

عيونكم الحجار كأنّها لبَنات أسوارِ
بأيدينا ، بما لا تفعل الأيدي ، بنيناها .
عذارانا حزانى ذاهلاتٌ حول عشْتارِ
يغيض الماء شيئاً بعد شيء من محيّاها ،
وغُصناً بعد غصْن تذبل الكرمه .
بطيءٌ موْتنا المنْسلُ بين النور والظلمة ،
له الويلاتُ من أسدٍ نكابد شدقه الأدردْ !
أنارُ البرق في عينيه أم من شُعلة المعبد ؟
أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار ؟
أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الأسود :
هنالك حيث يحمل ، كلّ عامٍ ، جُرحَه الناريّ ،
جُرحَ العالم الدوّار ، فاديهِ
ومنقذه الذي في كل عامٍ من هناك يعود بالأزهارِ
والأمطار — تجرحنا يداه لنستفيقَ على أياديهِ ؟

ولكن مرّتِ الأعوام ، كثراً ما حسبناها ،
بلا مطرٍ .. ولو قطرَه
ولا زهرٍ .. ولو زهره
بلا ثمرٍ — كأنّ نخيلنَا الجرداء أنصابٌ أقمناها
لنذبل تحتها ونموت .

سيِّدنا جفانا . آهِ يا قَبْرَه

أما في قاعك الطينيِّ من جرّة ؟
أما فيها بقايا من دماء الربّ . أو بذره ؟
حدائقه الصغيرة أمس جعنا فافترسناها :
سرقنا من بيوت النمْل ، من اجرانها ، دخْناً وشوفاناً
وأوشاباً زرعناها
فوفـيّنا — وما وفّى لنا — نذره ! » .

وسار صغار بابل يحملون سلال صبّارِ
وفاكهةٍ من الفخّار ، قرباناً لعشتار
ويشعل خاطفُ البرق ،

بظلٍّ من ظلال الماء والخضراء والنار ،
وجوهَهُم المدوَّرة الصغيرة وهي تستَسْقي .
فيوشك أن يفتّح – وهي تومِضُ – حقلُ نوّارِ
ورفّ – كأنّ ألف فراشةٍ نُثرتْ على الأفْقِ
نشيدُهم الصغيرُ :

« قبورُ إخْوتِنا تنادينا

وتبحثُ عنكِ أيدينا
لأنّ الخوفَ ملءُ قلوبنا ، ورياحَ آذارِ
تهزُّ مهودنا فنخاف . والأصواتُ تدعونا .
جياعٌ نحن مرتجفون في الظُلمه
ونبحث عن يدٍ في الليل تُطعمنا ، تغطّينا ،
نشدُّ عيوننا المتلفّتات بزندها العاري .
ونبحث عنكِ في الظلماء ، عن ثدييْن ، عن حُلْمَه
فيا مَن صدرُها الأفْق الكبير وثديُها الغيْمه
سمعتِ نشيجنا ورأيتِ كيف نموت .. فاسْقينا !
نموت ، وأنتِ – واأسفاه – قاسيةٌ بلا رحمه .

فيا آباءنا ، من يفتدينا ؟ من سيُحيينا ؟
ومن سيموت : يُولِمُ لحمَه فينا ؟ »
وأبرقت السماءُ كأنّ زنبقة من النارِ
تفتّح فوق بابل نفسِها . وأضاء وادينا ،
وغلغلَ في قرارة أرضِنا وَهجٌ فعرّاها
بكلّ بذورها وجذورها وبكلّ موْتاها .
وسحّ — وراءَ ما رفعتْه بابلُ حول حُمّاها
وحول ترابها الظمآن ، من عَمَدٍ وأسوارِ
سحابٌ .. كان لولا هذه الأسوار روّاها !
وفي أبَدٍ من الاصغاء بين الرعد والرعدِ
سمعنا ، لا حفيفَ النّخل تحت العارض السحّاح
أو ما وشْوشتْه الريحُ حيث ابتلّت الادواحْ
ولكنْ خفقةَ الاقدامِ والأيدي
وكركرةً و « آهَ » صغيرةٍ قبضتْ بيُمناها
على قمَرٍ يرفرُفُ كالفراشةِ ، أو على نجْمَه ..
على هبةٍ من الغيْمه ،
على رعشاتِ ماءٍ ، قطرةٌ همستْ بها نسمَه
لنعلم أنّ بابلَ سوف تُغسَل من خطاياها !

بور سعيد

يا حاصدَ النــــار من أشلاء قتلانا
منكَ الضحايا ، وإن كانوا ضحايانا
كم من ردىً في حياةٍ ، وانخذالٍ ردىً
في ميتةٍ ، وانتصارٍ جاء خذلانا !
إنّ العيون التي طفّأتَ أنجُمَها
عجّلْن بالشمس أن تختــــار دنيانا
وامتدّ ، كالنور ، في أعماق تربتنا ،
غرسٌ لنا من دمٍ ، واخضلّ موتانا
فازلْزِلي يا بقـــايا كاد أوّلُنـــا
يُبقي عليهـا ، من الأصنام ، لولانا

نحن الذين اقتلعنا من أسافِلِهـــا
لاةَ وعُزّى ، وأعليْناهُ إنسانا .
حُيِّيتِ بورْتَ سعيدٍ من مسيلِ دمٍ
لولا افتداءٌ لمـــا يُغليه ، ماهـــانا
حُيِّيتِ من قلعةٍ صمّاءَ ناطـَحَها
عادٍ من الوحش يُزجيهنّ قُطعانـــا
عاناكِ في الليّل داجٍ من جحافِلِها :
نوراً من اللهِ أعمـــاها ونيرانـــا
ما عـــاد ليلٌ قد استخفى بأقنعةٍ
من أوجُهِ الناس ، لولا أنتِ ، عرْيانا
ليلٌ تُعيدُ الكهوفُ السودُ آنيـــةً
فيهـــا وفكـّاً لموتاهـــا وصَوّانا
من بعضِ ما فيه من ظلماءَ ، ما عُرفتْ
باسمٍ لها ، فهي قبلَ اسمٍ اذا كانا
حُيِّيتِ من قلعةٍ ما آدَ كاهلهـــا
عِبْءُ السماوات إلاّ خفّ إيمـــانا

أمسكتِها أن يميد الظـــالمون بها
دِيناً لنــا وانتصاراتٍ وعُنوانا .
يا مرفأ النور ، ما أرجعتِ وادعة
من غـير زاد ، ولا آويتِ قُرصانا
ولا تلفظتِ من مرساكِ معتديـــاً
إلا مدمّى ذليلَ الهــام خَزْيانا
جمّعتِ من شطّ صورٍ لمنحَ أحرُفِها
واخترتِ من بابلٍ واحتزْتِ مروانا
والنيلُ ساقَ العذارى من عرائسه
للخِصْب، في موكب الفادين، قُربانا !
فالوَيْل.. لو كان للعادين ما قدَروا !
لانهدّ من حاضرٍ ماضٍ فأخزانـــا
فلا ابتنى هرماً بانٍ ، ولا لبستْ
تيجانَها ، في انتظار الروحِ ، موتانا
ولا تفجّر في « ذي قارَ » فِتْيَتُها
ولا تنفّستِ الصحراءُ قُرآنا !

حُيّيتِ موتى ، وأحياءً ، وأبليةً
مستشهداتٍ أو استعصينَ أركانا
والنار والباذرونَ النار كم زرعوا
من كلِّ ثكلى لعزرائيل بُستانا !
من كلِّ وَجهٍ لطفلٍ فيه زنبقـــةٌ
تَدْمى ، وتلثمُ فيه الرّيح غِرْبانا
الجوّ ممـــا يلزّون الحديدَ بـــه
قاعُ الجحيم التظى وانصبّ طوفانا
سقّاكِ من كلّ غيمٍ فيه أحرَزَهُ
جوفُ الثرى واشتهتْه النارُ أزمانا
كأسَ الرّصاص التي غنّى بتوأمها
«سقراطُ»وابتلّ منها جرحُ وهرانا[1]
من أيّما رئةٍ ؟ من أي قيثارِ
تنهلُّ أشعاري ؟
من غابةِ النارِ ؟

(١) أجبر الفيلسوف الأغريقي سقراط على تجرع كأس من السم .

أم من عويل الصبايا بين أحجار

منها تنزُّ المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار ؟

من أيّ أحداق طفلٍ فيكِ تغتصَبُ ؟

من أيّ خبزٍ وماءٍ فيك ما صلبوا ؟

من أيّما شُرْفةٍ ؟ من أيّما دارٍ ؟

تنهلُّ أشعاري

كالثارِ ؟

كالنور في رايات ثوّار ؟

من مائلكِ السهران أوتاري ؟

أم بُرجكِ الهاري

يبكي دماً من جرح بحّار ؟

أطفالكِ الموتى ، على المرفإ

يبكون في الريح الشماليه ،

والنور من مصباحه المطفإ

قد غار كالمديه

في صدريَ العاري .

أطفالك الأموات عارُ الحديدْ
في عرسه الدامي ، وذلُّ الرصاصْ ،
مالوا بملك من شقاء العبيد
واستنزلوا أربابه للقصاص
في ساحة النارِ .
يبكون في الريح الشماليه
أسرى ، على السُّفْن الصليبيه ،
والريح كالمديه
تجتثُّ أظفاري .
يبكون .. في داري .

بالقشّ والطين سدّوا كوّةَ القمَرِ ،
والريحُ في الشجر
قد كمّموا فاها ،
كي لا تصيح : اخبئوا عن أعيُن الغَجَرِ
أطفالكم ، فهي ما ترتدُّ احداها

إلا وحال الذي تلقى ، إلى حَجَرِ ،
الريحُ قيثاري
قد كمّموا فاها

هاويكِ أعلى من الطاغوت فانتصبي
ما ذلّ غيرُ الصفا — للنار — والخشبِ
حُيِّيتِ من قلعةٍ شقّ الفضاءَ بها
أسٌّ لها في صدور الفتيةِ العرب
الطين فيها دمٌ منا ، وجندلُها
من عزمةٍ ،والحديد الصلْدُ من غضب
أنتِ السماواتُ والأرض، التي خُلِقت
في عشرةٍ تحسِب الأيام بالحُقُب
والصخر فيكِ استمدّ الروحَ إذ لمست
عُقمَ الجماداتِ فيه إصبَعُ اللّهب
في كلّ أنقاض دار ، من صفاه يدٌ
جبّارةٌ تصفع العادين كالشهب

مـــا انهدّ إلا وأعلى في ضمائرنا
سدّاً من الثار أعيى حيلة النـّوَب .
والماء ، حتى زلالُ الماءِ ، فيكِ مُدىً
من فضّة الله تُوهي جحفـــل الذهب
مـا بـــلّ للجحفل المأجور غُلّته
حتى جبى قِدْرَ ماءٍ من دمٍ سرب !
أملى على كلّ شيء فيكِ جوهَرَه
حِلْفٌ لجيشين: ذي قُربى وذي أرَب
إن الحديدَ الذي صُنتِ الحياةَ بـه
غيرُ الحديـــد الذي وافاكِ بالعطب
والخـير في بُندقياتٍ قذائفهـــا
حتفُ المغيرين ، والميلادُ في قُضُب
لكنه الشرُّ في خبزٍ حقائبُه
عونٌ لأعدائكِ الجوعى ، وفي قِرَب !
ليت المسيحَ الذي داجى بشِرْعتِه
من باع مثواه ، راءٍ فيك عن كثب :

خرسٌ نواقيسكِ الثكلى ، ودامية ٌ
فيكِ الأناجيلُ ، والموتى بلا صُلبُ
والحابس الماءَ عن جرحاكِ حمّلها
عبءَ الصليبين: من حُمّى ومن خشب
واستنطق الأمّ ثكلى : أين جيرتها
من فتيةٍ لاصطياد العسكر اللّجب ؟
فالتمّ في مقلتيها ، وهي تنظره ،
كلُّ المخاضات والتسهيد والنّصَب
كأنما استودعتها كلُّ والدةٍ
آجالَ كلّ الذراري طيلة الحقبِ
فاختارت الموت معلوكاً مراضعُها ،
معروكةً في رحىً تترى من الرُكَبِ
تفدي بما يستبيح الجندُ من دمها
والنار،أعراضَ كلّ الخرّدِ العُرُبِ .
أبناءُ «جنكيزَ»في روحٍ، وان بعدوا
في نسبةٍ :ربّ قُربى دون مُنتَسَب

شرُّ اللصوص، اذا عفَّ التتارُ .. فما
عفـّوا عن الرّيش والأسمال واللـُّعَبِ !
فلتنفـخ الصُّورَ في أفريقيا أمَمٌ
بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُّتبِ
ولتـُسمعنَّ الزنوج البيض صيحتها :
« إنا الى الله أدنى منكِ في نسب» !
حُيـِّيتِ فالوحش أوهى فيك مخلبهُ ؛
يا غابة النار قـد أثمرْتِ بالغَلـَب !

من أيّ عبءٍ على روحي ومسمارِ
من أعينٍ ، في صليب تحت أسواري ،
تأتيكِ أشعاري ؟
حمراءَ خضراءَ من جُرحٍ ومن غارِ ،
خضراءَ من راية ، حمراءَ من نار ،
خضراءَ كالماء في فردوسكِ الجاري ؟
يا ليت أوتاري

خضراءُ حمراءُ من قلبي ومن ثاري !
يا ليتَ أبوابَ قلبي منكِ تلتهبُ !
يا ليتها دون قُفلٍ ، ليتها خشَبُ !
أو خرّبَ الجندُ قلبي ، فهي تنتحبُ
في كلّ إعصار !
سودٌ ، كما اسودّت الأموات ، أنهاري
فالطين فيها فمٌ يمتصُّ أسفاري ،
والريحُ في داري
سوداءُ ما رفَّ منها باللّظى عَصَبُ .
لا تسألي بعدُ عنها : إنها عشُب
أعواده السود غذّى عجلهُ الذهبُ
منها ، فخبأتُ في عينيّ قيثاري !
كوني لاشعاري
وحياً ، وشدّي ببأسٍ منك أوتاري .
يا مرفأ النور ، كن مرمىً لافكاري !
يا مرفأ النار

ألهبتَ أغواري

بالثارِ

مزّقت عنها سودَ أستارِ

فانهلّتِ الشمسُ على داري .

كم من دفين ، كلٌّ ماء القنال

في مدّه العاتي وفي جزرهِ ،

يلقي على صدرهِ

عبئاً من الظلماء — كان القتال

من أجل أن يرتاحَ في قبرهِ !

ما كان إلاّ من دموع الرجال

والنسوة الباكين في قمره ،

هذا الذي بين العُبابيْنِ سال !

كالليل هذا الماءُ فوق القبورْ

كالنار ، كالإعصار ، كالداء :

تختضُّ في ليل الخليج الصدور ،

والشمسُ تحسو كلَّ ماءِ الصدور
في عالمٍ لم تمشِ فيه العصور —
من مُلتقى للماء بالماء !
كالليلِ هذا الماء ، نِد الحياه :
الموْت والميلاد بوّابتاه .
في قاعِهِ الموتى قد استبدلوا
بالنبض ، ما يُرغي به المرجلُ
في موقرات ، من سفين الغزاه ،
بالموتِ مما يصنع المعملُ .
حتى اذا ما رشَّ عارَ العُتاه
بالدمعِ من عينيه ، والنارِ
من قلبه المورق بالغارِ ،
انسانُكِ العملاق ظِلَّ الإله ،
ظِلٌّ الملايين التي مقلتاه
عنها ترى ما في خيال تراه ،
هذا الذي أعصابُها في قِواه —

أحيى دمَ الموتى ، فخرّ الطغاه !
فليحرسِ الاحياء باب الحياه !

غاضَ المغيرونَ عن واديكِ وانحسروا
فالأرضُ تدمى بقتلاهـــا وتزدهرُ
وازدارِكِ الموتُ لا مُلْبساً ملامحه
بيضاً ، كما تهلكُ الأنعـــام والشجَر
حاشاكِ ! فالموتُ توري فيكِ حدّتُه
طعمَ الدم الحيّ ، ما يرقى به البشر
أخفاهُ عنك التزامٌ واشتباكُ يـدٍ
في مثلها ، فهو حيثُ اجتازهُ البصر
حتى إذا ارتدّ واستبشعتِ صورتهُ
أدركتِ أيّ انتصارٍ ذلك الظّفرُ !
أدركتِ أنّ الضحايا ردّ كاثرَها
فيكِ الأقلُّ المضحّي أنّها كثُر
من سدّدَ النارَ في أيديكِ ، يوردها
كيْدَ المغيرينَ منـه الظنُّ والنظر ؟

واحتاز في قلبه الاحقابَ ، يزرعها
في جانبٍ منه واستبسالكِ الثمر ؟
واستنفر الشرق حتى كاد ميّته
يسعى ؟ أهذا صلاحُ الدين أم عمَر ؟
هذا الذي حدثتنا عنه أنفسنا
في كلّ دهياءَ نبلوها وننتظر
هذا الذي كلّ ، عن سحقٍ لبذرته
بالخيل والذابلات ، الرومُ والتتر
يا أمّةً تصنع الأقدارَ من دمها
لا تيأسي . انّ «سيف الدولة» القدر
أعطى لكلّ انتصارٍ فيك جدّتَهُ
فاخضلّ واخضلت الآياتُ والسُّوَرُ
في مسجدٍ أمّ مشتاءٌ بأمّتِه
فيه المصلّين ، حتى كبَّرَ الحجر !
واستشرفَ الساحَ ناءٍ عنه يحمله
ما بين جنبيْه ، رامٍ فيه منتصر :

عينٌ لسيناءَ ترقى كلَّ رابيةٍ
فيها ، وعينٌ وراء النيل تنحدر
أو تنفِضُ الأفقَ ، حتى ضاءَ من لهبٍ
حملاقها ، فهي ممّا راءَ تستعِر !
جاؤوك ! جاء الصليبيون ، قاصفة
تنقضُ في أثرْ أُخرى ، فاللظى مطر
في كلِّ فانوس موتى من قذائفها
نورٌ له اختضّت الابعادُ والعُصُر
فالشرق عارٍ مدى عينيْه ، منبسطٌ
كالراحة : الدور ، والأكواخ والحُفر
يكاد يبصر ما أبقاه مكتدَحٌ
في جبهةٍ ، واغتذى من مقلةٍ سَهرُ
إيماضةَ البرق : الا أنها حقبٌ
تُطوى ، ومستقبل يُبْنى ويدّخر !
المجد لله والإنسان : ان يداً
تحيي وقلباً يداوي ، منهما أثر !

يا قلعــــة النور تدمى كلُّ نافذةٍ
فيها ، وتلظى، ولا تستسلم ، الحُجَر
أحسَسْتُ بالذُّل أن يلقاكِ دونَ دمي
شمري ، وأني بما ضحَّيْتِ أنتصر
لكنّها باقةٌ أسعى اليكِ بهـــا
حمراءُ يخضلُّ فيها من دمي زهَر !

١٩٥٦

المومس العمياء

الليل يُطبق مرّةً أخرى، فتشربه المدينه
والعابرون، إلى القرارة .. مثل أغنيةٍ حزينه.
وتفتحت، كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق،
كعيون «ميدوزا»[1]، تحجّر كل قلب بالضغينه،
وكأنها نذرٌ تبشر أهل «بابل» بالحريق

..

من أي غاب جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف
من أي وجر للذئاب؟

(١) في الأساطير اليونانية أن عيون ميدوزا تحول كل من تلتقي بها عيناه الى حجر.

من أي عش في المقابر دفَّ أسفع كالغراب ؟
« قابيل »[1] أخفِ دم الجريمة بالأزاهر والشفوف
وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء
ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء
عمياء كالخفاش في وضح النهار ، هي المدينه ،
والليل زاد لها عماها .
والعابرون :
الأضلع المتقوّسات على المخاوف والظنون ،
والأعين التعبى تفتش عن خيال في سواها
وتعدّ آنية تلألأ في حوانيت الخمور :
موتى تخاف من النشور
قالوا سنهرب ، ثم لاذوا بالقبور من القبور !

من هؤلاء العابرون ؟

---

(١) في القرآن الكريم أن الغراب هو الذي أرشد قابيل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله .

أحفاد « أوديب »[1] الضرير ووارثوه المبصرون .
(جوكست) أرملة كأمس ، وباب «طيبة» ما يزال
يُلقي « أبو الهول » الرهيب عليه ، من رعبٍ ظلال
والموت يلهث في سؤال
باقٍ كما كان السؤال ، ومات معناه القديم
من طول ما اهترأ الجواب على الشفاه .
وما الجواب ؟

« أنا » قال بعض العابرين ...
وانسلّت الأضواء من باب تثـــاءب كالجحيم
تطفو عليهن البغايا كالفراشات العطـــاش
يبحثن في النيران عن قطرات ماء.. عن رشاش.

---

(١) تزوج « أوديب » امه « جوكست » وهو لا يدري بأنهـــا أمه . وطيبة هي المدينة التي دخلها بعد أن قتل أباه ملك طيبة ، فتزوج أمه ، زوجة الملك القتيل . وكان « أبو الهول » يحرس مدخل المدينة ويلقي على كل غريب يداخلها سؤالاً : « ما الكائن الذي يمشي على أربع في الفجر واثنتين في الظهيرة وثلاث في المساء » وقد حل أوديب هذا اللغز وكان الجواب . « الانسان » .

لا تثقلن" خطاك فالمبغى «علاني»[1] الأديم :
أبناؤك الصرعى تراب تحت نعلك مستباح ،
يتضاحكون ويعولون .
أو يهمسون بما جناه أب يبرّؤه الصباح
مما جناه ، ويتبعون صدى خطاك الى السكون

الحارس المكدود يعبر ، والبغايا متعبات ،
النوم في احداقهن يرفّ كالطير السجين ،
وعلى الشفاه أو الجبين
تترنح البسمات والأصباغ ثكلى ، باكيات ،
متعثرات بالعيون وبالخطى والقهقهات ،
وكأن عارية الصدور
أوصال جندي قتيل كللوها بالزهور ،
وكأنها درج الى الشهوات ، ترحمه الثغور

(١) نسبة الى أبي العلاء المعري ، الأعمى والقائل « ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الاجساد » و « هذا جناه ابي علي ... » .

حتى يهدّم أو يكاد . سوى بقايا من صخور .

جيفٌ تستّرُ بالطلاء ، يكاد ينكر من رآها
أن الطفولة فجّرتها ، ذات يومٍ ، بالضيـــاء
كالجدول الثرثار — أو أن الصباح رأى خطاها
في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء ،
ويكاد ينكر أن شقاً لاح من خلل الطـــلاء
قد كان — حتى قبل اعوام من الدم والخطيئه —
ثغراً يكركر ، أو يثرثر بالأقاصيص البريئه
لأبٍ يعود بما استطاع من الهدايا في المساء :
لأبٍ يقبّل وجـــه طفلته النديَّ أو الجبينْ
أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء .
ما كان يعلم أن ألف فمٍ كبئرٍ دون ماءْ
ستمصُّ من ذاك المحيا كل مـــاء للحياء
حتى يجفّ على العظام — وأن عاراً كالوباء
يصم الجباه فليس تُغسل منـــه إلا بالدماء

سيحلّ من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين ـ
والساعدين الأبيضين ، كما تنوّرُ في السهولْ
تفاحة عذراء ، سوف يطوّقان ، مع السنين
كالحيتين ، خصور آلاف الرجـال المتعبين
الخارجين ، خروج آدم ، من نعيم في الحقول
تفاحه الدمُ والرغيف وجرعتان من الكحول
والحية الرقطاء ظلّ من سياط الظالمـــين
يا أنتَ ، يا أحد السكارى ،
يا من يريد من البغايا ما يريدِ من العذارى
(ما ظلّ يحلم، منذ كان، به ويزرع في الصحارى
زبد الشواطىء والمحارا
مترقباً ميلاد « أفروديت »[1] ليلاً أو نهارا)
أتريد من هذا الحطام الآدميّ المستباحْ
دفءَ الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح
ودواءَ ما تلقاه من سأمٍ وذلٍّ واكتداح

(١) في أساطير الاغريق أن « أفروديت » ولدت من زبد البحر ونزلت محمولة على صدفة محار .

المال ، شيطان المدينه
لم يحظ ، من هذا الرهان ، بغير أجساد مهينه
« فاوست »[1] في أعماقهن يعيد أغنية حزينه
المال، شيطان المدينة، ربُّ «فاوست» الجديد
جارت على الأثمان وفرة ما لديه من العبيد ،
الخبز والأسمال حظُّ عبيده المتذللـــين
مما يوزع من عطايا — لا اللآلىء والشباب ،
والمومس العجفاء—لا«هيلين»[2]، والظمأ اللعين
لا حكمة الفرح المجنّح والخطيئة والعذاب
الخيل من سأم تحمحم وهي تضرب بالحوافر[3]

---

(١) تراهن الله والشيطان على فاوست ، وزعم الشيطان أنه يستطيع شراؤه روحاً وجسداً .. وقبل فاوست بأن يبيع نفسه فوضع الشيطان نفسه في خدمته لقاء ذلك . فرد عليه الشباب ووهبه اللآلىء والمال وأراه شبح هيلين الاغريقية .

(٢) وفي النهاية لم يحصل الشيطان إلا على جسد فاوست ، بينما صعدت روحه إلى السماء .

(٣) البيت من «فاوست» لغوته ، يقوله الشيطان لفاوست حين كان يزور مرغريت « التي غرر بها وقتل أخاها وولدت طفلاً فقتلته » وهي في سجنها .

حجر الطريق .

هلمَّ : فالحوذي يبحث عن مسافر
والريح صرٌّ ، والبغيُّ بلا زبائن منذُ حين .
إن لم تضاجعها وصدٌّ سواك عنها معرضينَ
فكيف تحيا ، وهي ، مثلك لا تعيش بلا طعام ؟
لا تخشَ منها أن تُراعَ بما تآكَّلَهُ الجذام
من صدرك النخر العريض . وأنت ويحك يا أخاها
ماذا تريد ، وعمَّ تبحث في الوجوه ؟ ويا أباها
أطعن بخنجرك الهواء .. فأنتما لن تقتلاها .
هي لن تموتْ :
سيظل غاصبها يطاردها وتلفظها البيوت
ستظلّ — ما دامت سهام التبر تصفر في الهواء —
تعدو ، ويتبعها « أبولو »[1] من جديد كالقضاء ،

---

(١) كانت « دفني » ابنة إله صغير ، إله أحد الأنهار وقد رآها « ابولو » إله الشمس الجبار فأحبها وطاردها محاولاً اغتصابها . وقد استنجدت بأبيها فرشها بجفنة من الماء وأحالها إلى شجرة غار تضفر من أغصانها الأكاليل للأبطال. أما سهام التبر ، الذهب ، فهي السهام التي كان كيوبيد يرشق بهـا قلب ابولو ليلهب الحب فيه وقد استعرتها رمزاً لسطوة المال .

وتظلّ تهمس ، إذ تكاد يداه أن تتلقّفاها :
« أبتي ... أغثني » بيد أنك لا تصيخ إلى النداء ،
لو كنت من عرق الجبين ترشّها ومن الدمـــاء
وتحيلهـــا امرأة بحقٍ ، لا متاعـــاً للشراء
كلّلتَ منها ، بالفخار وبالبطولات ، الجباها !

وكأن ألحاظ البغايا .
إبَرٌ تُسَلُّ بهـــا خيوط من وشائعَ في الحنايا
وتظـــل تنسج ، بينهن وبين حشد العابرين ،
شيئاً كبيت العنكبوت يخضّه الحقـــد الدفين :
حقدٌ سيعصف بالرجالْ
والأخريات ، النائمات هناك في كنف الرجـــال
والساهرات على المهود وفي بيوت الأقربـــين
حول الصلاء بـــلا اطّراحٍ للثياب ولا اغتسال
في الزمهرير ، ودون عدٍّ لليالي والسنين !

ويمرُّ عملاق يبيع الطير ، معطفه الطويلْ
حيران تصطفق الرياح بجانبيه ، وقبضتاه
تتراوحان : فللرداء يدٌ وللعبء الثقيلِ
يدٌ ، وأعناق الطيور مرنحات من خطاه
تدمى كأثداء العجائز يوم قطّعها الغزاه .
خطواته العجلى ، وصرخته الطويلة : « يا طيورْ
هذي الطيور ، فمن يقول تعال ... »
أفزعها صداه
يأتيه من غُرَف البغايا كاللهاث من الصدور .
ويدٌ تشير إليه عن كثب ، وقائلة تعال !
بين التضاحك والسعال :
عمياء تطفىء مقلتاها شهوة الدم في الرجال .
وتحسّسته كأن باصرةً تهمُّ ولا تدور
في الراحتين وفي الأنامل وهي تعثر بالطيور ،
وتوسلته : « فدى لعينك – خلّني . بيدي أراها » .
ويكاد يهتك ما يغلّف ناظريها من عماها

قلبٌ تحرّق في المحاجر واشرأبَّ يريد نور !
وتمسّ أجنحة مرقّطة فتنشرها يداها ،
وتظل تذكر — وهي تمسحهن—أجنحة سواها
كانت تراها وهي تخفق .. ملء عينيها تراها:
سربٌ من البطّ المهاجر ، يستحثُّ الى الجنوب
أعناقه الجذلى .. تكاد تزيد من صمت الغروب
صيحاتُه المتقطعات ، وتضمحل على السهوب
بين الضباب، ويهمس البرديّ بالرجع الكئيب.
ويرج وشوشة السكونْ
طلْقٌ ..فيصمت كل شيء ..ثم يلغط في جنون.
هي بطّة فلمَ انتفضتِ ؟وما عساها أن تكون؟
ولعل صائدها أبوكِ ، فأن يكنْ فستشبعون.
وتخفّ راكضةً حيال النهر كي تلقى أباها :
هو خلف ذاك التل يحصد. سوف يغضب إن رآها.
مرّ النهار ولم تُعنه .. وليس من عونٍ سواها
وتظل ترقى التل وهي تكاد تكفر من أساها.

... ...

يا ذكرياتُ علامَ جئتِ على العمى وعلى السهاد؟
لا تمهليها ، فالعذاب بأن تمرّي في اتئـــاد .
قصّي عليها كيف مات وقد تضرّج بالدماء
هو والسنابل والمساء —
وعيون فلاحين ترتجف المذلّة في كراهـــا
والغمغمات : «رآه يسرق.. » ، واختلاجات الشفاه
يخزين ميّتها ، فتصرخ : « يا إلهي ، يا إلهي ...
لو ان غير «الشيخ»! » وانكفأت تشدّ على القتيل
شفتين تنتهبان منه أسى وحباً والتياعـــا
وكأن وسوسة السنابل والجـــداول والنخيل
أصداء موتى يهمسون : « رآه يسرق » في الحقول
حيث البيـــادر تقصد الموتى فتزداد اتساعا !

... ...

وتحسّ بالدم وهو ينزف من مكانٍ في عماهـــا
كالماء من خشب السفينة ، والصديد من القبور ،

وبأدمع من مقلتيها كالنمال على الصخور
أو مثل حبات الرمال مبعثرات في عماها
يهوين منه الى قرارة قلبها آهاً فآها .
ومن الملوم وتلك أقدارٌ كُتبن على الجبين ؟
حتمٌ عليها أن تعيش بعرضها ، وعلى سواها
من هؤلاء البائسات . وشاء رب العالمين
ألا يكون سوى أبيها – بين آلاف – أباها
وقضى عليه بأن يجوع
والقمح ينضج في الحقول من الصباح الى المساء
ويأن يلصّ فيقتلوه .. (وتشرئب الى السماء
كالمستغيثة ، وهي تبكي في الظلام بلا دموع)
والله – عزّ الله – شاء
ان تقذف المدنُ البعيدة والبحار إلى العراق
آلاف آلاف الجنود ليستبيحوا ، في زقاق
دون الأزقة أجمعين
ودون آلاف الصبايا ، بنت بائعة الرقاق :

تلك الشقيّة ، ياسمين .

(ذاك اسم جارتها الجديد ، فليتها كانت تراها

هل تستحق اسمـــاً كهذا : ياسمين وياسمين ؟)

ومن الذي جعل النساء

دون الرجال، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء ؟

الله — عزّ وجلّ — شاء

ألا يكنْ سوى بغـــايا أو حواضن أو إمـاء

أو خادماتٍ يستبيح عفافَهـــن المترفونْ

أو سائلاتٍ يشتهيهن الرجـــال المحسنون !!

لو لم تكن أنثى ! — وتسمع قهقهاتٍ من بعيد :

« عباس » عاد من الترصّد بالرجال على الوصيد

ولسوف تنزح راحتاه غُسالة الضيف الجديد .

لو لم تكـن انثى .. وتسمع قهقاتٍ من بعيد .

يا ليت حمّالاً تزوجها يعود مع المساء

بالخبز في يده اليسار وبالمحبـــة في اليمين .

لكن بائسة سواهـــا حدثتها منذ حـــين

عن بيتها وعن ابنتيها ، وهي تشهق بالبكاء :
عن زوجها الشرطيّ يحمله الغروب إلى البغايا
كالغيمة السوداء تُنذر بالمجاعة والرزايا ،
أزراره المتألّقات على مغالق كل باب
مُقَلُ الذئاب الجائعات ترود غاباً بعد غاب
وخطاه مطرقة تسمّر ، في الظلام ، على البغايا
أبوابهنّ إلى الصباح – فلا اتّجارٌ بالخطايا
إلا لعاهرةٍ تُجاز بأن تكون من البغايا ...
ويظلّ يخفرهن من شبعٍ ، وينثر في الرياح
أغنيّةً تصف السنابل والأزاهر والصبايا ،
وتظل تنتظر الصباح وساعديه مع الصباح
تصغى – وتحتضن ابنتيها في الظلام – إلى النباح
وإلى الرياح تئنّ كالموتى وتعول كالسبايا
وتُجمّع الأشباح من حفر الخرائب والكهوف
ومن المقابر والصحارى بالمئات وبالألوف ..
فتَقِفُ من فزعٍ وتحجب مقلتيها بالغطاء ،

ويعود والقبش الحزين يرشّ بالطـــل المضاء
سعفَ النخيل .. يعود من سهرٍ يئن ومن عياءِ
ـ كالقيمة اعتصرت قواها في القفار ، وترجّيها
عبرَ التلال قوىً تجوع ـ لكي ينام الى المساء :
عيشٌ أشقُّ من المنيّة ، وانتصـــار كالفناء
وطوى يصبّ من الدماء وسمٌ أقسى في الدماء
وعيون زانٍ يشتهيها ، كالجحيم يشعّ فيهـــا
سخرٌ وشوق واحتقار ، لاحقتها كالوباء ...
والمال يهمس أشتريك وأشتريك فيشتريهـــا
... ...
... ...
يا ليتها ، إذنٍ انتهى أجلٌ بها فطوى أساها !
«لو أستطيع قتلتُ نفسي..» همسةٌ خنقت صداها
أخرى توسوس : « والجحيم؟ أتصبرين على لظاها؟
وإذا اكفهرّ وضاق لحدك ، ثم ضاق ، إلى القرارِ
حتى تفجّر من أصابعك الحليب رشاش نارِ

وتساءل الملكان : فيمَ قتلتِ نفسك يا أثيمه ؟
وتخطّفاك الى السعير تكفرين عن الجريمه .
أفتصرخين : أبي ! فينفض راحتيه من الغبارِ
ويخف نحوك وهو يهتف : قد اتيتك يا سليمه ؟ »
حتى اسمُها فقدته واستترت بآخر مستعارِ
هي – منذ أن عميَت – « صباحُ » ...
فأيُّ سخريةٍ مريره !
أين الصباح من الظلام تعيش فيه بلا نهار
وبلا كواكبَ أو شموعٍ أو كوى وبدون نار ؟
أوَ بعد ذلك ترهبين لقاء ربّك أو سعيره ؟
القبر أهون من دجاك دجىً وأرفق ، يا ضريره
يا مستباحة كالفريسة في عراءٍ ، يا أسيره
تتلفّتين الى الدروب ولا سبيل إلى الفرارِ ؟

... .

وتحسّ بالأسف الكظيم لنفسها : لِمَ تُستباح ؟
ألهر نامٍ على الأريكة قربها .. لِمَ تستباح ؟

شعبان أغفى ، وهي جائعة تلمّ من الرياح
أصداء قهقهة السكارى في الأزقــــة ، والنباح
وتعدّ وقع خطى هنا وهناك : ها هو ذا زبون
هو ذا يجيء – وتشرئبّ ، وكاد يُلمس.. ثم راح
وتدقّ في أحد المنازل ساعة .. لِمَ تستباح ؟
الوقت آذن بانتهاءٍ والزبائن يرحـــلون .
لِمَ تستباح وتستباح على الطوى ؟ لِمَ تستباح ؟
كالدرب تذرعه القوافل والكلاب إلى الصباح ؟
الجوع ينخر في حشاها ، والسكارى يرحلون ،
مروا عليهـا في المساء وفي العشية ينسجون
حلماً لها هي والمنون :
عصبَات مهجتها سداه وكل عرق في العيون ،
والآن عادوا ينقضون –
خيطاً فخيطاً من قرارة قلبهـــا ومن الجراح –
ما ليس بالحلم الذي نسجوه ، ما لا يدركون ...
شيئاً هو الحلم الذي نسجوا ومـــا لا يعرفون ،

هو منه أكثرُ : كالحفيفِ من الخمائل والرياح ،
والشعرِ من وزن وقافيـــة ومعنى ، والصباح -
من شمسه الوضاء... وانصرفوا سكارى يضحكون!
فلـْيرحلوا . ستعيش ، فهي من السعال ومن عماها
أقوى ، ومن صخب السكارى .
فامض عنا يا أساها !
ستجوع عاماً أو يزيد ، ولا تموت . ففي حشاها
حقدٌ يؤرّث من قواها .
ستعيش للثأر الرهيب
والداء في دمها وفي فمها . ستنفث من رداهـــا
في كل عرق من عروق رجالها شبحاً من الدم واللهيب ،
شبحاً تخطّفَ مقلتيها أمسِ ، من رجلٍ أتاها
ستردّه هي للرجـال ، بأنهم قتلوا أباهـــا
وتلقّفوها يعبثون بها وما رحموا صباهـــا ،
لم يبتغوها للزواج لأنهـــا امرأة فقـــيره ،
واستدرجوها بالوعود لأنهـــا كانت غريره ،
وتهامس المتقوّلون فثار أبناء العشيره

متمطشين – على المفارق والدروب – إلى دماها .
وكأن موجة حقدها ورؤى وأساها .
كانت تقرّب من بصيرة قلبها صوراً علاهـا
صدأ المدينة وهي ترقد في القرارة من عماهـا :
كل الرجال ؟ وأهل قريتها ؟ أليسوا طيبين ؟
كانوا جياعاً – مثلهـا هي أو أبيها – بائسين ،
هم مثلها – وهم الرجال – ومثل آلاف البغايـا
بالخبز والأطمار يُؤتَجَرون ، والجسدُ المهين
هو كل مـا يتملّكون ، هم الخطاة بلا خطايا
وهم السكارى بالشرور كهؤلاء العـابرينَ
من السكارى، بالخمور.. كهؤلاء الفاجرين بلا فجور
الشاربين – كمن تضاجع نفسهـا – ثمن العشاء
الدافنين خروق باليـة الجوارب في الحذاء ،
يتساومون مع البغايـا في العشيّ على الأجور
ليوفّروا ثمن الفطور !
ليس الذين تغصّبوهـا من سلالة هؤلاء :
كانوا كآلهـة مقطّبة الجبـاه من الصخور

تمتصُّ من فزع الضحايا زهوهـا ومن الدماء
متطلعين الى البرايا كالصواعـق من علاء !
وتحسّ ، في دمهــا ، كآبة كلّ أمطار الشتاء
من خفْق أقدام السكارى ، كالأسير وراء سور
يصغي الى قرع الطبول يموت في الشفق المضاء .
هي والبغايا خلف سورٍ ، والسكارى خلف سور ،
يبحثن هنّ عن الرجال ، ويبحثون عن النساء ،
دميتْ أصابعهن : تحفر والحجارة لا تلــين ،
والسور يمضغهن ثم يقيئهن ركام طــين :
نصباً يخلّد عــار آدم واندحار الأنبياء ،
وطلول مقبرةٍ تضم رفــات « هابيل » الجنين !
سورٌ كهذا ، حدّثوها عنه في قصص الطفوله :
«يأجوج»[1] يغرز فيه ، من حنق، أظافره الطويله

---

(١) قصة يأجوج ومأجوج يعرفها كل من قرأ القرآن الكريم ، ولكن الاساطير الشعبية تضيف اليها انها يلحسان السور بلسانيهما كل يوم حتى يصبح في رقة قشرة البصل ، ويدركهما التعب فيقولان « غداً سنتم العمل » وفي الغد يجدان السور على عهــده من القوة والمتانة .. وهكذا . حتى يولد لهما طفل يسميانه « ان شاء الله » فيحطم السور .

ويعضّ جندله الأصم ، وكفّ « مأجوج » الثقيله
تهوي ، كأعنف ما تكون، على جلامده الضخام ،
والسور باقٍ لا يُثَلُّ ..وسوف يبقى ألف عام ،
لكنّ (إن — شاء — الإله)
— طفلاً كذلك سمّياه —
سيهبّ ذات ضحىً ويقلع ذلك السور الكبير .
... ألطفل شاب وسورها هي ما يزال كما رآه
من قبـــل يأجوج البدائي . توأمٌ هو للسعير !
لصّ الحجارةَ من منازل في السهول وفي الجبال
يتواثب الاطفال في غرفاتها ويكركرون ...
والأمهات يلدن والآباء للغـــد يبسمون ،
لم يُبْقِ من حجَر عليها ، فهي ريح او خيال .
وأدار من حُطَمِ البلاط رحى ، وساط من البطون
ما ترتميه رحاه من لحم الأجنّـــة والعظام ،
وكشاطئين من النجوم على خليج من ظـلام
يتحرّقان ولا لقـــاءَ ويخمدان سوى ركام —

شق الرجالَ عن النساءِ : سُلالتـــين من الانام
تتلاقيان مع الظلام وتَـنفـصِلان مع الشروق :
زانٍ وزانية ، وبائعة وشارٍ — والطعام
لا الحبُ والأحقاد لاالأشواق - تنبض في العروق!
زان وزانية ؟.. أيمكن ذاك وهي بلا عشاء ؟
لمَ يُعرض الزانون عنها وحدها ؟ لمَ يعرضون
وهي الفقيرة فقر شحّاذ ؟ أمـــا هي كالنساء ؟
أو ما لهـــا جسد كناضجة الثمار ؟ أيعثرون
لو يقطعون الليل بحثاً والنهار — على سواها
في حسنها هي ؟ في غضارة ناهديها أو صباها
وبسعرها هي ؟ أيّ شيء غير هـــذا يبتغون ؟
أ «زهور» أجمل أو «سعاد» ؟ بأي شيء جارتاها
تتفوقان ؟

وعضّت اليد وهي تهمس : بالعيون ... » !
عمياء أنت وحظك المنكود أعمى يا سليمه .
... وتلوب أغنية قديمة

في نفسها وصدى يوشوش : يا سليمه ، سليمه [1]
نامت عيون الناس . آه.. فمن لقلبي كي ينيمه ؟ »
ويل الرجال الأغبياء ، وويلها هي ، من عماها !
لم أصبحوا يتجنبون لقاءهـــا ؟ أيضاجعونَ
عيونهـــا ، فيخلّفوها وحدها إذ يعلمونَ
بأنها عمياء ؟ فيم يكابرون ومقلتاها
ما كانتا فخذين أو ردفين ؟

وهي بهؤلاء
أدرى ، وتعرف أي شيء في البغايا يشتهون .
بالأمس ، إذ كانت بصيره ،
كان الزبائن بالمئات ، ولم يكونوا يقنعون
بنظرة قمراء تغصبها من الروح الكسيره
لترش أفئدة الرجال بها ، وكانوا يلهثون
في وجهها المأجور ، أبخرةَ الخمور ، ويصرخون

(١) أغنية شعبية « سليمة يا سليمة . نامت عيون الناس . كلبي (قلبي) ش يكيمه ؟ »

كالرعد في ليل الشتاء :

عَبرَ ابتسامتها أو الفخذ التي زلق الرداء

عنها ، أو النهدين نمّ عليهما قلق الضياء –

« إن كنتِ لا تتجردين كما أتيت إلى الوجود ،

إن كنت لا تتجردين .. فلا نقود ! »

ولعلّ غيرة « ياسمين » وحقدَها سبب البلاء :

فهي التي تضع الطلاء لهـــا وتمسح بالذرور

وجهاً تطفّأت النواظر فيه ...

– « كيف هو الطلاء ؟

وكيف أبدو . ؟ »

– « وردةٌ .. قمر .. ضياء ! »

زورٌ .. وكل الخَلق زور ،

والكون مَيْنٌ وافتراء .

لو تبصر المرآةَ – لمحة مقلتيها – لو تراها

– لمح النيازك – ثم تغرق من جديد في عماها !

برقٌ ويُطفأ ...ثم تُحكم فرقها بيدٍ ، وفاهـــا

بيدٍ ، وترسم بالطلاء على الشفاه لهـــا شفاها .
شفتاك عارية وخدُّك ليس خدك يا سليمه ،
ماذا تخلّف منك فيك سوى الجراحات القديمه ؟
وتضمُّ زهرةَ قلبها العطشى على ذكرى أليمه :
تلك المعابِثة اللعوب ... كأنها امرأة سواها !
كالجدولين تخوض ماءهما الكواكب – مقلتاها ،
والشّعر يلهث بالرغائب والطراوة والعبـــير
وبمثل أضواء الطريق نعسْنَ في ليـل مطير ،
والثغر بـــين الجلّنار وزهرة النهد الصغير .
كانت إذا جلست إلى المرآة يفتنهـا صباها
فتظل تعصر نهدها بيدٍ ، وتحملها رؤاهـــا
من مخدع الآثام في المنفى ، إلى قصر الأمير :
تقتات بالعسل النقيّ ، وترتدي كسل الحرير .
ليت النجوم تخـــرُّ كالفحم المطفّأ ، والسماءَ
ركام قارٍ أو رمـــاد ، والعواصف والسيول
تدقُّ راسية الجبال ولا تخلّف في المدينة من بناء !

أن يعجز الإنسان عـــن أن يستجير من الشقاء
حتى بوهم أو برؤيا ، أن يعيش بلا رجاء ...
أوَ ليس ذاك هو الجحيم ؟ أليس عدلاً أن يزول ؟
شبع الذُّباب من القمامـــة في المدينة ، والخيول
سرِّحن من عرباتهن إلى الحظائر والحقول ،
والناس ناموا – وهي ترتقب الزناة بـلا عشاء .
هـذا الذي عرضته كالسلع القديمة : كالحذاء ،
أو كالجرار الباليات ، كأسطوانات الغناء ...
هذا الذي يأبى عليهـــا مشترٍ أن يشتريه
قد كان عرضاً –يوم كان– ككل أعراض النساء!
كان الفضاء يضيق عن سعة ، وُترتـخص الدماء
إن رنَّق النظر الأثيم عليه . كان هو الاباء
والعزة القعساء والشرف الرفيـــع . فشاهديه
يا أعين الظلماء ، وامتلأي بغيظك وارجميـــه
بشواظ عارك واحتقارك يـــا عيون الأغبياء !
– « لا تتركوني يا سكارى

للموت جوعاً ، بعد موتي - ميتة الأحياء- عارا .
لا تقلقوا .. فعماي ليس مهابة لي أو وقارا .
ما زلت أعرف كيف أرعش ضحكتي خلل الرداء
- إبّان خلعي للرداء - وكيف أرقص في ارتخاء
وامسُ أغطية السرير وأشرئبُ إلى الوراء .
ما زلت أعرف كل ذاك ، فجربوني يا سكارى !
مَن ضاجع العربية السمراء لا يلقى خسارا .
كالقمح لونك يا ابنة العرب ، [1]
كالفجر بين عرائش العنب
أو كالفرات ، على ملامحه
دعة الثرى وضراوة الذهب .
لا تتركوني .. فالضحى نسبي !

---

(١) ضاع مفهوم القوميـــة عندنا بين الشعوبيين والشوفيليين . يجب أن تكون القومية شعبية ، والشعبية قومية . يجب جعل احفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشة تليق بهم كبشر وكورثة لامجاد الأمة العربية .

من فاتح ، ومجاهد ، ونبي
عربية أنا : أمتي دمها
خير الدماء .. كما يقول أبي .
في موضع الارجاس من جسدي، وفي الثدْي المذال
تجري دماء الفاتحين . فلوثوهـــا ، يا رجال
اواه من جلس الرجال ... فأمس عاش بها الجنود
الزاحفون من البحـــار كما يفور قطيع دود
يا ليت للموتى عيوناً من هباء في الهواءِ
ترى شقائي
فيرى أبي دمـــه الصريح يعبُّ أوشال الدماء
كالوحل في المستنقعات . فـــلا يردُّ الخاطبينَ
أبٌ سواه : لأن جدة أمٌّ ذاك من الإمـــاء
ولأن زوجة خال ذلـــك بنت خالة هؤلاء !
أنا يا سكارى لا أرد من الزبائن أجمعـــين
إلا العفاة المفلسين .
أنا زهرة المستنقعات ، أعبُّ من وحـــل وطين

وأشعَّ لونَ ضُحىً ... »

وذكّرها بجعجعة السنينَ

سُعالها . ذهَبَ الشباب !!

ذهب الشباب !! فشيّعيه مع السنين الأربعين

ومع الرجال العابرين حيـــال بابك هازئين .

وأتى المشيب يلف روحك بالكآبة والضباب ،

فاستقبليه على الرصيف بلا طعـــام أو ثياب ،

يا ليتكِ المصباحُ يخفق ضوْؤُه القَلِقُ الحزين

في ليل مخدعك الطويل ، وليت أنك تُحْرِقينَ

دماً يجفُّ فتشترينَ

سواه : كالمصباح والزيت الذي تستأجرين (١) .

عشرون عاماً قد مضين، وشبْتِ أنت، وما يزالُ

يذرذر الأضواءَ في مُقَل الرجال .

لو كنت تدّخرين أجْرَ سنـــاه ذاك على السنين

(١) تدفع البغايا للسمسارات أجراً ليلياً عن المصابيح في غرفاتهن قدره ربع دينار لكل مصباح !

أثرْيتِ ...

هـا هو ذا يُضيء فـأيّ شيءٍ تملكين ؟

ويح العراق ! أكان عدلاً فيـه أنك تدفعينَ

سُهاد مقلتك الضريرة

ثمناً لملء يديك زيتـاً من منابعه الغزيرة ؟

كي يثمرَ المصبـاحُ بالنور الذي لا تبصرين ؟

عشرون عاماً قد مضين ، وأنت غرثى تأكلينَ

بنيك من سَغَبٍ ، وظمأى تشربينَ

حليب ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنين !

وكزارع لهمَ البذورَ

وراح يقتلع الجذورَ

من جوعه ، وأتى الربيع فما تفتّحت الزهورُ

ولا تنفّست السنابل فيه ...

ليس سوى الصخورِ

سوى الرمال ، سوى الفلاه –

خُنْتِ الحياة، بغير علمك، في اكتداحك للحياه !

كم ردّ موتَك عنكِ موتُ بنيك . إنك تقطعين
حبل الحياة لتنقضيه وتضفري حبـــلاً سواه ،
حبلاً به تتعلّقين على الحيـــاة : تضاجعينَ
ولا ثمار سوى الدموع ، وتأكلينَ ،
وتسهرين ولا عيون ، وتصرخـــين ولا شفاه ،
وغداً بحبلك تُشنقين !
وغداً. وأمس.. وألف أمس — كأنما مَسح الزمان
حدودَ ما لك فيه من ماض وآت
ثم دار ، فلا حدود
ما بين ليلك والنهار ، وليس ، ثم ، سوى الوجودِ ...
سوى الظلام ، ووطء أجساد الزبائن ، والنقودِ ،
ولا زمان ، سوى الأريكة والسرير ، ولا مكان!
لمَ تحسبين لياليَ السأم المسهّدة الرتيبـــه ؟
ما العمر؟ ما الأيام؟ عندك ، ما الشهور؟ وما السنين؟
ماتت «رجاء» فلا رجاءَ. ثكلتِ زهرتك الحبيبه!
بالأمس كنت إذا حسبت فعُمْرَها هي تحسبين .

ما زال من فمها الصغيرِ
طراوة في حلمتيك ، وكركراتٌ في السرير .
كانت عزاءك في المصيبه ،
وربيع قفرتك الجديبه .
كانت نقاءك في الفجور ، ونسمةً لك في الهجير ،
وخلاصك الموعود ، والغبشَ الالهيّ الكبير !
ما كان حكمةَ أن تجيءَ إلى الوجود وأن تموت؟
ألتشربَ اللبن المرنّق بالخطيئة والعـــاب :
أو شالَ ما تركتـه في ثدييك أشداقُ الذئاب ؟
كان الزُناة يضاجعونك وهي تصرخ دون قوت .
فكأنها ، وهي البريئه ،
كانت تشاركك العذاب لكي تكفّر عن خطيئه !
أفترضين لها مصيرك ؟

فاتركيها للتراب

في ظلمة اللحد الصغير تنام فيه بــلا مآب .
فالنور والأطفـــال والبسمات حظ المترفين ،

والجوع والأدواء والتشريد حظ الكادحين ..
وأنت بنت الكادحين .

... ...

مات الضجيج. وأنتِ ، بَعْدُ، على انتظارك للزناه،
تتنصّتين ، فتسمعينَ
رنين أقفال الحديد يموت ، في سأم ، صداه :
الباب أوصِد .
ذاك ليل مرّ ...
فانتظري سواه .

حفار القبور

- ١ -

ضوءُ الأصيل يغيم ، كالحلم الكئيب ، على القبور
واهٍ ، كما ابتسم اليتامى ، أو كما بهتتْ شموعْ
في غيهب الذكرى يُهوِّم ظلُّهنَّ على دموعْ
والمدْرجُ النائي تهبّ عليه أسراب الطيورِ ،
كالعاصفات السود ، كالأشباح في بيتٍ قديمْ
برزتْ لتُرعب ساكنيه
من غرفةٍ ظلماءَ فيه .
وتثاءَبَ الطَّـلَـلُ البعيد — يُحدّق الليل البهيمْ

من بابه الأعمى ومن شُباكه الخربِ البليدِ .
والجوُّ يملؤه النعيبْ ..
فتُرَدِّدُ الصحراءُ ، في يأسٍ وإعوالٍ رتيبْ ،
أصداءَه المتلاشياتْ ،
والريح تذْروهنَّ ، في سأم ، على التل البعيدِ !
وكأنَّ بعض الساحراتْ
مدَّت أصابعها العجاف الشاحباتِ الى السماءِ :
تُومي إلى سِربٍ من الغربان تلويــه الرياحْ
في آخر الأفقِ المضاءِ –
حتى تعالى ثم فاض على مراقيــه الفساحْ
فكأن ديدانَ القبورْ
فارتْ لتلتهم الفضاءَ وتشربَ الضوءَ الغريقْ
وكأنما أزفَ النشورْ
فاستيقظَ الموتى عطاشى يلهثون على الطريق !
وتدفَّع السربُ الثقيلْ ،
يطفو ويرسب في الأصيل ،

لجباً يرنّق بالظلام على القبور الباليـــاتِ
وظلاله السوداء تزحف ، كالليالي الموحشاتِ ،
بين الجنادل والصخورْ
وعلى القبور !
وتنفس الضوء الضئيلْ
بعد اختناقٍ بالطيوف الراعباتِ وبالجُثامْ ،
ثم ارتخت تلك الظلال السود وانجابَ الظلام :
فانجاب عن ظلٍ طويل
يلقيه حفارُ القبورْ :
كفّانِ جامدتان ، أبرد من جباه الخاملين ،
وكأنّ حولهما هواء كان في بعض اللحودِ
في مُقلةٍ جوفاءَ خـــاويةٍ يهوّم في ركودِ
كفّان قاسيتان جائعتان كالذئب السجينْ ،
وفمٌ كشقٍّ في جدارِ
مُستوحدٍ بين الصخور الصمّ من أنقاض دارِ
عند المساء .. ومقلتان تحدقان ، بلا بريقْ

وبلا دموعٍ ، في الفضاء :
هُوذا المساء
يدنو ، وأشباح النجوم تكاد تبدو ، والطريق
خالٍ – فلا نعشٌ يلوح على مَداه.. ولا عويلْ –
إلا النعيبْ
وتنهُّدَ الريح الطويل !
وعلامَ تنعب هذه الغربان ، والكون الرحيبْ
باقٍ يدور .. يعجُّ بالأحياء : مرضى ، جائعين
بيضَ الشعور كأعظمُ الأموات – لكن خالدين
لا يهلكون ؟ علامَ تنعب ؟ إنَّ عزرائيلَ ماتْ !
وغداً أموتُ ، غداً أموت ! »
وهزَّ حفارُ القبورْ
يُمناه في وجه السماء ، وصاحَ : ربِّ ! أما تثور
فتبيدَ نسلَ العار .. تُحرقَ ، بالرجوم المهلكات ،
أحفادَ عادٍ ، باعةَ الدمِ والخطايا والدموعِ ؟
يا ربِّ .. ما دام الفناءْ

هو غايةُ الأحيـــاء ، فأمرْ يهلكوا هذا المساء !

سأموتُ من ظمإٍ وجوعِ

إنْ لم يمتْ – هذا المساءَ إلى غدٍ بعضُ الأنامْ؛

فابعثْ به قبلَ الظلام !

يا ربّ .. أسبوعٌ طويل مرّ كالعام الطويلْ ،

والقبرُ خاوٍ، يفغر الفمَ في انتظارٍ..في انتظارْ،

ما زلت أحفره ويطمره الغبارْ –

تتثاءب الظلماء فيه ويرْشح القـــاع البليلْ

مما تعصّر أعين الموتى وتنضحه الجـــلود :

تلك الجـــلود الشاحبات وذلك اللحم النثيرْ !

حتى الشفاه يمصّ من دمها الثرى – حتى النهود

تذوي، ويقطر ، في ارتخاءٍ من مراضعها، المغيرْ! [1]

واهاً لهاتيـــك النواهد ، والمآقي ، والشفاه !

واهاً لأجساد الحسان ! أيأكل الليــــل الرهيبْ

والدودُ ، منها ، ما تمناه الهوى ؟ واخيبتاه !

---

(١) اللبن الممزوج دماً .

كم جثةٍ بيضاء لم تفتضّهـــا شفتا حبيبْ ،
أمسى يضاجعها الرغام ؟
هل كان عدْلاً أن أحنّ إلى السراب ، ولا أنالْ
إلاّ الحنين – وألف أنثى تحت أقدامي تنامْ ؟
أفكلّما اتّقدتْ رغابٌ في الجوانح شحّ مالْ ؟
ما زلت أسمع بالحروب – فأين أين هي الحروب ؟
أين السنابك والقذائف والضحايا في الدروب ..
لأظلّ أدفنها وأدفنهـــا .. فلا تسع الصحارى
فأدسُّ في قمم التلالِ عظامهنّ وفي الكهوفِ ؟
فكأن قعقعةَ المنازل في اللظى َنقر الدّفوفِ
أو وقع أقدام العذارى
يرقصن حولي لاعبـــاتٍ بالصنوج وبالسيوف !
نُبّئتُ عن حربٍ تدور – لعلّ عزرائيل فيها ..
في الليل يكدح والنهـــار ، فلنْ يمرّ على قرانا
أو بالمدينة وهي توشك أن تضيقَ بساكنيها !
نبئت أن القاصفاتِ هناك مـــا تركتْ مكاناً

إلاّ وحلّ به الدمار .. فأيُّ سوقٍ للقبور !
حتى كأن الأرض من ذهب يُضاحك حافريها ،
حـــتى كأن معاصرَ الدم دافقاتٌ بالخمورِ !
أوّاه لو أني هناك أسدّ ، باللحم النثيرِ ،
جوعَ القبور وجوعَ نفسي .. في بلادٍ ليس فيها
إلاّ أراملَ ... أو عذارى غاب عنهنّ الرجالُ
وافتضّهنّ الفاتحون إلى الدماء – كما يُقـــال !
ما زلت أسمع بالحروب . فمـــا لأعين موقديها
لا تستقرُّ على قرانا ؟ ليت عيني تلتقيهـــا
وتخضّهنّ إلى القرار – وكالنيازكِ والرّعودِ
تهوي بهنّ على النخيل ، على الرجال؛ على المهودِ !
حتى تحدّق أعين الموتى ، كآلاف اللآلي ،
من كل شبرٍ في المدينةِ .. ثم تُنتظم كالعقودِ
في هذه الأرض الخراب – فيا لأعينها ويا لي !
رباه ! إني أقشعرُّ ... أكاد أسمع في الخيال
أغنيّةً تصف العيونَ ...

تنثال من مقهى، فأنصت في الزحام، وينصتون !
وكأنّ مـــا بيني وبين الآخرين من الهواء
ثديٌ سخيٌّ بالحليب وبالمحبـة والأخـاء .
يا ربُّ .. أسبوع يمـرُّ ولست أسمع من غناءِ
إلاّ النعيبْ
وتنهُّد الريح الرتيب !
واخيبتاه ! ألـن أعيش بغير موت الآخرين ؟
والطيّبات : من الرغيف ، إلى النساء ، إلى البنين
هي منـّة الموتى عليَّ . فكيف أشفق بالأنامِ ؟
فلتمطرنـّهمُ القـذائف بالحديد وبالضرام ،
وبما تشاء من انتقام :
من ُحمَّياتٍ أو جذام !
نذرٌ عليَّ : لئنْ تشبُّ لازرعنَّ من الورودِ
ألفاً تروّى بالدماء ... وسوف أرصف بالنقودِ
هذا المزار... وسوف أركض في الهجير بلا حذاء
وأعدّ أحذيةَ الجنود ...

وأخطُّ ، في وحل الرصيف وقد تلطخ بالدماءِ ،
أعدادهنّ ... لأستبيحَ عدادهنّ من النهودِ !
وسأدفن الطفلَ الرمِيّ وأطرح الأمّ الحزينه
بين الصخور على ثراه ...
ولسوف أغرز بين ثدييهـا أصابعيَ اللعينه .
ويكاد يخنقهـا لهاثي وهي تسمع ، في لظاه ،
قلبي ووسوسةَ النقودِ .. نقودهـا ! واخجلتاه !
أنا لست أحقرَ من سواي. وإن قسوت فلي شفيعُ
أني كوحشٍ في الفلاء ...
لم أقرأ الكتبَ الضخام - وشافعي ظمأ وجوع .
أو ما ترى المتحضرينَ
المزدهين من الحديد بمـا يطير وما يذيـع ؟
مهما ادّنأت فلن أسفّ كما أسفّوا ... لي شفيـع
أني نويت .. ويفعلون ؛ وإنّ من يئد البنينْ
والأمهات ويستحل دم الشيوخ العـاجزين
لأحطُّ من زانٍ بما انتهك الغزاة وما استباحوا !

والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور ؛
وهم الذين يلوّنون لي البغـــايا بالخمور ،
وهم المجاعة ، والحرائق ، والمذابح ، والنواحُ ،
وهم الذين سيتركون أبي وعمته الضريره
بين الخرائب ينبشان ركامهن عن المظام ،
أو يفحصان عن الجذور ، ويلهثان من الأوام . .
والصخر كالمقل الضريره .
وسيوثقون بشعر أختي قبضتي .. وكالظلام ِ
وكخضّة الحمّى ، تسمّرها على دمها صدورُ
تعلو وتهبط باللهاث ، كأنهن رحىً تدور .
يا مجرمون ، إلى الوراء ! فسوف تنتفض القبورُ
وتقيءُ موتاها . ويا موتى ، على اسم الله ثوروا
رباه ، عفوك .. ان « قابيل » المكبّلَ بالحديدْ
في نفسيَ الظلماء هبّ وقرّ يعصرهُ المـــلالْ !
فالليل جاءَ ، وما أزال
توحداً أرعى القبور وأنفض الدربَ البعيد .

وكأن يا بشرى ! كأنّ هناك في أقصى الجنوب
خطاً كأذيال الظلام ولمعةً كدمِ الغروب !
لكأنه ضيفٌ جديد ! »
وبدا الجنازُ ، وراح يشهق وهو يدنو في ارتخاءْ ،
الأوجه المتحجّرات يضيئها الشفق الكئيب ،
والغمغمات الخافقات من انفعالٍ أو رياءْ ،
والنعشُ يحجبه غطاءْ
الوانه المترنّحات كأنما اعتصرَ المغيبُ
فيها قواهُ ، وذاب فيها كوكب واهي الضياءْ ،
حتى إذا انهال الترابُ وصُفحَ القبر الجديدْ ،
وتراعشَ الألقُ الضئيل ، على الظهور المتعباتِ
حتى اضمحل ، وغيّبتها ظلمةُ الأفق البعيد —
كانت مصابيح السماء تذرُّ ضوءاً كالضبابْ
بين القبور الموحشاتِ
وعلى الخرائب والرمال . وكان حفار القبورِ
متعثر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلامْ ...

يرعى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئابْ ،
ويظلّ يحلم بالنساء العاريات وبالخمورِ ،
وتحسستْ يده النقودَ وهيّأ الفمَ لابتسام —
حتى تلاشى في الظلام !

٢

النور ينضح من نوافذِ حانةٍ عبرَ الطريقِ ،
وتكاد رائحة الخمورْ
تلقي ، على الضوء المشبّعِ بالدخان وبالفتورْ
ظلاً كألوانٍ حيارى واهيـــاتٍ من حريقِ
نامٍ . تهوّم ، في الدجى الضافي ، على وجهٍ حزينْ .
وتلوح أشباحٌ عجافُ
خلف الزجاج .. تهيم في الضوء السرابي الغريقِ .
ويشدُّ حفار القبور على الزجاجـــة باليمين ،
وكمن يحاذر أو يخافُ
يرنو إلى الدرب المنقط بالمصابيح الضئالِ ،
وتحركت شفتاه في بطء وغمغم في انخذالِ :

« أظننت أنك سوف تقتحم المدينة كالغزاه ...
كالفاتحين . وتشتريها بالذي ملكت يداك :
بأقل من ثمن الطلاء القرمزي على شفـــاه
أو في أظافر لاحقتها ، ذات يوم ، مقلتاك ،
سأعودُ ، لا نهدٌ تعصره يدي حتى الذهولْ ،
حتى التأوه ، والأنينِ وصرخة الدم في العروقْ
والسكرةِ العمياءِ.. والخدر المضعضع . والأفول!
والأذرع المتفتّراتُ – يلوّن الضوءُ الخفوقُ
هزاتها المستسلمات ، وينفح الدم والعبيرْ
ظلٌّ لهن على السريرْ .
الأذرع المتفترات ، وزهرتان على الوسادْ
نستجتهما كفٌّ مخضبّة الأظافرِ – زهرتانِ
تتفتحـــان على الوسادة كالشفاه ، وتهمسانِ
نغماً يذوب إلى رقادْ .
ونعومة الكتفين ، والشعر المعطّر ، والشحوبُ ،
وتألق الجيد الشهيّ ، ولفحةُ النفس البهيرِ .

والنور منفلتاً من الأهداب .. تثقله الطيوبُ ،
قلقاً كمصباح السفينةِ راوحته صباً لعوبُ ؛
وتخافق الأظلال في دعةٍ ، ووسوسةُ الحريرِ .
والحلمتان : أشد فوقهما بصدري في اشتهاءْ —
حتى أحسهما بأضلاعي وأعتصر الدماء
باللحمِ والدمِ والحنايا ، منهما — لا باليدين ،
حتى تغيبا فيه — في صدري — إلى غير انتهاء ،
حتى تمصّا من دماي .. وتلفظاني ، في ارتخاء ،
فوق السرير ...
وتشرئبّا
ثمّ تثوي جثتينْ ! »

٣

دربٌ كأفواه اللحودْ —
لولا التماعات الكواكب ، وانعكاس من ضياءِ
تلقيه نافذةٌ — ووقع خطىً تهاوى في عياء
يُصدي له الليلُ العميق ، وحارسٌ تعبٌ يعودْ

وَسنان يحلم بالفراش وزوجـِه : تُذكي السراجْ
وتؤجّج التنـّورَ صامتة ً .. وأخيـلةُ اللهيب
تُضفي عليهـا ما تشاءُ من اكتئابٍ وابتهاجْ .
ثمّ اضمحلّ الحارس المكدود ، والنغم الرتيبْ :
— وقع الخطى المتلاشيات .كأنه الهمس المريب —
ما زال يخفق من بعيدْ .

وتململت قدَمان ، وارتفعت يدٌ بعد انتظارِ
وهوت على الباب العتيقِ ، فأرسل الخشبُ البليدْ
صَوتاً كايقاع المعاولِ حـين إدبارِ النهـار
بين القبور الموحشات . وأطبق الصمتُ الثقيلْ ،
وأطلّ من إحدى النوافذ،وهي تُفتح فيارتيابْ،
وجهٌ حزين .. ثم غاب !
وتحرّك البابُ المضَعْضَع وهو يُجهش بالعويلْ .
وتقول أنثى في اكتئاب :
« ضيفٌ جديدٌ ! » ثم تفرك مقلتيها في فتور .
ويظلّ يزحف كالكُسوف -يُحجّب الألقَ الضئيلْ

عن وجهها - ظلٌّ يقيّدُها بحفّار القبور !

٤

في زهوة الشّفَقِ الملوّنِ حيثُ يحترق النهارُ -
في عودة الرُّعيان أشباحاً يظللها الغُبار -
في ساعة الشوقِ الكئيبِ إلى شواطئ كالضبابِ ،
وإلى أكُفٍّ مُخلِصاتْ ،
وإلى أغانٍ مُبهماتٍ هائماتٍ في شِعابِ
أنأى مِنَ الأصداءِ .. تغشاها نُجومٌ ساهماتْ -
في ساعة الشّفَق الملوّن كان إنسانٌ يثورْ
بين الجنادل والقبورْ ،
نفسٌ معذّبة تثورْ
بين الجنادل والقبور :
« أأظلُّ أحلم بالنّعوش ، وأنفضُ الدرب البعيدْ
بالنظرة الشّزْراء ، واليأسُ المظلّلُ بالرجاءْ
يطفو ويرسب ، والسماء كأنها صَنمٌ بليدْ
لا مأملٌ في مقلتيه .. ولا شواظَ .. ولا رثاءْ ؟

لو أنهـــا انفجرتْ تُقهقِهُ بالرعود القاصفات !
لو أنها انكمشتْ وصاحت كالذئاب العاويات :
«فاتَ الأوانُ،فخطَّ لحدَكَ واثوِ فيه إلى النشورِ !
لو أنها انطبقت عليَّ كأنهـــا فمُ أفعوانْ !
لو أنها اعتصرتْ قِواي ! .
ومات ظلّ الأرجوانْ
في آخر الأفق البعيد ، ولألأتْ قطراتُ نورِ
مما تُبعثره المدينـــةُ وهي تبسمُ في فتور .
وكأنمـــا رضعتْ مصابيحَ المدينةِ مُقلتاه
فسرتْ لهيباً في دماهُ وألغمتْها بالرغابِ ،
وكأنهُنَّ ، على المدى المقرور ، آلافُ الشّفـــاه
تدعوه ظمأى، لاهثاتٍ..مثل أحداقِ الذّئاب :—
« مازلتِ تحترقين من فَـرحٍ ، وأحترقُ انتظاراً،
صُبّي سناكِ على الترابِ
وعلى الكؤوس الفارغات : وبَعثريه على كتابِ
أو بين أغطية الموائـــد وهي تنتظر النهارا ..

ظلّت تُعابثها شفاه الريح، وانصرفَ السكارى!
راحوا إليها مسرعين – إلى التي ارتعشت قواما
بين التوجع والذهول، على يديّ وفي دمائي.
ليلٌ وأعقبه الصباح .. ونبّأتني مقلتاهـــا
أنّا انتهينا.

يا سماءُ، ويا قبورُ .. أما أراها ؟
لا بُدّ من هذا!» – وصوّبَ مقلتيه إلى السماءِ
حنقاً يُزمجر، ثم أطرقَ وهو يحـــلم باللقاء:
بابٌ تفتّح في الظلام. وضحكةٌ. وشذىً ثقيلٌ..
ويدانِ تجتذبان أغطيـــةَ السرير وتُرخيانِ
إحدى الستائر ...

ثم تنطفئان في الضوءِ الضئيلْ!
وتغيم أخيلةٌ وتُجلى – ثم تبرز حلمتانِ ...
ويُطلُّ وجهٌ شاحب القسمات مختلج الشفاه.
وتغيم أخيـــلة وتُجلى – ثم تُفتح مقلتاه:
فيرى القبورْ،

ويرى المصابيح البعيدةَ كالمجـــامر في اتّقادِ ،
ويرى الطريقَ إلى القبورْ
يكتظّ بالأشباح زاحفةً إليـــه على اتّئادِ ،
فيصيح من فرحٍ : « سألقاها ، فإن على الطريق
نعشاً .. وإنْ حفّ النساءُ به وأملقَ حاملوه !
إني سألقاها ! » — وينهض وهو يرفع باليمين
فانوسهُ الصدىءَ العتيقْ ..
يلقي سناه على الوجوه
وعلى الدثار القرمزيّ وفي عيونِ القادمين .
لو أنه اخترقَ الدثارَ بمقلتيـــه وبالضياء —
لو حدّثَ التابوتُ عمّنْ فيه .. أو رفعتْ يداها
« أو هبّةٌ للزعزع النكبـاءِ حاشيةَ الغطاءِ
تحت النجومِ الساهمات ...
لكاد ينكر من رآها !
ماتتْ كمنْ ماتوا ، ووراها كما وارى سواها :
واسترجعتْ كفّاه من يدهـا المحطمةِ الدفينهْ

ما كان أعطاها – وإنْ حملتْ يدُ امرأةٍ سواها
تلك النقودَ .. بل البقايا من نفايات المدينهْ –
وتظل أنوار المدينة وهـــي تلمعُ من بعيدٍ ،
ويظلُّ حفار القبورْ
ينأى عن القبر الجديدِ
متعثرَ الخطوات .. يحـــلم باللقاءِ ، وبالخمور !

الأسلحة والأطفال

١

عصافيرُ ؟ أم صبية تمرحُ
عليها سناً من غدٍ يلمح ؟
وأقدامها العاريه
محارٌ يُصلصل في ساقيه .
لأذيالهم رفّةُ الشمألِ
سرتْ عبر حقلٍ من السنبلِ،
وهسهسةُ الخبز في يوم عيدْ ،
وغمغمةُ الأمّ باسم الوليد
تناغيه في يومه الأولِ .

كأنني أسمع خفق القلوع
وتصخاب بحارةِ السندباد ..
رأى كنزه الضخم بين الضلوع
فما اختار الا كنزاً... وعادا

صدى عابرٌ من وراء العصور :
من الكهف، والغاب، والمعبدِ،
سرى دافئاً من عروق الصخور
وإزميل نحّاتها المُجْهَدِ،
يغنّي بأشواقه الماتيه
إلينا : إلى القمّة العاليه ...
إلى أن يفلّ الردى بالحياه
وتلقاه أجيالها الآتيه
على صخرة حمّلتها يداه
تحاياه : في بسمة في الشفاه
وفي أعين حجّرت مقلتاه
عليها دموعها الجاريه .

صدىً رجّعته الأكُفُّ الصغارْ
يصفّقن في الشارع المشرقِ
كخفق الفراشات مرّ النهار
عليها بفانوسه الأزرق.

وكم من أبٍ آيبٍ في المساء
إلى الدار من سعيه الباكرِ ،
وقد زمّ من ناظريه العناء
وغشّاهما بالدم الخاثر ؛
تلقّاه،في الباب،طفلٌ شرود
يكركر بالضحكة الصافيه ،
فتنهلّ سمحاء ملء الوجود ،
وتزرع آفاقه الداجيه
نجوماً، وتنسيه عبء القيود.

وهُمْ في ليالي الشتاء الطوال

ربيعٌ من الدفء والعافيه ،
تلمّ العجائزُ فيـــه الورود
ويلمحن عهد الصِّبا ثانيه ،
ويرقصن بين التـــلال
يرجّحن أرجوحة في الخيال:
بعذراءَ في ليـــلةٍ مقمره
وفي ظلّ تفاحــة مُزهره
تنام العصافير فيهـــا ...
وهم في الصباح
خطىً خافقاتٌ على السلّمِ ،
وأيدٍ على أوجُه النوّم
يدغدغنهـــا في مزاح !
وأغنيةٌ من أغاني الطريق
بلحن سوى لحنها الأول
وشأوٍ من الصوت مستعجل.
وهم رِفقة الأم إذ تستفيق

وإذ تُشعل النارَ في الموقد
كخيطٍ ترى فيه بدء الغد !

٢

عصافيرُ ؟ أم صبيةٌ تمرح ؟
أم الماء : من صخرة ينضح
فيخضلّ عشبٌ وتندى زهور
زهورٌ ونور
وقبرةٌ تصدح
وتفاحةٌ مزهرة
لخفق العصافير فيها
صدى قُبلة الأم تلقى بنيها
– «دعيني.. فما تلك بالقبرة!
دعيني أقل أنه البلبلُ
وإن الذي لاح ليس الصباح»[١]

(١) شكسبير : روميو وجوليت .

أتلك السفين التي تُعوِلُ
على مرفإٍ ناوحته الرياح ؟
تُلوّح منها أكفُّ الجنود
لألفٍ كـ«جولييت» فوق الرصيف:
« وداعاً وداعَ الذي لايعود! »
وأمٍّ كما استوحشت في الخريف
وراء الدجى ، دوحة عاريه
وفرّت عصافيرها الشاديه!

عصافير ؟ أم صبية تمرح ؟
أم المـــاء من صخرة ينضح
ولكنْ على جثّةٍ داميه ؟
وقبّرةٍ تصدحُ
ولكن على خِرْبةٍ باليه ؟
عصافير ؟!
بـــل صبية تمرح
وأعمارها في يد الطاغيه ؛
وألحانهـــا الحلوة الصافيه

تغلغل فيهـــا نداء بعيد :

« حديد عتـ ... ـيق

رصا ... ص

حديـ .... ـد »

وكالظلّ من باشق في الفضاء

ــإذا اجتاح، كالمدية الماضيه،

عصافيرَ تشدو على رابيه ــ

ترامى إلى الصبيـــة الأبرياء

نداءٌ تنشّقتُ فيه الدمـــاء

« حديد عتيق ..

حديد عتيق !

رصا...صٌ»فحتى كأن الهواء

رصاص، وحتى كأن الطريق

حديد عتيق .

وينقضّ ، كالمعول الحافر ،

صدى راعب من خطى التاجر.

له الويل .. مـاذا يريد ؟

« حديد عتيق

رصا ... ص

حديد ! »

لك الويـــل من تاجرٍ أشأمِ
ومن خائضٍ في مسيل الدم
ومن جاهلٍ أن ما يشتريه
- لدرء الطوى والردى عن بنيه -
قبورٌ يوارون فيهـــا بنيه !

« حديد عتيق

رصاص .. ص

حديد .. »

حديدٌ عتيقٌ لموتٍ جديد !

- ٣ -

« حد . . يد »

لمن كل هذا الحديد !

لقيدٍ سَيلوى على معصمٍ ،
ونصلٍ على حلمةٍ أو وريد،
وقفلٍ على الباب دون العبيد،
وناعورةٍ لاغتراف الدم .

« رصا .. ص »

لمن كل هذا الرصاص ؟
لأطفال كوريّةَ البائسين ،
وعمّال مرسيليا الجائعين ،
وأبناء بغدادَ والآخرين
إذا ما أرادوا الخلاص

حديد
رصاص
رصاص
رصاص !

(حديد ...)

وأصغي إلى التاجرِ ،

وأصغي إلى الصبية الضاحكين؛
وكالنصل قبل انتباه الطعين،
وكالبرق ينفضّ في خاطري
ستار، وكالجرح إذ ينزف —
أرى الفوّهات التي تقصف
— تسدّ المدى — واللظى، والدماء.
وينهلّ كالغيث، ملء الفضاء،
رصاص ونار: ووجهُ السماء
عبوسٌ لما اصطكّ فيه الحديد.
حديد ونار، حديد ونار..
وثَمّ ارتطام، وثَمّ انفجار،
ورعد قريب، ورعد بعيد
وأشلاء قتلى، وأنقاض دار!
حديد عتيق لغزوٍ جديد
حديد.. ليندكّ هذا الجدار
بما خطّ في جانبيه الصغار

وما استودعوا من أمان كبار:

« سلام »

كأن السنا في الحروف

تخطّى اليها ظلامَ الكهوف

بآمال انسانها الأول

وما اختطّ من صورة في الحجار

تحدّى بها الموت: فهي انتصار

وتَوْقٌ إلى العالم الأفضل؟

« حديد

رصا ... ص

حديد عتيق

رصاصٌ ... » ليخلوَ هذا الطريق

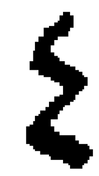
من الضحكة الثرّة الصافيه

وخفق الخطى والهتاف الطروب.

فمن يملأ الدار عند الغروب

بدفء الضحى واخضلال السهوب؟

لظى الحقد في مقلة الطاغيه
ورمضاءُ أنفـاسه الباقيـه
يطوفان بالدار عند الغروب
وأطلالها الباليه !
حديد عتيق
نحاس عتيق »
وأصداء صفارة للحريق !



« حديد ، حديد »
وأمّ تبيع السرير العتيق ،
تبيع الحديد الذي أمسِ كان
مِهاداً عليه التقى عاشقان
وشدّ نداء الحياة العميق
ذراعاً بأخرى ، فها تخفقان !
فيا حسرتا حين يمسي غداً
شظايا تدوي وبعض المدى

تُنحّى بها عن ذراع ذراع
وينهدّ مهدٌ ، ويخبو شعاع

أمن حيثُ كان التقاء الشفاه
على الحبِّ : ينسجن خيط الحياه ـ
يحوك الردى غزله الأسودا
دماً أو دخاناً؟ . يحوك الردى
شباكاً من النار حول البيوت
على صبيةٍ أو صبايا تموت ؟
ويرتدّ حتى حديد السرير
جناحاً عليه المنايا تغير ،
وحتى الذي في عيون الدُمى
من المعدن الزئبقي الحسير .
رصاصاً أبح الصدى مُرّزِما

٥

« حديد، عتيق، حديد، حديد
وأقدامها العاريه

محارٌ يصلصل في ساقيه ،
ويعتاد بالي – كرعدٍ بعيد –
ضجيج الخطى وانهيار الصخور
وخفق الفوانيس في المنجمِ ،
وما نض من عاريات الظهور
وما انسح في سعلة من دم !
وملءُ السنا من غبار الحديد ،
نواقيسُ فيها يرنّ السكون . .
وأجراسُ مركبة من بعيد
يخفّ لها صبية يلعبون :
نواقيس في الفجر ، واليومُ عيد ،
وفي الماء أظلال جسرٍ جديد ،
وهمس النواعير ، والزارعون ،
وفي كل حقل – كنبض الحياه –
تهزّ المحاريثُ قلبَ الثرى
وتَبني القرى :

قرىً طينها من رميم الطغاه .
وتخضلّ حتى الصخور الضّنينه ،
ويثمر حتى سراب الفلاه
مدينـه
فأخرى ، فأخرى ، إلى منتهاه !
« حديد ... حديد ! »
وأقدامها العاريه ،
وخفق الفوانيس في المنجمِ ،
وأعماقه الرطبـــة الداجيه
كظلّ الردى ـ فاغرات الفم ،
كبئرٍ من الظلمة الطاميـه
ستمتاح منها ألوفُ القبور ،
ويهوي ـ مع الزعزع العاتيه ـ
عمىً من دجاها على كل نور :
على النور من باب كوخٍ مضاء
ومن كوّة في خيـــام الرعاء

ومن شُرفةٍ ظلّلتها الياسمين
ـ « دعيني أقلْ انه البلبلُ
وان الذي لاح ليس الصباح »ـ
على النور من موقد السامرين
ومن مدرجٍ بالسنا يُغسل ؛
على كلّ نور ، تذرّ الرياح
ظلالَ الطواغيت في المنجمِ
كناعورةٍ لاغتراف الدمِ .
تذرّ الرياح ، الرياح ، الرياح ،
أراجيحَ في الملعب المظلم
وَخفْقَ الفوانيس والأنجم
وخفق الخطى والأكفّ الصغار
وخفق الفراشات مرّ النهار
عليها بفانوسه المعتم .
فمن يملأ الدارَ عند الغروب
بدفء الضحى واخضلال السهوب ؟

رصاص، حديد، رصاص، حديد
وآهاتُ ثكلى، وطفلٌ شريد!

ومن يُفهم الأرض أن الصغار
يضيقون بالحفرة الباردة ؟ (١)
إذا استنزلوها وشطَّ المزار
فمن يتبع الغيمة الشاردة ؟
ويلهو بلقط المحار ؟
ويعدو على ضفّة الجدولِ ؟
ويسطو على العشّ والبلبل ؟
ومن يتهجّى –طوال النهار–
ومن يلثغ الراء، في المكتبِ ؟
ومن يرتمي فوق صدر الأب
إذا عاد من كدّه المتعبِ ؟
ومن يؤنس الأمّ في كل دار ؟

---

(١) ايديث سيتويل في قصيدتها أم ترثي طفلها : « ان الأرض عجوز شاخت حتى لا تعلم بأن الصغار حركون كظلال الربيع . »

أسىً موجع أن يموت الصغار.
أسىً ذقتُ منه الدموع، الدموع
أجاجاً ومثل اللظى في الفمِ،
وأحسستُ فيه اشتعال الدم
بعينيّ، من نازفات الضلوع:
عويــــل من القرية النائية
وشيخ ينادي فتاهُ الغريق
بهذا الطريق وذاك الطريق،
ويسعى إلى الضفّة الخالية
يسائل عنه المياه
ويصرخ بالنهر.. يدعو فتاه؛
ومصباحه الشاحبِ
يغنّي سدىً زيته الناضب:
«محال تراه!»
ويحنو على الصفحة القاتمه
يحدّق في لهفة عارمــــه

فما صادفت مقلتاه
سوى وجهه المكفهرّ الحزين
ترجرجه رعشة في الميـاه
تغمغم : « لا ، لن تراه ! »

٦

« حديد عتيق » ورعب جديد!
« حديد
رصا ... ص »
لأن الطغاه
يريدون ألاّ تـتم الحيـــاه
مداها ، وألاّ يحسّ العبيد
بأنّ الرغيف الذي يأكلون
أمرُّ من العلقمِ
وأنّ الشراب الذي يشربون
أجاجٌ بطعم الدم
وأنّ الحياة انعتاق ،

وأن ينكروا ما تراه العيون:
فلا بيدرٌ في سهول العراق ،
ولا صبية في الضحى يلعبون
ولا همس طاحونة من بعيد ،
ولا يطرق البابَ ساعي البريد
ببُشرى ، ولا منزلُ
يضيء الدجى منه نورٌ وحيد
سخيٌّ كما استضحك الجدول ،
ولا هدهدات ، ولا جلجل
يرنّ بساق الوليد
وبين الربى في رقاب الجداء ،
ولا وسوسَ الشاي فوق الصِّلاء ،
ولا قصّة في ليالي الشتاء .
لأن الطواغيت لا يسمعون
صداح العصافير في المغربِ
ـ كما صلصل الفضّةَ القامرون ـ

ولا زفّةَ السنبل المذهب .
لأنّ الطواغيت لا يحلمون
بغـــير المبيعات والأسهم .
وان الطواغيت لا يسمعون
سوى رنـّة الفلس والدرهم .
لأن الطواغيت لا يبصرون
على الشاطىء الأسيويّ البعيد
سوى أنّ سوقاً يباع الحديد
وتـُستهلك الريح والنار فيها.
تدرّ العطايا على فاتحيهـا .

ـ ٧ ـ

بأقدام أطفالنا العاريه
يميـناً ، وبالخبز والعافيه :
إذا لم نعفـّرْ جبـاه الطغاه
على هذه الأرجل الحافيـه
وأن لم نذوّب رصاص الغزاه

حروفاً هي الأنجم الهاديه
(فمنهنّ في كل دارٍ كتاب
ينادي: قفي واصدأي ياحراب)
وان لم نضوّ القرى الداجيه
ولم نخرسِ الفوّهات الغضاب
ونجلِ المغيرين عن آسيه ..
فلا ذكرتنـــا بغيرِ السِّباب
أو اللّعن أجيالُنا الآتيه !

سلام على العالم الأرحبِ ،
على الحقل، والدار، والمكتب،
على معملٍ للدُّمى والنسيج ،
على العشّ والطائر الأزغب ،
على التوت وسنانَ فيه الأريج
ووقع الجاديف في المغرب ،
على زهرةٍ في وساد العروس،
على صبية في انتظار الأب ،

على شاعر تستحمّ الشموس
بعينيه ، يصغي إلى جندب ؛
سلام على العالم الأرحب .
سلام على(الكنج) فاض النعيم
ورنّت أغاريد، في ضفّتيه:
قرىً من سناً عاصرات عليه
عناقيد من ضوئهنّ العظيم .
سلام على الصين والحاصدين
وصيّاد أسماكها الأسمرِ،
وما أنبتت من دم الثائرين
وما افترّ في البيرق الأحمر ؛
على صبية في قراهـــا البعاد
وفي ظلّ تفّاحهـا المزهر
وما جرّرت في ليالي الحصاد
ثيابُ العذارى على البيدر .
سلام لأن الربيـع

يمرّ بوديانِنـــا كل عام ،
وما زال قوس الغمام .
ولولا الذي كدّسوا من نضار
به يستضيئون دون النهار
تجوع الملايين عن جانبيه
وينحطّ ، في كل يوم ، عليه
دمٌ منعروق الورى أو نُثار
كذرّ الغبار —
لـما هزّت الأمّهات المهود
على هوة من ظلام اللحود ،
ولم تذرف الدمع عبر البحار
وعبر الصحارى ،نساءُ الجنود ،
ولم يرفع الزراع الاشيب
إلى مقلتيه ، اليـــد الراجفه
يحدّق في عتمـــة العاصفه
ويصغي وفي روعه «القاصفه» ،

ولم يبكِ صرعى بنيه الأبُ
جزوعاً بأن يثكل الآخرين ،
ولا شرّدت نومةَ العاشقين
كوابيسُ من أعين الهالكين
وإرنان صفّارة تنعب :
«وغى...»، فاستفاقوا ولا كوكب
ولا لمعــة من سراج تبين
سوى قعقعات السلاح
وعصف الرياح ،
ولا ساءل الأم طفل غرير :
ألا بلدة ليس فيهـا سماء ؟ »
– فلا قاذفات المنايا تغير
ولا من شظايا تسد الفضاء –
ولا اختضّ في الصرصر اللاجئون
ولألاء « يافا » تراه العيون
وقد حال من دونه الغاصبون

بما أشرعوا من عطاش الحراب
وما استأجروا من شهود كذاب
وما صفّحوا بالردى من حصون.
سلامٌ على العالم الارحب
على مشرق منه أو مغرب .
سلامٌ لآفون[1] روّى عروق
شكسبيرَ والزهر والداليه .
أفقْ شاعرَ النور، أن الشروق
تهدده غيمة داجيه ،
سعى «مكبثٌ»[2] تحتها في احتراس
لقتل النعاس ...
لقتل النعاس البريء :

(١) آفون : نهر في بريطانيا ، يمر بقرية شكسبير .
(٢) مكبث : بطل احدى مسرحيات شكسبير وقد قتل دنكان وهو نائم في ضيافته مطمئن اليه : « لقد قتـــل مكبث النعاس ، النعاس البريء » شكسبير .

سلام لباريس «روبسبيير» [1]
و « إلوار » والغابة الحالمه
وعشّاقها في المساء الأخير
تذرّيهم قوّةٌ ظالمه
كدوّامة من رياح السعير:
على « تونس» من لظاها ظلال
وحول «الرباط» المدمّى هدير
وفي جيرة الصين حلّ الخذال
بقطعانها الفظّة الضارية
لك المجد يا آسيه !
سلام لفينيس[2] والكرنفال

---

(١) روبسبيير : بطل الثورة الفرنسية وإلوار : الشاعر الفرنسي الحر العظيم .

(٢) فينيس : مدينة البندقية بإيطاليا .

وأضوائه الثرّة الزاهيه ،
وهمس المحبين بين الظلال
وفي دفء قرائه الضاحية .

٨

عصافير ؟ أم صبية تمرح ؟
أم الماء من صخرة ينضح ؟
وأقدامها العاريه
مصابيح ملء الدجى تلمح ،
متكنا بهـــا مكمن الطاغيه
وظلمـــاء أوجاره الباليه .
علينا لهـــا : انها الباقيه
وأنّ الدواليب في كل عيد
سترقى بهاالريح . . جذلى تدور !
ونرقى بها من ظلام العصور

إلى عـــالم كل ما فيه نور . **

(رصاص،رصاص،رصاص،حديد
حديد عتيق) ..
لكونٍ جديد !

شناشيل ابنة الجلبي

شناشيل ابنة الجلبي

و

إقبال

شناشيل ابنة الجلبي [1]

وأذكرُ من شتاء القريةِ النضّاحِ فيه النورُ
من خَلَلِ السّحاب كأنّه النّغَمُ
تسرّبَ من ثقوب المعزف – ارتعشتْ له الظلَمُ
وقد غنّى – صباحاً قبْلَ ... فيم أعدّ ؟ طفلاً كنت أبتسمُ
لليْلي أو نهاري أثقلتْ أغصانَه النشوى عيونُ الحوْر .
وكنا – جدّنا الهدّار يضحك أو يغنّي في ظلال الجوسق القَصَبِ

---

(١) الشناشيل : شرفة مغلقة ، مزينة بكثير من الخشب المزخرف والزجاج الملون ، كان شائعاً في البصرة وبغداد قبل مائة سنة . والجلبي لقب هو عند المصريين « شلبي » وعند الأوربيين « ماركيز ».

وفلاّحيه ينتظرون : « غيثَك يا إلهُ » وإخوتي في
غابة اللّعبِ
يصيدون الأرانبَ والفَراش ، و (أحمدَ) الناطور —
نحدّقُ في ظلال الجوْسق السمراء في النّهْرِ
ونرفع للسحاب عيوننا : سيسيل بالقطْرِ .
وأرعدتِ السماءُ فرنّ قاعُ النهر وارتعشتْ ذُرى السّعَفِ
وأشعلهنّ ومضُ البرْق أزرقَ ثمّ اخضر ثم تنطفىءُ
وفتحت السماءُ لغيثها المدرار باباً بعد بابِ
عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىءُ
تكلّله الفقائعُ ، عــاد أخضرَ ، عاد أسمرَ ، غصّ بالأنغام واللّهفِ
وتحت النخل حيثُ تظلّ تمطِرُ كلُّ ما سعفَه
تراقصتِ الفقائعُ وهي تُفجَرُ — إنّه الرُّطَبُ
تساقطَ في يد العذراء [1] وهي تهزُّ في لهفه
بجذع النخلةِ الفرعاء (تاجُ وليدكِ الأنوارُ لا الذّهَبُ) ،

---

(١) « وهزي إليك بجــذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » (سورة مريم — القرآن الكريم) .

سيصلب منه حبُّ الآخرين ، سيُبرئ الأعمى
ويبعث من قرار القبر ميتاً هدّه التعبُ
من السفرِ الطويل إلى ظلام الموت ، يكسو عظمَه اللحما
ويُوقد قلبَه الثلجي فهو بحبّه يثبُ !) .

* * *

وأبرقتِ السماءُ ... فلاح ، حيث تعرّجَ النهرُ ،
وطاف معلّقاً من دون أسٍّ يلثمُ الماءَ
شناشيلُ ابنة الجلبيّ نوّر حوله الزّهَرُ
(عقود ندىً من اللبْلاب تسطع منه بيضاءا)
وآسيةُ الجميلة كحّل الأحداقَ منها الوجد والسّهَرُ .

* * *

يا مطراً يا حلبي
عبّرْ بنات الجلبي
يا مطراً يا شاشا
عبّر بنات الباشا (١)
يا مطراً من ذهبِ .

* * *

(١) هكذا يغني الأطفال في قرى البصرة حين تمطر السماء : « مطر ، مطر ، حلبي . عبر بنات الجلبي » الخ ..

٥

تقطّمتِ الدروب ؛ مقص هذا الماطلِ المدرارِ
قطّمها ووراها ،
وطوّقتِ المعابرُ من جذوع النخل في الأمطارْ
كفرقى من سفينةِ سندبادَ ، كقصةٍ خضراء أرجأها وخلاها
إلى الغدِ (أحمدُ) الناطورُ وهو يديرُ في الغرفهْ
كؤوسَ الشاي ، يلمس بندقيّتَه ويسمل ثم يعبر طرْفُه
الشـّرْفـــه
ويخترق الظلامَ .
وصاح « يا جدّي » أخي الثرثارْ :
« أنمكث في ظلام الجوْسق المبتلّ ننتظرُ ؟
متى يتوقفْ المطرُ ؟ »

* * *

وأرعدتِ السماءُ ، فطار منها ثمّةَ انفجرا
شناشيلُ ابنة الجلبيّ . .
ثمّ تلوحُ في الأفُقِ
ذرى قوس السّحاب . وحيث كان يسارق النّظرا
شناشيلُ الجميلةِ لا تصيبُ العينُ إلا حمرةَ الشّفَقِ .

* * *

ثلاثون انقضتْ ، وكبرْتُ : كم حبٍ وكم وجْدِ
توهّج في فؤادي !
غيرَ أني كلّما صَفقَتْ يدا الرّعْدِ
مددتُ الطّرف أرقبُ : ربما ائتلقَ الشناشيلُ
فأبصرتُ ابنةَ الجلبي مقبلةً إلى وعدي !
ولم أرها . هواءٌ كلُّ أشواقي ، أباطيل
ونبْتٌ دونما ثمرٌ ولا وَرْدِ !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٤

إرم ذات العماد

(عند المسلمين أن « شداد بن عاد » بنى جنة
لينافس بها جنة الله ، هي « إرم » . وحين أهلك
الله قوم عاد ، اختفت « إرم » وظلت تطوف ،
وهي مستورة ، في الأرض لا يراها إنسان إلا مرة
في كل أربعين عاماً . وسعيد من انفتح له بابها) .

من تَخلّلِ الدُّخان من سيكاره ،
من خلل الدخانْ
من قَدَحِ الشاي وقد نشّر ، وهو يلتوي ، إزارَه
ليحجبَ الزمان والمكانْ ،
حدثنا جدُّ أبي فقال : « يا صغارْ ،
مقامراً كنتُ مع الزمانْ ؛

نقودي الأسماكُ ، لا الفضةُ والنضارْ ،
والورَق الشبّاك والوِهار [1] .
وكنتُ ذات ليْله
كأنما السماء فيها صَدَأٌ وقار ،
أصيدُ في الرّميْله
في خوْرها العميق ، أسمعُ المحارْ
موسْوساً كأنما يبوح للحصى وللقِفار
بموطن اللؤلؤةِ الفريده ،
فأرهفُ السّمعَ لعلّي أسمع الحوارْ .
وكان من ندى الخريف في الدجى بُروده
تدبُّ منها رعشةٌ في جسدي فأسحبُ الدّثارْ .
وانفرجَ الغيمُ فلاحتْ نجمةٌ وحيده
ذكرتُ منها نجمتي البعيده
تنام فوق سطْحها وتسمعُ الجِرارْ
تنضحُ (يا وقْعَ حوافرٍ على الدروبْ

(۱) الوهار : أداة لصيد السمك تصنع من أغصان الشجر .

في عالمَ النُّحاس ؛ ذاك عنـْترُ يجوب
دجى الصَّحارى . إن حيَّ عبْلةَ المزارْ) .
فسرتُ والسَّماءُ وجهتي ، ولا دليلْ ،
أرقب نجمها الوحيد ، والشُّعاعْ
يخفتُ أو يؤُجُّ مانماً ومانحاً ، وكالشّراع
ترفع أو تحطّه الرّياحُ في الصّراع .
أسرتُ ألف خطوة ؟ أسرتُ ألفَ ميلْ ؟
لم أدرِ إلا أنّني أماني السّحَرْ
إلى جدار قلعةٍ بيْضاءَ من حَجَرْ ،
كأنما الأقمارُ منذ ألـْفِ ألف عامْ
كانت له الطِّلاءْ ،
كأنما النجومُ في المساءْ
سلـْنَ عليْه ثمَّ فاض حوله الظّلامْ .
وسرتُ حول سورها الطويلْ
أعدُّ بالخطى مداه (مثلَ سندُبادْ
يسيرُ حول بيْضة الرُّخّ ولا يكاد

يعود حيث ابتدأ
حتى تغيب الشمس ، غشى نورَها سوادْ ،
حتى إذا ما رفع الطرْفَ رأى ... وما رأى ؟)
حتى بلغتُ في الجدار موْضعَ العمادْ
تقوم فيه ، كالدُّجى ، بوّابةٌ رهيبه
غلـّفها الحديدُ ، مدَّ حوْلَها نحيبه
أراه بالعيون لا تحسّه المسامعُ .
وقفتُ عندها أدقُّ ..
يا صدىً أراجعُ
أنت من المقابر الغريبه ؟
أحسُّ في الصدى
برودةَ الرّدى ،
أشمُّ فيه عفَنَ الزّمان والعوالِمِ العجيبه
من إرَمٍ وعادْ .
وحين كلَّ ساعدي
وملّني الوقوفُ في الظلامْ

(كناسكٍ ، كعابدِ
يرفضُه الإلهُ في معبده ، يظل لا ينام
ولا يريد الماء والطعامْ ،
يصيحُ : « كن على الهوى مساعدي
يا رافعَ السّماء ، يا موزّعَ الغمام ») .
جلستُ عند بابها كسائلٍ ذليلْ
جلستُ أسمع الصدى ، كأنه العويلْ ،
يلهثُ خلْفَ حائطٍ من حَجَر ثقيلْ .
كأنّ بين دَقّةٍ ودقة يمرُّ ألف عامْ
وما أجاب العَدمُ الخواءْ .
وحين أوشك الصباحُ يهمس الضياءْ
نعستُ ، نمتُ ... واستفقتُ : مر ألفُ جيلْ !!
الشمسُ والفلاه
والغيْمُ والسماءْ
وكل ما أراه
هناك حيث كان سورُها ، المياه

تشعُّ في الخليجْ » .
وقال جدُّنا ولجَّ في النشيج :
« ولن أراها بعدُ ، إنَّ عمريَ انقضى
وليس يُرجع الزمان ما مضى .
سوف أراها فيكُم ، فأنتم الأريج
بعد ذبول زهرتي . فإن رأى إرم
واحدُكم فليطرقِ البابَ ولا ينمْ .
إرَمْ ...
في خاطري من ذكرها ألَمْ ،
حُلمُ صباي ضاعَ ... آهِ ضاع حين تمّ
وعمري انقضى » .

لندن ١٩٦٣/٢/٢١

في الليل

الغُرْفةُ موصَدَةُ البابِ
والصمتُ عميقْ
وستائرُ شبّاكي مرخاةٌ ..
رُبَّ طريق
يتنصّتُ لي ، يترصَّدُ بي خلفَ الشبّاك ، وأثوابي
كمفزّعِ بُستان ، سودُ
أعطاها البابُ المرصودُ
نَفَساً ، ذرَّ بها حِسّاً ، فتكادُ تفيقْ
من ذاك الموت ، وتهمس بي ، والصَّمْتُ عميق :
« لم يبقَ صديق

ليزورك في الليل الكابي
والغرفةُ موصدةُ البابِ » .
ولبسْتَ ثيابيَ في الوهْمِ
وسريتُ : ستلقاني أُمّي
في تلك المقبرةِ الثكلى ،
ستقول : « أتقتحمُ الليلا
من دون رفيق ؟
جوعانُ ؟ أتأكل من زادي :
خرّوبِ المقبرة الصادي ؟
والماءُ ستنهله نهْلا
من صدر الأرض :
ألا ترمي
أثوابك ؟ والبسْ من كفَني ،
لم يبْلَ على مرّ الزّمَنِ ؛
عزريلُ الحائكُ ، إذْ يبلى ،
يرفوه . تعال ونَمْ عندي :

أعددْتُ فراشاً في لَحْدي
لكَ يا أغلى من أشواقي
للشمس ، لأمواهِ النّهْرِ
كسلى تجري ،
لهُتاف الدّيكِ إذا دوّى في الآفاقِ
في يوم الحَشْرِ » .
سآخذُ دربي في الوَهْمِ
وأسير فتلقاني أمّي .

لندن - ٢٧ / ٢ / ١٩٦٣

في انتظار رسالة

وذكرْتُها ، فبكيْتُ من ألـَمي :
كالماء يصعدُ من قرار الأرض ، نزّ إلى العيون دمي
وتحرّقت قطراتـُه المتلاحقات لتستحيلَ إلى دموعْ
يخنقـْنَني فأصكُّ أسناني ، لتنقذفَ الضلوع
موْجاً تحطـّم فوقهنّ وذابَ في العَدَمِ .

دخانٌ منه القلب يصعدْ
ضبابٌ من الروح يصعد
دخانٌ . . . ضبابْ
وأنتِ الخطافُ وراء البحار ، وأنت انتحابْ

ونوحٌ من القلب كالمدّ يصعد
ودمعٌ تجمّدْ
وغصّت به الآهُ في الحنجرهْ .
ذكرتُك يا كلّ روحي ويا دفءَ قلبي إذْ الليل يبرد
ويا روضةً تحت ضوء النجوم بقدّاحها مُزْهره .

وذكرتُ كلّتنا يهفّ بها ويسبح في مداها
قمرٌ تحيّرَ كالفراشةِ ، والنجومُ على النجوم
دندنٌ كالأجراس فيها ، كالزنابق إذْ تعومُ
على المياهِ ... وفضّضَ القمرُ المياها .
وكأنّ جسمك زورقُ الحبّ المحمّلُ بالطيوبْ
والدّفءِ ، والمجدافُ همسٌ في المياه يرن آها
فآهاً والنّعاس يسيل منكِ على الجنوب
فينامُ فيه النّخلُ تلتمعُ السطوحُ بنومهنّ إلى الصباحْ .
أوّاه ، ما أحلاكِ ! نام النورُ فيكِ ونمتِ فيهِ ،
والليلُ ماءٌ ، والنّباح
مثل الحصى يندّاح فيه ، وأنتِ أوّلُ وارديهِ .

هو الصَّيْفُ يلثمُ شطّ العراقْ
بغيماته ِ ذاب فيها القَمَرْ ،
وتوشِكُ تسبح بيضُ النجوم لولا برودة ماء النّهَرْ
وهفّ شراعٌ لأضلاعه في الهواء اصطفاقْ ،
وغنّى مغنٍّ وراء النّخيل
يغمغمُ : « يا ليلُ ، طال السَّهَرْ
وطال الفراق ! »
كأنّ جميعَ قلوبِ العراق
تُنادي ، تريد انهارَ المَطَرْ .

وصعدتُ نحوكِ والنّعاس رياحٌ فاترات تحملُ الوَرَقا
لتمسّ شَعركِ والنّهودَ به ، تموتْ
حيناً وتلهثُ في النوافذِ من بيوت
ألقاكِ في غُرُفاتها ، وأشدُّ جسمكِ فارَ واحترقا .
إنّي أريدكِ ، أشتهيكِ أمسُّ ثغركِ في رساله
طال انتظاري وهي لا تأتي ، وتحترقُ الزوارقُ والتخوت

في ضفّة العشّار تنفضُ ، وهي لاهثةٌ ، ظلاله
علّ الرّياحَ حملنَ منكِ لها رساله .
لِمَ تبخلين عليّ بالورقات ، بالحبر القليل وسحبة القلم الصّموت؟
إني أذوب هوىً ، أموتْ
وأحنُّ منك إلى رساله .

لندن ٩/٣/١٩٦٣

الباب تقرعه الرياح

البابُ ما قرعتْه غيرُ الرّيحِ في اللّيْل العميقْ ،
البابُ ما قرعته كفُّكِ .
أين كفُّك والطّريقْ
ناءٍ ؟ بحارٌ بيننا ، مُدُنٌ ، صحارَى من ظَلامْ
الرّيحُ تحمل لي صدى القُبُلات منها كالحريق
من نخلةٍ يعدو إلى أُخرى ويزهو في الغمامْ

* * *

البابُ ما قرعتْه غير الرّيح ...
آهِ لعلّ روحاً في الرّياح
هامت تمرّ على المرافىء أو محطاتِ القطار

لتُسائل الغرباء عني ، عن غريبٍ أمسِ راح
يمشي على قدمين ، وهو اليوم يزحفُ في انكسارِ .
هي روحُ أمي هزها الحب العميق ،
حب الأمومة فهي تبكي :
« آه يا ولدي البعيدَ عن الديار !
ويلاه ! كيف تعودُ وحدكَ ، لا دليلَ ولا رفيقْ ؟ »
أماه .. ليتك لم تغيبي خلف سورٍ من حجارِ
لا بابَ فيه لكي أدق ولا نوافذَ في الجدارِ !
كيف انطلقتِ على طريقٍ لا يعود السّائرونْ
من ظلمةٍ صفراء فيه كأنها غَسَقُ البحارِ ؟
كيف انطلقتِ بلا وداع فالصّغار يولولون ،
يتراكضون على الطريق ويفزعون فيرجعون
ويُسائلونَ الليل عنكِ وهم لِعودكِ في انتظارِ ؟
الباب تقرعه الرياح لعلّ روحاً منكِ زارْ
هذا الغريب !! هو ابنكِ السهران يُحرقه الحنين .
أماه ليتك ترجعينْ

شبحاً . وكيف أخافُ منه وما امّحتْ رغم السنينْ
قسماتُ وجهكِ من خيالي ؟
أين أنتِ ؟ أتسمعينْ
صَرخاتِ قلبي وهو يذبحه الحنينُ إلى العراقِ ؟

* * *

الباب تقرعه الرياحُ تهبّ من أبدِ الفراقِ .

لندن ١٩٦٣/٣/١٣

من ليالي السهاد

١ — ليلة في لندن

كما ينسلُّ نورٌ خائفٌ من فُرْجةِ البابِ
إلى الظلماء في غُرْفه
سمعتُ هُتافَه المجروحَ يَعبر نحويَ الشُّرْفه
ليرفعَ من سماوة لندنَ اللّيْلَ المُطِلَّ بلونه الكابي
على الطُّرُقاتِ ترقدُ في دثار الثلج ملتفّه .
وأمسِ سمعتُ في ايرانَ صوت الدّيكِ في الفجْرِ ،
ومن أفُقِ المنائر في الكويتِ وزُرْقةِ البحْرِ
أهابَ ، فرشّ جفني بالنُّعاس (رنينُ أكوابِ
بماء البصرةِ الرّقراق تُملأ ثم تسقيني) ،
نداءٌ راح ينثره المؤذّنُ . . : أطفىءَ الفانوسُ ، رفّ ضياؤه رفّه

وبعثره الظلام .

وليلي الأوّاهُ في بيروت يُحييني

لأبصرَ فيه وجهَ الموت ، راح يُذيبُه نبعٌ من اللّهفه

تدفّقَ من فؤاد البُلبُل المسكوب بين غصون لَبْلابِ

ليالٍ من عذابٍ ، من سقامٍ ، لستُ أنساها :

غريباً كنتُ حتى حين أحلمُ ، لستُ في جيكور

ولا بغداد ، أمشي في صحارى قلبي المسعور

يُريد الماءَ فيها: « ماءُ ... أين الماء ؟» وهي تُريه أفواها

على آفاقها الرّبداء ظمأى تشرب الدّيجور

فلا تروى. أأقضي العمر في صحراءَ،في ليلٍ من العَطَشِ؟

أُفتّشُ عن عيون الماء ، عن إشراقة الغَبَشِ ؟

كأعمى نال منه السُّكرُ صاح،ورفرفت كفاه بين مساند الماخور

ليبحثَ عن رفيقٍ : «أين جاري؟أين داري؟ أين -أوّاها-

أميرتي التي كانت تناولني كؤوسَ النّورْ ؟

فيُبصرُ قلبي الدنيا ويلقاها ؟ »

كأنّ الصُّبْحَ أشرقَ في العراق ، وتعبر الرُّؤيا

بحاراً بي وتطوي ألف دربٍ في الدجى تاها :
تراجعَ عالمٌ وأطلّ ثانٍ : عالمٌ يحيا
على الأقمار تُولَدُ ثم تكملُ ثم تندثرُ ،
وما لبس الجديدَ بغير يوم العيد ، يدّخرُ
ويجمع ثم ينفق ثم يضحك وهو يفتخر
بأن الله يرزق حين يرزق ... هكذا الدنيا
شتاءٌ ثمّ صيفٌ . ليس في جيكورَ محتكِرُ
ولا فيها مصارفُ أو جرائدُ : « ليلُ كوريّا
يُرى شَفَقاً من النيران » .
فالنيران فيها حين تستعر
تضيء لحى الشيوخ يحدّثونَ ، وأعيُنَ النسوه
تحدق في الطعام وترقب الأطفالَ في نشوه .
أعدْني يا إله الشّرْق والصحراء والنخلِ
إلى أيامي الحلوه ،
إلى داري ، إلى غيلانَ ألثمُه ، إلى أهلي ا

لندن ٣ / ٢ / ١٩٦٣

٢ – ليلة في باريس

وذهبتِ فانسحب الضياء ،
أحسستُ بالليل الشتائيّ الحزين ، وبالبكاءْ
ينثالُ كالشلاّل من أفقٍ تحطّمه الغيومْ .
أحسستُ وخزَ الليل في باريسَ ، واختنقَ الهواء
بالقهقهات من البغايا ... آه ! ترتعش النجوم
منها كبلّور الثريّات الملطّخ بالدماء
في حانةٍ لمدى السكارى في جوانبها انتضاء .
لم يبقَ منك سوى عبيرْ
يبكي وغيرُ صدى الوداع : « إلى اللقاء ! » .
وتركتِ لي شفقاً من الزّهرات جمّعها إناء

كالأنجم الزرقاء والحمراء في أفقٍ به حلم الصغيرْ ،
أرجعن لي عُمُرَ الطفولة : يا محاراً في غدير
تتقارعُ الأقداحُ فيه ، ترن أجراسٌ كثارْ :
خوخٌ وأعنابٌ ورمّانٌ ... وتمتلىءُ الجرار
عند الغروب ؛ هو الخريف ونحن نسمر حول نار .
وكمستفيقٍ في العراءْ
من حلمه : هو شهريار وتلمس الكفُّ الخواء
ذهبَ التّرابِ ... ورنّ في الليل النّباحُ أو العواء ،
عانقتُ كفّكِ باليدينِ : « إلى اللّقاء »
— « إلى اللقاء » !

وذهبتِ فانسحبَ الضياء .
لو صحّ وعدُكِ يا صديقه ،
لو صحّ وعدك . آه لانبعثتْ رفيقه
من قبرها ، ولعاد عمري في السنين إلى الوراء .
تأتين أنتِ إلى العراقِ ؟
أمدُّ من قلبي طريقه

فامشي عليه . كأنما هبطتْ عليه من السماء
عشتار فانفجر الربيعُ لها وبرعمتِ الغُصون :
توتٌ ودفلى والنخيل بطلْعه عبقَ الهواء ،
وهو الأصيل وتلك دجلةُ
والنواتيُّ الخفاف يردّدون :
« يا ليتني نجْمُ الصباحْ
آهٍ لأسقطَ يا حبيبي ، إذْ تنام ، على الغطاء ،
أعتل بالبرد : ارتجفتُ فلفّني ، بَرَدُ الهواء ! »
وهو الأصيل وأنتِ في جيكورَ تجتذب الرياحْ
منك العباءة ، فاخلعيها ...
ليس يدّثر الضياء !
يتاوج البَلَمُ [1] النحيلُ بنا ، فتَنتَثرُ النجومْ
من رفّة الجداف كالأسماك تغطس أو تعوم ،
ويحار بين الضفتّين بنا كأنا منه في أبَد الزمانْ :
زمن ولا ماضٍ يعود له ، ولا غدَ كي يسيرَ

---

١ – البلم: زورق البصرة ذو الشكل الشبيه، إلى حد ما، بجندول (البندقية).

إليه . تنطفىءُ النجومُ ونحن نحن العاشقان .

وذهبتِ فانسحب الضياء ،
لم يبق منك سوى عبير
يبكي وغير صدى الوداع : « إلى اللقاء ! »
وتركتِ لي شفقاً من الزهرات جمّعها إناء ...

باريس ١٩٦٣/٣/١٨

٣ – ليلة في العراق

وألهبَ كل ألواح الزجاج الزُّرق في الظلماءْ
فنوَّر غرفتي ، إيماضُ برقٍ ثم رشَّ مدارجَ الأفقِ
نُثارٌ من حُطام الرعْد فارتعشتْ له الأصداء
وخفٌّ ،على الدجى، غابٌ من الأمطار والأزهار والورقِ ،
وكنتُ أصيح من أرقي
ومن مرضي : « أريد الماء ! »
وتخنق صوتي الظمآن وهوَهةُ الدجى والماء .
ويعول من بعيدٍ بوقُ سيّاره
يجيءُ إليَّ عبرَ الماء في الحاره ،
يجيءُ إليَّ من أعماق بحرٍ شمسه الخضراء

تنثُّ على شراع السندباد أزاهرَ الشَّفَقِ .
وكنتُ أصيحُ من أرقي
ومن مرضي : « أريد الماء ! » .
كأني وسط هذا الكون حيث يسوطني العطشُ
نواةٌ حولها ارتجفَ العصيرُ الحلوُ في ثمره
ويُحرقها صداها .
وانتظرتُ : سيغسل الغبَشُ
صداي ، يُحيلني شجَره
تمصُّ الماءَ ، يقرع في مداها النَّسغُ !

* * *

وألقى البرقُ ، أرقصَ ، ظلَّ نافذتي على الغرفه
فذكّرني بماضٍ من حياتي كلُّه ألمُ :
طفولتي الشقيّةِ ، والصبى ، وشبابي المفجوع تضطرمْ
مشاعري البريئة فيه : كيف يجوع آلافٌ من الأطفال ملتفّه
بآلاف الخُروق تعربد الريح الشتائيّه
بها وأظلُّ أحلمُ بالهوى ، والشطّ والقمَرِ ؟

وتزحم كل دربٍ من دروبي هذه الخُوَذُ الحديديه
وتتبعني عيون الموت من زُمَر البنادق نزّ بالشررِ
كواها ... في دروب الجوع ألهث زائغَ النظر .
وإذ يتمرّد الإنسانُ فيّ على العبوديه
أثور على الشيوعيّه .
ولكنّ البنادقَ ما تزال عيونُها الغضبى
تطاردني لأني غيرَ ربّي وحده ، لم أتّخذ ربا .

* * *

وحين تنفست عند انحسار اللّيل عُشتار
تنفّض جُرح تمّوزَ المدمّى ، تغسل التربا
عن الجنبات منه ، وحين هدّ البغيَ ثوّارُ ،
أرحتُ جبينيَ المحمومَ
على شبّاك داري أرقب الدّربا
تدفّق بالحبال وبالعصيّ يشدّها العار
لتسحبَ أو تمزّقَ جسم طفلٍ ثغره المحروم
من القبلات والغنوات والزادِ

ينادي دون صوتٍ :

« آه يا أمتي ! عرفتُ الجوع والآلام والرُعْبا
ولم أعرف من الدنيا سوى أيّام أعياد
فتحت العين فيها من رقادي لم أجد ثوْبا
جديداً أو نقوداً لامعاتٍ تملأ الجيْبا
لأن أبي فقيراً كان » .

يا لكِ ثورةً تتأ كـلُ القلبا
فأصرخ : « أيها الجبناء كفّوا ! »

ثم تزحم دربي الخوذ الحديديه
وتخنق من فم التنور في داري
فألهث في دروب الجوع أطحن من حصاها ثم أعجنه
وأقذفه إلى النارِ
لأطعم منه زُغباً يطلبون الزاد في قر العشيات الشتائيه .

* * *

ويمضي بالأسى عامان ، ثمّ يهدُّني الداءُ ...
تلاقفني الأسرّة بين مستشفى ومستشفى
ويعلكني الحديـد .

ومن دمي ملأ الأطباء

قنانيَ وزعوني في القناني : تصبغ الصّيفا
دمائي والشتاء .
وذات صُبحٍ قيل إن الشرّ قد دُحرا
ودكّ معاقلَ الطاغوت في بغداد أبطالُ
فقلتُ : سأوقدُ القمرا
سراجاً عند بابي : إنّه ظَفري ، أما قالوا
بأن الشرّ قد دُحرا ؟

* * *

وعدتُ إلى بلادي . يا لنقالات إسعافٍ
حملن جنازتي !! متمدّداً فيها أئنّ رأيتُ (غيْلانا)
يحدّق ، بانتظاري ، في السّماء وغيمها السّافي .
وما هو غير أسبوعين ممتلئين أحزانا
ويفجأني النّذير بأنّ أعواماً من الحرمان والفاقه
ترصدُ بي هنا ، في غابة الخُوَذِ الحديديه

* * *

غريقٌ في عباب الموج تنحبُ عنده الغاقه (١)
تئنّ الريح في سَعَف النخيل ، عليه .. ترثيه .
قصائده الحزينة بين أوراقٍ من الدفلى أو الصفصاف تبكيه !

البصره ١٩٦٣/٤/٨

---

١ - الغاقة : النورس ، طائر بحري

خلا البيت

خلا البيتُ ، لا خفقةٌ من نعالْ
ولا كركراتٌ على السُّلَّمِ ،
وأنّتْ على الباب ريحُ الشمال
وماتت على كرمه المظلم :
تلاشت خُطى موكب الدّافنينْ
ومن مسجد القريةِ المعْتم
تلوّى ، كما رفّ فوق السفين
شراعٌ حزين ،
أذانٌ (هو الله باقٍ ، وزال
عن الأرض إلاّه) : الله أكبرْ ؛

وفي قبره اهتزَّ ، كالبرعم
إذا الصُّبْح نوَّر ،
دفينٌ ... وأصغى : أنين الرمال
وتهويدةُ النَّخل ينعَس واللّيلُ أقمر .
وفي بيْته الآن — خلّ العويلْ
ونوحَ اليتامى ونَدْبَ النّساءْ —
لقد فتّح الآن زهرُ الشتاء
ليملأ تنوره بالشذى والضياء ،
أنار وجوهاً وأخفى وجوهاً ، فسال الأصيل
ينثُّ سنابله الدافئه ،
وسمراء تُصغي إلى الشاي فوق الصّلاء
يوسوس عن خيمةٍ في العراء
وعن عيشةٍ هانئة .

* * *

خلا البيت وانسلّ لونُ المغيب
إلى المخدع المقفرِ ؛
هنا كان يطوي خيوط الدروب

صغيران تطفىءُ شمس الغروب
بشعريهما نار فانوسها الأحمر ؛
إذا ما ارتخت تحت ظلّ الهجير
جفونٌ يرنّقُ فيها النعاس
أفاءا إلى قصّةٍ عن أمير
تخطّفَه الجنُّ حتى أتى منزلاً من نُحاس
تلامحَ شبّاكه عن أميره
تُدلّي إليه الضفيره
ليرقى إليها .
خلا البيتُ إلا أنينٌ يابقا
يصعّدها شاطىءٌ من حنين .

البصرة ١٩٦٤/٧/٢٦

جيكور واشجار المدينة

أشجارُها دائمةُ الخُضره
كأنّها أعمدةٌ من رخامْ
لا عُري يعروها ولا صفره ،
وليلُها لا ينام
يُطلع من أقداحه فجره .
لكنّ في جيكور
للصّيف ألواناً كما للشتاءْ ،
وتغرب الشمسُ كأنّ السماء
حقلٌ يمصُّ الماء ،
أزهاره السكرى غناء الطيور .

ناحلةٌ كالصدى
أنغامه البلور ،
كأن فيها مدى
يجرْحنَ قلبي فيستنزفنَ منه النور .
وتغرب الشمسُ وهذا المساء
أمطر في جيكور ...
أمطر ظلاً ، نثّ صمتاً – مساء
غافٍ على جيكور .
واللّيْلُ في جيكور
تهمس فيه النجوم
أنغامها ، تولد فيه الزهور
وتخفقُ الأجنحه
في أعين الأطفال ، في عالمٍ للنّوم – مرّت غيوم
بالدرب مبيضّاً بنور القمر ،
تكاد أن تمسحه ،
تسرق منه الزّهَرْ ...

البصرة ١٩٦٣/٤/٢٢

ها .. ها .. هوه

تنامين أنت الآن والليلُ مُقمرُ
غانيه أنسام وراعيه مِزهر ،
وفي عالم الأحلام ، من كلّ دَوْحةٍ
تلقّاكِ مَعْبَر
وبابٌ غفا بين الشجيرات أخضرُ .
لقد أثمر الصمتُ (الذي كان يُثمر
مع الصُّبح بالبوقات أو نوح بائعٍ) ،
بتينٍ من الذكرى وكرْمٍ يقطّرُ
على كلّ شارع
فيحسو ويسكر

برفقٍ فلا يهذي ولا يتنمّرُ .

* * *

رأيتُ الذي لو صدق الحُلم نفْسَهُ
لمدَّ لك الفما
وطوّق خصراً منك واحتاز معصما ؟
لقد كنتِ شمسَهُ
وشاء احتراقاً فيك ، فالقلب يُصهر
فيبدو ، على خدّيكِ والثّغْرِ ، أحمر
وفي لهَفٍ يحسو ويحسو فيسكرُ .

* * *

لقد سئم الشّعرَ الذي كان يكتبُ
كما ملّ أعماقَ السماء المذنّبُ
فأدمى وأدمعا :
حروب وطوفان ، بيوتٌ تُدمّرُ
وما كان فيها من حياةٍ تصدّعا .
لقد سئم الشّعرَ الذي ليس يذكرُ

فأغلقَ للأوزان باباً وراءه
ولاح له بابٌ من الآس ِ أخضر
أراد دخولاً منه في عالم الكرى
ليصطاد حلماً بين عينيك يخطر
وهيهات يقدر !

* * *

من النّفس ، من ظلمائها ، راح ينبع
وينثال نَهْرٌ سال فالنحلُ مئزر
من النّور عن وضّاءَ تخبو وتظهر .
وفي الضفّة الأخرى تحسّين صوته
(فما كان يُسمَعُ)
كما يشعر الأعمى إذِ النور يظهر ،
يناديكِ :
« ها .. ها .. هوه »
ماءٌ ويقطر
من السّعفة النّشوى
بما شربتْ من غيمةٍ نثّها نجوى

وأصداء أقدامٍ إلى الله تعبرُ .

* * *

وناديتِ : « ها .. ها .. هوه » لم ينشرِ الصدى
جناحيَه أو يبكِ الهواء المُثرثرُ .
ونادي وردّدا :
« ها .. ها .. هوه ! »
وفتّحتِ جفناً وهو ما زال ينظر ،
ينادي ويجأر .

لندن ٢٩ / ٢ / ١٩٦٣

احبيني .. !

وما من عادتي نكرانُ ماضيَّ الذي كانا ،
ولكنْ .. كلُّ من أحببْتُ قبلكِ ما أحبّوني
ولا عطفوا عليَّ ؛ عشقتُ سبعاً كنَّ أحيانا
ترف شعورهن عليَّ ، تحملني إلى الصينِ
سفائنُ من عطور نهودهنَّ ، أغوص في بحْرٍ من الأوهام والوجدَ
فالتقط المحار أظنُّ فيه الدُرَّ ، ثم تظلُّني وحدي
جدائلُ نخلةٍ فرعاءْ
فابحث بين أكوام المحار ، لعلَّ لؤلؤة ستبزغ منه كالنَّجمه ،
وإذ تدمى يداي وُتنزع الأظفار عنها ، لا ينزُّ هناك غيرُ الماء
وغير الطين من صَدَفِ المحار ، فتقطر البسمه

على ثغري دموعاً من قرار القلب تنبثق ،
لأن جميع من أحببت قبلك ما أحبوني .
وأجلسهن في شرف الخيال .. وتكشف الحرق
ظلالاً عن ملامحهن : آهِ فتلك باعتني بأفونِ
لأجل المال ، ثم صحا فطلقها وخلاها .
وتلك .. لأنها في العمر أكبر أم لأن الحسن أغراها
بأني غير كفءٍ ، خلفتني كلما شرب الندى ورق
وفتح برعم مثلتها وشممت رياها ؟
وأمسِ رأيتها في موقف للباص تنتظر
فباعدت الخطى ونأيت عنها ؛ لا أريد القرب منها ،

هذه الشمطاء

لها الويلات ؟ ثم عرفتها : أحسبتِ أن الحسن ينتصر
على زمن تحطم سور بابل منه ، والعنقاء
رماد منه لا يذكيه بعث فهو يستعر ؟
وتلك كأن في غمازتيها يفتح السحر
عيون الفل واللبلاب ، عافتني إلى قصر وسياره ،

إلى زوج تغيّر منه حالٌ ، فهو في الحاره
فقير يقرأ الصحفَ القديمةَ عند باب الدار في استحياء ،
يحدّثُها عن الأمس الذي ولّى فيأكل قلبَها الضّجَرُ .
وتلك وزوْجها عبْداً مظاهرَ ليْلُها سَهَرُ
وخمرٌ أو قمارٌ ثم يوصدُ صُبْحَها الإغفاء
عن النّهر المكركر للشراع يرفّ تحت الشمس والأنداء .
وتلك ؟ وتلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها ،
شربتُ الشّعر من أحداقها ونعستُ في أفياء
تنشّرُها قصائدُها عليّ : فكل ماضيها
وكل شبابها كان انتظاراً لي على شطٍّ يهوّم فوقه القمَرُ
وتنعس في حِماه الطيرُ رشّ نُعاسَها المطرُ
فنبهها فطارت تملأ الآفاقَ بالأصداءِ ناعسةً
تؤج النور مرتعشاً قوادمُها ، وتخفقُ في خوافيها
ظلالُ الليل . أين أصيلُنا الصيفيُّ في جيكورْ ؟
وسار بنا يوسوس زورقٌ في مائه البلّور ؟
وأقرأ وهي تُصغي والربى والنّخل والأعناب تحلم فيدواليها؟

تفرّقت الدروب بنا نسير لغير ما رجعَه ،
وغيّبها ظلامُ السجن تؤنسُ ليلَها شمعه
فتذكرني وتبكي . غير أني لستُ أبكيها
كفرت بأمّة الصحراء
ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكّةٍ أو عند واديها .
وآخرهنّ ؟؟
آهٍ .. زوجتي ، قـَدَري . أكان الداء
ليقعدني كأني ميّتٌ سكران لولاها ؟
وهأنا ... كلُّ من أحببتُ قبلك ما أحبّوني .
وأنتِ ؟ لعلّه الإشفاق !!
لستُ لأعذرَ اللهَ
إذا ما كان عطفٌ منه ، لا الحب ، الذي خلّاه يسقيني
كؤوساً من نعيمٍ .
آهٍ ، هاتي الحبَّ ، روّيني
به ، نامي على صدري ، أنيميني
على نهديك ، أوّاها

من الحُرَقِ التي رضعتْ فؤادي ثمّةَ افترستْ شراييني .

أحبّيني

لأني كلُّ من أحببتُ قبلكِ لم يحبّوني .

باريس ١٩ / ٣ / ١٩٦٣

يقولون تحيا ...

لاحببْتُ لو أن في القلب بُقيا
ـ وقد لفّه اللّيْلُ ـ للمشرقِ ،
يقولون « ما زلت تحيا » .. أيحيا
كسيح إذا قام أعيا
به الداءُ فانهار ، لم تخفقِ
على الدرْب منه الخطى ؟ يا أساه
ويا بؤس عينيْه ممّا يراه ؟

* * *

يقولون : « تحيا » فيبكي الفؤادْ
فلو لم يكن خافقاً لاستراح ؛

كطيرٍ رميٍ يجرُّ الجناح
وقد مد ، عبر الربى والوهاد ،
بعينيه : في دوحةٍ خلف تلك الظلال
سجا عشُّه ، فيه زُغبٌ جياع
إذا حجّب الغيمُ ضوءَ الهلال
يقولون « هذا جناح أبينا وقد عاد بعد الصراع
بزهره ،
بقطره
من الطلّ » .. حتى يُطلّ الصباح .
كطيرٍ رميّ يجرُّ الجناح ،
أقضّي نهاري بغير الأحاديث ، غير المنى ،
وإن عسْعَسَ الليْلُ نادى صدىً في الرياح :
« أبي .. يا أبي ، طاف بي وانثنى ،
« أبي .. يا أبي »
ويُجهش في قاع قلبي نُواح :
« أبي .. يا أبي » .

« أبي .. يا أبي » في صفير القطارْ
« أبي .. يا أبي » في صياح الصّغار
(خفاف الخُطى يعبرون الدروبْ
بلا غايةٍ ، يقطفون الثّمار
ولا يُطعمون ابنةً جائعه .
ولي منزل في سهول الجنوب
إذا كنتُ أسمى ، من السابعه
إلى أوْبة الطير عند الغروب ،
فكي أُطعمَ الجائعينْ
وراء نوافذه شاخصين
إلى الدرب : « أين الأبُ المُطعمُ »)
« أبي .. يا أبي » والدُّجى مظلمُ
وجيكور خلف الدجى والدروب وخلف البحار .

لندن ٢٣ / ٢ / ١٩٦٣

وغدا سألقاها

وغداً سألقاها ،
سأشدُّها شداً فتهمس بي
« رحماك » ثم تقول عيناها :
« مزّق نهوديَ ، ضمّ ـ أوّاها ـ
ردفيّ ... واطوِ برعشة اللّهَبِ
ظهري ، كأنّ جزيرةَ العربِ
تسري عليه بطيب ريّاها » .
ويموج تحت يدي ويرتجفُ
بين التمنّع والرضا ردِفُ ،
وتشب عند مفارق الشّعرِ

نارٌ تدغدغها : هو السَّعَفُ
من قريتي رعشتْ لدى النَّهْر
خوصاته ؛ وتلين لا تدري
أيّان تنقذف .
ويهيم ثغري وهو منخطفُ ،
أعمى تلمّس دربه ، يقفُ
ويحسُّ : نهداها
يتراعشان ، جوانب الظَّهْرِ
تصطكُّ ، سوف تبلُّ بالقطْرِ ؛
سأذوب فيها حين ألقاها !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٧

ليلة وداع

(إلى زوجتي الوفيّة)

أوْصدي الباب ، فدنيا لستِ فيها
ليس تستأهل من عينيّ نظره .
سوف تمضين وأبقى .. أي حسره ؟
أتمنّى لك ألاّ تعرفيها ؟
آهِ لو تدرين ما معنى ثوائي في سرير من دمِ
ميّتَ الساقين محموم الجبينْ
تأكل الظلماءَ عيناي ويحسوها فمي
تائهاً في واحةٍ خلف جدارٍ من سنين
وأنين

مستطار اللبّ بين الأنجم .

* * *

في غدٍ تمضين صفراء اليدِ
لا هوىً أو مغنمٌ ، نحو المراقِ
وتحسّين بأسلاك الفراقِ
شائكات حول سهلٍ أجرد
مدّها ذاك المدى ، ذاك الخليج
والصحارى والروابي والحدود
أيُّ ريشٍ من دموع أو نشيج
سوف يُعطينا جناحين نرود
بهما أفق الدجى أو قبّة الصبح البهيج
للتلاقي ؟
كلُّ ما يربط فيما بيننا محضُ حنينٍ واشتياقِ
ربما خالطه بعضُ النفاق !
آهِ لو كنتِ ، كما كنتُ ، صريحه
لنفضنا من قرار القلب ما يحشو جروحه

ربما أبصرت بعض الحقد ، بعض السأم
خصلةً من شعر أخرى أو بقايا نَغَمِ
زرعتْها في حياتي شاعره
لست أهواها كما أهواك يا أغلى دمٍ ساقى دمي .
انها ذكرى ولكنتك غيرَى ثائره
من حياةٍ عشتها قبل لقانا
وهوىً قبل هوانا .
أوصدي الباب . غداً تطويك عني طائرة
غير حبٍّ سوف يبقى في دمانا .

الكويت ١٩٦٤/٨/٢١

اغنية بنات الجن

شعورنا بلـّلها المطـَرْ
وأشعلَ القمرْ
فيها فوانيسَ ، فيا قوافلَ الغـَجـَرْ
بشعرنا اهتدي ،
سيري إلى السَّحـَرْ ،
سيري إلى الغدِ ؟
نحن بنات الجنَ لا ننامْ ،
نهيم في الظلام
على ذرى التلال أو نركضُ في المقابرِ ،
نعشق كلّ عابر ،

نسمعه أغانيَ الشباب والغرامْ .
إن نزلتْ صبيّةٌ فيها من البشرْ
وأوحشتْها وحدةُ القبور أو دجنّة الحُفر
سرتْ أغانينا إليها تعبر الترابْ
تقول : « إنْ عريتِ فالثياب
تنسجها عناكبُ الشّجَرْ
وكلُّ خيطٍ من خيوطها يرنّ كالوتر .
نامي إلى أن يؤذنَ القـَدَر
ويُحشر الموْتى إلى الحساب .
حبيبك الوفيُّ مسّ ثغرَه ابتسام ،
فقد رأى سواكِ .
بل رآكِ في قوامها النديّ كالزّهرْ
وهُدبها ومقلتيْها . أشعل الهُيام
في عيْنه السّهَرْ ،
رآكِ فيها فاشتهاكِ . ليته انتظر ؟ »

* * *

نلوح للطفل فراشاتٍ من الشعاعْ
تخفقُ في ذوائب الشجرْ ،
ويلمحُ العاشقُ في عيوننا الوداع
إذْ يصفر القطار أو يصفّقُ الشراع .
ونحن للشاعر إن شعر
نلوح في الدخان والمقارْ ،
نُنشد : « فُلْكُ سندبادَ ضلّ في البَحَرْ
حتى أتى جزيرةً يهمس في شطآنها المحار ،
يهمس عن مليكة يحبها القمر
فلا يغيب عن سماء دارها النضار » .
فيهتف الشاعر : « خذْني إلى حماها
لأنني أهواها
لأنني القمر ! »
وجُنّ وانتحر .

* * *

شعورنا بلّلها المطرْ ،

ويرشف القمر
منها إلى أن يُقبل السَّحَرْ .
نركض في المقابرِ
نُضلُّ كلَّ شاعر
وكلَّ من عبر ؟

لندن ١٩٦٣/٢/٢٦

جيكور لمّي [1]

تلك أمتي ، وإنْ أجئْها كسيحا
لاثماً أزهارها والماء فيها ، والترابا
ونافضاً ، بمقلتي ، أعشاشها والغابا :
تلك أطيار الغد الزرقاء والغبراء يعبرن السطوحا
أو ينشّرْن في بويب [2] الجناحين: كزهْرٍ يفتّح الأفوافا .
ها هنا ، عند الضحى ، كان اللّقاءْ
وكانت الشمس على شفاهها تكسّر الأطيافا
وتسفح الضياء .
كيف أمشي ، أجوب تلك الدروب الخضرَ فيها وأطرق الأبوابا ؟

أطلب الماء فتأتيني من الفخّار جرّه
تنضح الظلّ للبرود الحلوَ ... قطره
بعد قطره .
تمتد بالجرة لي يدان تنشران حول رأسي الأطيابا :
(هالتي) تلك ، ام (وفيقة) ام (إقبال) ،
لم يبقَ لي سوى اسماء
من هوىً مرَّ كرعدٍ في سمائي
دون ماء .
كيف أمشي ! خطاي مزّقها الداء . كأني عمود
ملحٍ يسيرُ ..
أهي عامورة الغويّة أم سادوم ؟
هيهات .. إنّها جيكورُ :
جنّةٌ كان الصبى فيها وضاعت حين ضاعا .
آه لو انّ السنين السود قمحٌ أو صخورُ
فوق ظهري حملتهُنّ ، لألقيتُ بحملي فنفضتْ جيكورُ
عن شُجيراتها تراباً يغشّيها وعانقتُ ممزفي ملتاعا ،

يُجهش الحبّ ، به ، لحناً فلحنا
ولقاءً فوداعا .
آه لو أن السنين الخُضر عادت ، يوم كُنّا
لم نزل بعدُ فتيَّينِ لقبّلتُ ثُلاثاً أو رُباعا
وجنتيْ (هالةَ) والشَّعر الذي نشّر أمواج الظلامِ
في سيولٍ من العطور التي تحمل نفسي إلى بحارٍ عميقه
ولقبّلتُ ، برغم الموت ، ثغراً من وفيقه
ولأوصلتُـك يا (إقبال) في ليلة رعدٍ ورياح وقتامٍ ،
حاملاً فانوسيَ الخفّاق تمتدُّ الظلالْ
منه أو تقصر ، إذْ يرعش في ذاك السكونْ ،
ذلك الصمتِ سوى قَعقعة الرعد ،
سوى خفْق الخطى بين التلال
وحفيف الريـــح في ثوبكِ ، أو وهْوهة الليل مشى بين الغصـون ،
ولعانقتُـك عند الباب ، ما أقسى الوداعْ !!
آهِ لكنّ الصّبى ولّى وضاع ؛

الصّبى والزمانُ لن يرجعا بعدُ ،

فقرّي يا ذكريات ونامي .

لندن ٥ / ٢ / ١٩٦٣

---

(١) إذا كان ٣ (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) = ٣ فاعلاتن، ٣ مستفعلن ، ٣فاعلاتن مثلاً فإن الفرضية التي تقوم هذه القصيدة موسيقياً، عليها صحيحة. ارجو ان تتاح الفرصة لتجربة هذه الفرضية على جهاز الأصوات الذي سبق للدكتور محمد مندور ان قام ببعض التجارب عليه في باريس . غير اني لم التزم بذلك إلا في الأجزاء الأولى من القصيدة .

(٢) نهر في جيكور .

يا غربة الروح

يا غربةَ الروح في دنيا من الحَجَرِ
والثلج والقار والفولاذ والضجرِ ،
يا غربة الروح .. لا شمسٌ فأئتلقُ
فيها ولا أُفُقُ
يطير فيه خيالي ساعةَ السَّحَرِ .
نارٌ تضيء الخَواء البرد ، تحترقُ
فيها المسافات ، تُدنيني ، بلا سَفَرِ ،
من نخل جيكورَ أجني دانيَ الثَّمَرِ .
نارٌ بلا سَمَرِ
إلاّ أحاديثَ من ماضيٌ تندفقُ
كأنهنّ حفيفٌ منه أخيلةٌ
في السَّمْع باقيةٌ تبكي بلا شَجَرِ .
يا غربةَ الروح في دنيا من الحجر !

* * *

مسدودة كلُّ آفاقي بأبنيةٍ
سودٍ ، وكانت سمائي يلهث البَصَرُ
في شطِّها مثل طيرٍ هدَّه السَّفَرُ :
النهر والشَّفَقُ
يميلُ فيه شراعٌ يرجف الألَقُ
في خفقِهِ ، وهو يحنو ، كلما ارتعشا ،
دنيا فوانيسَ في الشطَّين تحترقُ ،
فراشةً بعد أخرى تنشر الغَبَشا
فوق الجناحين .. حتى يلهث النَّظَرُ .

* * *

الحبُّ كان الخطافَ الروح ناجاها
روحٌ سواها ، له من لمسةٍ بيدٍ
ذخيرةٌ من كنوزٍ دونما عَدَدٍ .
الحب ليس انسحاقاً في رحى الجَسَدِ
ولا عشاءً وخمراً من حُميَّاها
تلتفُّ ساقٌ بساقٍ وهي خادرةٌ

تحت الموائد تخفي نشوةَ البَشَرِ
عن نشوةِ الله من هَمْسٍ ومن سَمَرِ
في خيمةِ القَمَرِ .
يا غربةَ الروح لا روحٌ فتهواها .

* * *

لولا الخيالات من ماضيّ تنسربُ
كأنها النوم مغسولاً به التَّعَبُ
لم يترك الضجرُ
مني ابتساماً لزوجٍ سوف ألقاها
ان عدتُ من غربة المنفى : هو السَّحَرُ
والحلم كالطلّ مبتلاً به الزَّهَرُ
يمس جفنيْ من نورٍ وينسكبُ
في الروح أفرحها حيناً وأشجاها .
تسللتْ طرقتي للباب تقتربُ
من وَعيها وهو يغفو ثم تنسحبُ ،
ونشَّر الحلمُ أستاراً فأخفاها

ورفّ جفناها
حتى كأنّ يدي
إذ تطرق الباب مسّت منها : « واها !
من دقّ بابي ؟ أهذا أنت يا كبدي ؟ »
وذاب في قبلتي ما خلّف السَّهَرُ
في عينها من نعاس ، فهْي تزدهر
كوردةٍ فُتّحت للفجر عيناها .

لندن ٢٦/٢/١٩٦٣

ام كلثوم والذكرى

وأشربُ صوتَها .. فيغوص من روحي إلى القاعِ
ويُشعل بين أضلاعي
غناءٌ من لسان النار ، يهتف « سوف أنساها
وأنسى نكبتي بجفائها وتذوب أوجاعي » .
وأشرب صوتها .. فكأنّ ماء بُويبَ يسقيني
وأسمع من وراء كرومه ورباه « ها .. ها .. ها »
تردّدها الصبايا السُّمْرُ من حينٍ إلى حين .
وأشربُ صوتها فكأنّ زورقَ زفّةٍ وأنينَ مزمارِ
تجاوبُه الدرابكُ ، يعبران الروح في شَفَقٍ من النار
يلوح عليه ظل وفيقةَ الفرعاء أسودَ يزفر الآها

سحائب من عطورٍ ، من لحونٍ دون أوتارٍ .
وأشرب صوتها .. فيظل يرسم في خيالي صفّ أشجارِ
أغازل تحتها عذراءَ ؛ أوّاها
على أيامي الخضراء بعثرها ووراها
زواجٌ . ليت لحن العُرس كان غناء حفّارِ
وقرعاً للمعاولِ وهي تحفر قبرَي المركوم منه القاع بالطين
وأذكرها ، وكيف (وجسْمُها أبقى على جسمي
عبيراً منه ، دفئاً غلّف الأضلاع) أنساها ؟
أأنساها ؟ أأنسى ضحكةً رعشت على لحمي
وأعصابي ، وكفّاً مسّحت وجهي برياها ؟؟
قساة كلُّ من لاقيتُ : لا زوجٌ وَلدُ
ولا خِلٌ ولا أب أو أخ فيزيل من همّي ..
ولكنْ . ما تبقى بعدُ من عُمريْ ؟ — وما الأبَدُ ..
بعمري —
أشهُرٌ ويريحني موتٌ فأنساها .

لندن — ١٩٦٣/٣/٩

كيف لم احببك ؟

كيف ضيّعتك في زحمة أيامي الطويله ؟
لم أحلّ الثوبَ عن نهديكِ في ليلة صيف مُقمرَه ؟!
– يا عبير التّوت من طوقيها .. مرّغتُ وجهي في خميله
من شذى العذراء في نهديك –
ضيّعتك ، آهِ يا جميله !
إنه ذنبي الذي لن أغفره !
كيف لم أحببكِ ؟! يا لهفة ما بعد الأوان
في فؤادٍ لم تكوني فيه إلا جذوةً في مجمره !
شعرك الأشقر شعّ اليوم شمساً في جناني
يتراءى تحتها ساقاكِ ، يا للزنبقِ

رفَّ من ساقيْكِ ؟!
آهِ كيف ضيّعتكِ يا سرحة خوخٍ مُزهرَه ؟
آه لو عندي بساط الريح !!
لو عندي الحصان الطائرُ !!
آه لو رجلاي كالأمس تُطيقان المسيرا !
لطويت الأرضَ بحثاً عنكِ .
لكنَّ الجسورا
قطعتها بيننا الأقدار . مات الشاعرُ
فيَّ وانسدّت كوى الأحلام .

آهِ يا جميله !

البصرة — ٨/١١/٦٣

اسير القراصنة

أجنحةٌ في دوحةٍ تخفق
أجنحةٌ أربعة تخفق
وأنتَ لا حبٌ ولا دارُ ،
يُسلمك المشرقُ
إلى مغيبٍ ماتت النارُ
في ظلّه ... والدرب دوّار
أبوابه صامتةٌ تُغلقُ !

جيكور في عينيك أنوارُ

خافتةٌ تهمسُ :
« مات الصبي ! »
لم تبقَ آثارُ
من فجره ، وانفرط المجلسُ ،
فالتل لا ساقٍ ولا سامرٌ باقٍ وسمارُ :
وأرامُ في سفحه الموحش المهجور حفّار !

وتحسدُ الشحاذ إن لاحا
يمشي على عكازه البالي .
مشلولة رجلاك مشدودة عيناك بالآل
وألف دربٍ دونك انداحا
يدعوك أن تقطعه في الدجى
وتقطف الأثمار عن جانبيْه
وأنت لا تملك غير الشجّى
ودمعة تجري اشتياقاً اليه .
عامان من نزع بلا موتٍ
وأنت ما كنت سوى صوتٍ ،

صوتٍ يدوي في قلاع الرياحْ .
يا ليتك المشاء في صمْتٍ
لا عازف القيثار باسم الجراح ؟
وأنت في سفينة القرصان
عبدٌ أسيرٌ دون أصفادِ
تقبع في خوفٍ وإخلادِ
تُصغي إلى صوت الوغى والطعّانْ :
سال الدم ،
اندقت رقاب ومال
ربّانها العملاقْ
وقام ثانٍ بعده ثم زالْ
فامتدت الأعناقْ
لأي قرصان سيأتي سواه
وأي قرصانٍ ستعلو يداه
حيناً على الأيدي !؟

(وليأت من بعدي ...

من بعديَ الطوفان »

تسمعها تأتيك من بُعْدِ

يحملها الأعصار عبر الزمان !

البصرة – ١٩٦٣/١٠/٢٩

نسيم من القبر

نسيم الليل كالآهات من جيكور يأتيني
فيبكيني
بما نفثتْه أمي فيه من وجدٍ وأشواقِ
تنفس قبرها المهجور عنها ، قبرها الباقي
على الأيّام يهمس بي : « تراب في شراييني
ودودٌ حيث كان دمي ، وأعراقي
هباءٌ من خيوط العنكبوت ؛ وأدمعُ الموتى
اذا ادّكروا خطايا في ظلام الموت .. ترويني .
مضى أبدٌ وما لمحتك عيني ! »
— ليت لي صوتا

كنفخ الصور يسمع وقعَه الموتى . هو المرَضُ
تفكك منه جسمي والحنت ساقي
فما أمشي ، ولم أهجركِ ، إني أعشق الموتا
لأنك منه بعض ؛ أنت ماضيّ الذي يمضُ
اذا ما اربدّت الآفاق في يومي فيهديني !

* * *

أما رنّ الصدى في قبرك المنهار ، من دهليز مستشفى،
صداي أصيح من غيبوبة التخدير ، أنتفضُ
على ومض المشارط حين سفّت من دمي سفّا
ومن لحمي ؟ أما رنّ الصدى في قبرك المنهارْ ؟
وكم ناديتُ في أيام سُهدي أو لياليه :
أيا أمي ، تعالي فالمسي ساقي واشفيني » .
يئن الثلج والغربان تنعب من طوىً فيهِ ،
وبين سريريَ المبتلّ حقّ القاع بالأمطارْ
وقبركِ ، تهدرُ الأنهارْ

وتصطخب البحار إلى القرار يخضُّها الإعصار .

* * *

أما حَملت إليك الريحُ عَبْرَ سكينةِ الليْلِ
بكاء حفيدتيْكِ من الطوى وحفيدكِ الجوعانْ ؟
لقد جعنا وفي صمتٍ حملنا الجوع والحرمان ،
ويهتك سرنا الأطفال ينتحبون من ويلِ
أفي الوطن الذي آواك جوع ؟أيُّما أحزان
تؤرّق أعينَ الأموات ؟
لا ظُلم ولا جورْ
عيونها زجاجٌ للنوافذ يخنقُ الألوانْ .
هناك لكل ميت منزلٌ بالصمت مستورُ ،
ولكنا هنا عصفت بنا الأقدارُ من ظلّ
إلى ظلٍ ومن شمس إلى شمس يغيب النورْ
على شرفات بيتٍ ضاحكاتٍ ثم يُشرق وهي أطلالْ
ويخفق حيث كركر أمسِ أطفالُ

صريرٌ للجنادب هامسات :« إنه المقدورْ
تصدّعْ برج بابل منه وانهدمت صخور السور ! »

* * *

أما حملت إليك الريح عَبر سكينة الليلِ
بكاء حفيدتيك من الطوى بعلو من السّهلِ ؟

البصرة — ١٨/٤/١٩٦٣

في المستشفى

كمستوحدٍ أعزلٍ في الشتاءْ
وقد أوغل الليل في نصفه ،
أفاق فأوقظ عين الضياء
وقد خاف من حتفه ،
أفاق على ضربة في الجدار —
هو الموت جاء !
وأصغى : أذاك انهيار الحجارْ
أم الموت يحسو كؤوس الهواء ؟
لصوصٌ يشقون درباً إليه
مضوا ينقبون الجدار .

وظلَّ يعدُّ انهيار الترابْ
ووقعَ الفؤوس على مسمعيهْ .
يكاد يحس التماع الحِراب
وحزاتها فيه .. يا للعذابْ !!
وما عنده غير محض انتظار :
هو الموت عَبر الجدار !

* * *

كذاك انكفأتُ أعضُّ الوساد
وأسلمتُ للشرط القارسِ
قفاي المدمى بلا حارس .
— بغير اختياري ، طبيبي أراد ! —
لقد قصَّ .. مدَّ المجسَّ الطويل ...
لقد جره الآن . أواه .. عادْ .
ولا شيء غير انتظار ثقيل .
ألا فاخرقوا ، يا لصوص ، الجدارْ
فهيهات ، هيهات ، مالي فرار !

لندن — ٥/٢/١٩٦٣

ساوي

ظلامُ الليل أوتارُ
يدندن صوتك الوسنان فيها وهي ترتجف ،
يرجع همسها السعَفُ
وترتعش النجوم على صداه : يرن قيثار
بأعماق السماء . ظلام هذا الليل أوتار !

* * *

وكم عبر الخليج إليّ والأنهار والترعا ،
يدغدغ بيض أشرعة يهيم وراءها القمر
وينشج بينها المطر ؛
وأوغل في شعاب البرق ، يرجف كلما لمعا

ليحمل من قرارة قلبك الآلام والفزَعا .

* * *

أشمُّ عبيركِ الليليّ في نبراتك الكسلى
يناديني ويدعوني
إلى نهدين يرتعشان تحت يدي وقد حلاّ
عُرى الأزرار من ذاك القميص ، ويملأ الليلا
مشاعلَ في زوارق ، في عرائشَ ، في بساتينِ

* * *

شذى الليمون يصرع كلّ ظلٍّ في دواليها .
أراكِ على السرير وأنت بين الليل والفجرِ :
يكاد النجم في الشباك والمصباحُ في الخِدْرِ
يمسُّها النعاس ، وأنت زنبقةٌ حواشيها
ينبّهها هُتاف الدّيكِ يعبر ضفّةَ النهرِ .

* * *

ويهمس بي صدى : « سلوى

تغنّي ، كلُّ سلوى في خيالي تكشف الأضواء عنها
وهي تبتسمْ :
صديقةُ كلّ فحلٍ من سدومٍ ، في يـدٍ فَلْسَمْ
يسطّـرُ في الجريدة أنها تهوى ولا تهوى ،
هي امرأتانِ في امرأةٍ ... ويسرب في دمي ضَرَمْ

* * *

وجارتنا الصبيّةُ في حرير النوم تنسربُ ،
يشف الثوبُ عن نهدين طوْديّين كم رجفا
من الأحلام تحت يدٍ تُعصّر بردُها لهَبُ .
لها من فورة العذراء عطرٌ يرتخي ، يثبُ ،
يمازجُ نفحَ ما نفَـحَ الحشيشُ ، يسيلُ مرتجفا .

* * *

وألمحُ في سماء الصيف عَبرَ تماوجِ الشجَرِ
سماوةَ لندنَ المنهلّ فيها الثلج كالمطر ،
ونافذةً تملّـقَ في الظلام زجاجُها الألِقُ ،
ومدفأةً وراء الليل تحترق ،

وأسمع من يحدّث عن هوى سلوى ويرقبُ طلعةَ السّحرِ:

* * *

« وأشملتِ الظهيرةُ نارها في الشارع الممتدّ بين حدائق
النارنج والعِنَبِ

وأصدتْ في رحاب المنزل الخالي
خُطى سلوى ، وأرخيتْ الستائر يا لشلاّلِ
من الألوان واَلخدَر البَرود .
ومسّها لَهَبي
فارْعشَ كلّ عرْق في صِباها ، كلّ ما عَصَبِ

* * *

ويزرع ألفَ غابِ للنخيل غناؤكِ المكسالْ
ترقرقتِ الجداولُ بينهنّ وأزهرَ اللّيمونْ ...
وأنسامُ الربيع تمرُّ تنشّر زَهرَهُ في مائها السلْسال
لا تحمِلَ الوجوهَ إليّ ماءُ غنائكِ المكسال
ويحملني النُعاس إلى جزائرَ في مدىً محزونْ !

البصرة ٩ / ٩ / ١٩٦٣

متى نلتقي ؟

ألا يأكلُ الرعبُ منا الضلوعْ
إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه ،
فلاحتْ لنا ، من ظلامٍ ، قلوع
تهدهدُها غمغماتٌ حزينه ؟
ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟
ألا تتحجّرُ منا العيونْ
إذا لاح في الليل ظل البيوتْ
هزيلاً كما ينسجُ العنكبوت
ألا تتحجّر منا العيون
ويلمع فيها بريقُ الجنون ؟

وبالأمس كنّا يُذيبُ العناقْ
دماً في دمٍ ،
كنورٍ ونارٍ ، سناً واحتراقْ
يجولان في منزلٍ مُظلمِ
ولكن ما بيْننا كان بَحْرْ
تغنّيك أمواجُه العاتيه :
« سنرعاكِ من قلعةٍ شدّ منها حديد وصخْرُ
فما الحب هدّمَ لجدرانكِ العاليه » .
ولكن ما بيْننا كان بَحْرُ
وصحراء تنشجُ فيها النجومْ
ولا نلتقي في دجىً أو صباحْ ،
تموت على رملها عاصفاتُ الرياحْ
وتأكل عيْنَ الدليل التخوم
وصحراءُ تنشج فيها النجومْ

وطارتْ بي الريحُ عبْرَ البحار
إلى الليل والثلج والجهلِ ،

فصرنا إلى واقعٍ لا نحار
بألغازه فاسألي :
- وطارت بي الريحُ عبر البحارْ -
« أما من لقاءٍ لنا في الزمان ؟ »
بلى .. حينما تفهمين اللقاءْ
فيأوي إلى اللوحة المُغرَقان
يشدانها ، يرفعان الدعاء :
« ألا نجّنا يا إله السماء ! »

ألا يأكل الرعب منا الضلوع
إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه
فلاحت لنا ، من ظلام ، قلوع
تهدهدها غمغمات حزينه ؟
ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟

لندن - ١٩٦٣/٣/١٠

اظل من بشر[1]

يا رب لو جدت على عبدك بالرقادْ
لعله ينسى
من عمره الأمسا
لعله يحلم أنه يسير دونما عصا ولا عماد
ويذرع الدروب في السحرْ
حتى تلوحَ غابةُ النخيلْ
تنوء بالثمرُ
بالخوخ ؛ والرمان ، والأعناب فيها يعصر الأصيل
رحيقه المشمس أو تألقْ القمر

---

(١) كانت هـذه القصيدة مشطوبة .

يدخلها فيختفي تحت ذوائب الشجرْ
ويقطف الجنى .
علق في رمّانةٍ عصاه وانثنى
يأكل أو يجمّع الزهرْ :
حتى إذا ما انطلقا
وراح يطوي الطُّرُقا
أحسّ أو ذكرْ
بأنه بلا عصاً سار وما شعَرْ !
يا رب لو جدت على عبدك بالرقاد
لأنه يُذكرُهُ السّهَر
بأنه أقلُّ من بَشر !

لندن ١٩٦٣/٢/٢٥

القن والمجرّة

ولولا زوجتي ومزاجُها الفوارُ لم تنهدَّ أعصابي [1]
ولم ترتدَّ مثل الخيط رجلي دونما قوّه ،
ولم يرتجَّ ظهري فهو يسحبني إلى هُوّه ،
ولا فارقتُ أحبابي ،
ولا خلّفتُ اودْسيوس[2] يضرب في دجى الغابِ
وتقذفه البحار إلى سواها دونما مرسى .
هناك تركتُه وطويتُ عنه كتابيَ المهجور ،
سأكمل سفرتي معه ، ستحملني إلى جيكور
سفينتُه ، ولن أنسى
بأنَّ وراء رغو البحر قلباً هدَّه القَلَقُ

وعيناً كلما زرع الغروبُ حدائقَ الدَّيجور
بأنجمها الصبايا شدَّ من حملاقها الشَّفَقُ
على الافق البعيد لعل خفقاً من شراع أو سنا مصباع
على اللُّججِ الضواري لاحْ .
فآهٍ لوْ كبنلوبَ الحزينةِ زوجتي ترقبُ الأنسامْ
لعلَّ جناح طيّاره
كمحراثٍ من الفولاذ ، شقّق بينها الأثلامْ
ليزرع ، ثمَّ ، أزهاره .

* * *

ألا تبّاً لحبٍّ هذه الآلامُ من عُقباهْ !
كأنَّ شفاهنا ، حين التقتْ ، رسمت من القُبَل
سريراً نمتُ فيه أنثُّ منه الآهَ بعد الآهْ ،
وعكّازاً عليه مشيتُ ثم هويتُ في ثقلِ .
كأنَّ حجارة السور الذي ما بيننا قاما .
لها من هذه القبلات طينٌ شدَّها شدّا .

أدهراً كان أم سبعاً من النكبات أعواما ؟

* * *

ولكنْ ما عليها من جُناحٍ ؛ كنتُ معتدّا
بذهني أو شبابي :
سوف أصهرها ، أغيّرها كطينٍ في يد الفنّانْ .
وقد غيّرتُ . لكنّ الذي غيّرتُ ماذا كانْ ؟
فؤاداً ضيّقاً كاللحْد ... كيف اوسّعُ اللحدا ؟
ونفساً حدّها بين السرير وبين قائمة الحساب كأنها قنّ
من الأقنان

مداه يمد بين البيْت والحقلِ
حبالاً قيدت قدميه وهو يردد الألحانْ
ولم يكُ يفهم الكلمات (ليس لقطرة الطلّ
مكان إذ يجوع البطن يا لتلهف الظمآن !!
أترويه المجرة وهي بحر – هكذا زعموا – على الشطآن
منه تناثرت كسَرُ الكواكب فهي كالرمل

هنالك ، والمحار ؟ أكل هذا يشبع الجوعانْ ؟)

* * *

ولكني أحنُّ .. فهل أعود غداً إلى أهلي ؟
نعم سأعود ،
أرجع ، لا إليها بل إلى غيلان ؟

لندن – ١٩٦٣/٣/٢

---

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة في سورة غضب ، إذ ان زوجته أصرت عليه بالرجوع إلى العراق وقد ساءت صحته بعد ذلك؛ فتشاءم واعتبر زوجته مسؤولة عن تدهور صحته « وكان من المفروض أن تنشر هذه القصيدة في « شناشيل ابنة الجلبي » ولكنه طلب عدم نشرها حينذاك ووضع مكانها قصيدة ليلة الوداع المنشورة في صفحة (٧٠) والتي أهداها إلى زوجته الوفية ؛ وفي قصيدة « ليلة الوداع » وقصائد أخرى نشرت في مجموعاته المختلفة ما يدل على أن قصيدة القن والجزرة بنت سورة غضب وتشاؤم . ونحن ننشرها هنا احتراماً لتراث الشاعر الذي يجب إلا يضيع منه شيء .

عكاز في الجحيم

وبقيت أدور
حول الطاحونة من ألمي
ثوراً معصوباً ، كالصخرة ، هيهات تثور
والناس تسير إلى القممِ
لكني أعجز عن سير – ويلاه – على قدمي
وسريري سجني ، تابوتي ، منفاي إلى الألمِ
وإلى العدمِ !!
وأقول سيأتيني يوم من بعد شهور
أو بعد سنين من السقمِ
أو بعد دهورْ !!

فأسير ... أسير على قدمي
عكازٌ في يديَ اليمنى
عكاز ؟ .. بل عكازانِ
تحت الإبطين يميناني
جسماً من أوجاع ... يفنى
طَللاً يغشاه مسيل دمٍ
وأسير ... أسير على قدمي !! ...
لو كان الدرب إلى القبرِ
الظلمة والدود الفرّاس بألف فمٍ
يمتد أمامي في أقصى أركان الدنيا .. في بحرٍ
أو واد أظلم أو جبل عالٍ
لسعيت إليه على رأسي أو هدبي أو ظهري
وشققت إلى سقر دربي ودحوت الأبواب السودا
وصرخت بوجه موكلّها
لم تترك بابك مسدوداً ؟؟ ...
ولتدعُ شياطين النار

تقتص من الجسد الهاري
تقتص من الجرح العاري
ولتأتِ صقورك تفترس العينين وتنتهشُ القلبا
فهنا لا يشمتُ بي جاري
أو تهتف عاهرة مرّت من نصف الليل على داري :
« بيت المشلول هنا ، أمسى لا يملك أكلاً أو شربا
وسيرمون غداً بنتيه وزوجته دربا
وفتاه الطفل إذا لم يدفع متراكم إيجارِ »
انثرني ، ويكَ ، أباديدا
وافتح بابك لا تتركه أمام شقائي مسدوداً
ولتطعم جسميَ للنارِ !!

لوي مكنيس

أتى نعيُه اليوم ، جاب الديارْ
وجاب المحيطات حتى أتاني ،
فلم تجر بالأدمع المقلتان
فقد غلغلتْ من دمي في القرار .
(أبي مات لم أبكِ حزناً عليه
وإن جنّ قلبي
من الهمّ وانهد شوقاً اليه) .
نعته إلينا بجلّه ،
نماه مقالٌ حزينْ
نعته لنا آدمياً مؤله

سماواته الشّعر يصرخ بالغافلين ؛
وأحسستُ بالشوق (كالمدمنينْ
إلى جرعة من طلىً ظامئين)
إلى شعره ..
لأحرق ، قربانَ وجدٍ وحبٍّ ،
فؤاديَ في جمره .
ولكنّ ديوانه
دفيناً غدا بين أكداس كُتبٍ
تلصّ العناكبُ ألوانه
ويقرأه الصمتُ للآخرين .
ومن لي بإخراج كنز دفينْ
تهاوى عليه الحجارْ ؟
كسيحٌ أنا اليوم كالميتين
أنادي فتعوي ذئاب الصدى في القفار :
« كسيحْ
كسيحٌ وما من مسيحْ » (١)

* * *

وتقرع – للصدى في خيالي – :
نواقيس من شعرهِ في الضبابْ
أمن بعد عشرين مثل الحرابْ
يمزّقن جنبيّ . مثل النّصالِ
ارجّي ادّكاراً لأبياتهِ ؟
وهل يتذكر طفلٌ ملامح أمواته
وقد بعثرتها صروف الليالي ؟
« وبين الحبين ، زوجين عادا ،
يُدحرجُ شايُ الصباحْ
صحارى يضيع الصدى في دجاها الفساحْ ،
وعند المساء تقوم الجريده
جداراً يدقانه بالأكفّ الوحيده
فتضحك ، إذ يضربان ، الرياحّ ! » (٢)

* * *

وما بين زوجي وبيني خواءْ ،
فليت الصحارى وليت الجدارْ

توحّد ما بين زوجي وبيني ببرد الشتاء
وصمت الحجار !
ويا ليتني مت . إن السعيد
من اطّرحَ العبء عن ظهرهِ
وسار إلى قبره
ليولد في موته من جديد !

البصرة - ٩ — ١ — ١٩٦٤

---

(١) توفيق صايغ ؛ معلقة توفيق صايغ .
(٢) الأصل للوي مكنيس .

حميد

« حميد » أخي في البلاء الكبير
ـ فقد كان مثلي كسيحا
يدب بكرسيه مستريحا
تساءلت عنه فقالوا « يسير
على قدميه فقد عاد روحا
لقد مات »
يا ويلنا للمصير !!
ينام ورجلاه مطويتان
شهوداً على الداء ، في قبره
إذا ما رأى الله رأي العيان

وقد سار زحفاً على صدره
فأي انسحاقٍ وأي انكسار
يشعان من عينه الضارعه !!
سيبكي له الله من رحمة واعتذار .

* * *

وفي الساعة السابعه
إذا ذرت الريح ورد الغروب .
سأجلس في الشرفة الخاليه
ومن تحتيَ الدرب يخفقُ ، ينأى ، يذوب :
ألوف من الأرجل الماشيه
إلى أي مبغى وراء الدروبْ
وخمارة في الدجى نائيه !!
إلى اللغو والقهقهات الكذوب
وألمح فيما وراء الظلال
حميداً وكرسيه في الخيال
فتخنقني اللوعة الباكيه

فأواه لو توقدين الشموع
لدى مسجد القرية المترب
تمد من النور خيطاً تعلق فيه الدموع ،
ولو تضرعين ، مع المغرب ،
إلى الله : « يا رب رفقاً بطفلي الصغير
وابقِ أباه
وجنّبه ، يا رب ، هذا المصير ! »
ولكنني متُّ ... واحسرتاه !

المعول الحجري

رنين المعول الحجري في المرتج من نبضي
يدمر في خيالي صورة الأرضِ
ويهدم برج بابل ، يقلع الأبواب ، يخلع كلَّ آجره
ويحرق من جنائنها المعلقة الذي فيها
فلا ماءٌ ولا ظلٌ ولا زهره
وينبذني طريداً عند كهف ليس تحمي بابه صخره
ولا تدميْ سواد الليل نار فيه يحييني وأحييها .
تعالي يا كواسر يا أسود ويا نمور ومزقي الإنسان
إذا أخذته رجفة ما يبث الليل من رعب
فضجي بالزئير وزلزلي قبره

دماغي وارث الأجيال ، عابر لجة الأكوان
سيأكل منه داءٌ شلَّ من قدمي وشديداً على قلبي
كلامٌ ذاك أصدق من نبوءة أيِّ عرّافِ
تريه مسالك الشهُبِ
حمى الأسرار ، تطلعه على المتربص الخافي
إذا نطق الطبيبُ فأسكتوا العرّاف والفوّالْ
رنين المعول الحجري يزحف نحو أطرافي
ساعجز بعد حين عن كتابة بيت شعر في خيالي جالْ
فدونك يا خيال مدىً وآفاقٌ وألف سماءْ
وفجّر من نجومك ، من ملايين الشموس من الأضواءْ
وأشعلْ في دمي زلزالْ
لأكتب قبل موتي أو جنوني أو ضمور يدي من الإعياءْ
خوالج كل نفسي ، ذكرياتي ، كل أحلامي
وأوهامي
وأسفح نفسي الثكلى على الورَقِ
ليقرأها شقي بعد أعوام وأعوام

ليعلم أن أشقى منه عاش بهذه الدنيا
وآلى رغم وحش الداء والآلام والأرقِ
ورغم الفقر أن يحيا
ويا مرضي ، قناع الموت أنت ، وهل ترى لو أسفر الموتُ
أخاف ؟ ألا دع التكشيرة الصفراء والثقبين ،
حيث امتصت العينين
جحافلُ من جيوش الدود يجثم حولها الصمتُ ،
تلوح لناظري . ودع الدماء تسحّ من أنفي من الثقبين
فأين أبي وأمي .. أين جدي . أين آبائي
لقد كتبوا أساميهم على الماءِ
ولست براغب حتى بخط اسمي على الماءِ
وداعاً يا صحابي ، يا أحبائي
إذا ما شئتمو أن تذكروني فاذكروني ذات قمراءِ
وإلا فهو محض اسم تبدد بين أسماءِ
وداعاً يا أحبائي ..

في غابة الظلام

عينايَ تُحرقان غابة الظلامْ
بجمرتيهما اللتين منهما سقرْ ،
ويفتح السّهرْ
مغالق الغيوب لي .. فلا أنام .
وأسبر الأرض إلى قرارها السحيق
ألمّ في قبورها المظامْ
فطالعتني – كالسراج في لظى الحريق –
تكشيرة رهيبةٌ رهيبة
تُليحها جمجمتي الكئيبه
سخرية الإله بالأنام

* * *

عينايَ من سريري الوحيدْ
تحدّقان في المدى البعيد ؛
الليل وحشٌ تطعنانه ، مع النجومْ ،
بخنجريهما وخنجر السَّحَر ،
الليل خنزير الردى ، العنيد
يشقّ خنجراهما إهابَه الغشوم
لألمح العراق مرّغ القمرْ
على ترابه البليل ضوءه الحزينْ .

* * *

ومُقلتا غيلانَ تومضان بالحنينْ ،
يرقب من فراشه ذوائب الشجرْ ،
أمضّه السهاد ، عذّبتْه زحمةُ الفِكَرْ
(أين من الطفولة السهاد والفكرْ ؟)
عيناه في الظلام تسربان كالسفين .
بأيّ حقلٍ تحلمان ؟ أيما نَهَرْ ؟
بعودة الأب الكسيح من قرارة الضريحْ ؟

(أميّتٌ فيهتفَ المسيحْ
من بعد أن يزحزح الحَجَرْ :
« هلم يا عازر » ؟)
عيناه لظىً وريحْ
تُحرق في أضالعي مضارب الغَجَرْ !

* * *

أليس يكفي أيها الآلهْ
أنّ الغناء غايةُ الحياه
فتصبغَ الحياةَ بالقتامْ ؟
تحيلني ، بلا ردىً ، حطام :
سفينةً كسيرةً تطفو على المياه ؟
هاتِ الردى ، أريد أن أنام
بين قبور أهليَ المبعثره
وراء ليل المقبره
رصاصة الرحمة يا إله !

الكويت ٩/٧/١٩٦٤

رسالة

رسالةٌ منكِ كاد القلبُ يلثمها
لولا الضلوع التي تثنيه أن يثبا
رسالة لم يهبّ الورد مشتعلاً
فيها ؛ ولم يعبق النارنج ملتهبا
لكنها تحمل الطيّب الذي سكرت
روحي به ليل بتنا نرقب الشّهبا
في غابةٍ من دخان التّبغ أزرعها
وغابةٍ من عبـــير منك قد سربا
جاءت رسالتكِ الخضراء كالسّعَفِ
بلْ الحيا منه والأنسام والمَطـَرُ

جاءت لمرتجفٍ
على السرير ، وراء الليل يُحتَضَرُ
لولا هواك وبُقيا فيه من أسفٍ
أنْ لم يروّ هواه منك فهو على الشطّين ينتظرُ
سفينةً يتشهّى ظلّها النّهَرُ
فيها الشفاءُ هو الربّان ، والقَدَرُ
فيها المغني
لكان ممّا عراه الداء ينتحرُ !
جاءتْ تحدّثني عنّي
عن شهقة الصيف في جيكور يُحتضَرُ
عن صوت أغربة تبكي ، وأصداءِ
تذرْذر الظلمةَ الصفراءَ في السّعَفِ
وعن بناتٍ لآوى خلف منعطفِ
تعوي فتهتفُ أم ! « أين أبنائي ؟؟! »
وتنفض الدرب عيناها وتهتف !
« يا محمود ... علوان ! »

لا ردٌّ ولا خَبَرُ !

* * *

ويا حديثك عن « آلاء » يلذعُها
بعدي فتسأل عن بابا « أما طابا » (1)
أكاد أسمعها
رغم الخليج المدوّي تحت رغوتهِ
أكاد ألثم خدّيها وأجمعُها
في ساعديَّ ...
كأنيَ أقرع البابا
فتفتحين ...
وتُخفي ظلّنا السُّتُرُ !!

الكويت ١٩٦٤/٨/٣

---

١ - « آلاء » طفلة الشاعر ، و « أما طاب » أي أما أبلّ من مرضه وقد أوردها على ما يبدو كما تلفظها طفلته ، وهي عامية .

ليلة انتظار

يدُ القمر النديّةُ بالشذى مرّتْ على جُرحي ،
يدُ القمر النديةُ مثلَ أعشاب الربيع لها إلى الصّبحِ
خفوقٌ فوق وجهي ، كفُّ طفلتيَ الصغيرةِ ، كفُّ آلاءِ !
وهمسٌ حول جُرحي : كفُّ طفلتي الكبيرة ، كفُّ غيداءِ
تُدغدغني ونحنُ على السرير معاً ، على السّطحِ
هناك !! وآه من ذاك المدى النائي ،
لأقربُ منه جمرةُ الثريّا وهي تلتهبُ
بعيدٌ بُعْدَ يوم فيه أمشي دون عكازٍ على قدمي
يئست من الشفاء ، يئست منه وهدّني التعبُ
وحلَّ الليلُ ما أطويه من سَهَر إلى سهر ومن ظلمٍ إلى ظلم

ولكنّ اليد النديانةَ الكسلى ترشُّ سنابلَ القمح
على دربٍ من الهمسات في حُلُم
بلا نومٍ يرفّ على جفوني ثم يحشوهنّ بالملحِ

* * *

غداً تأتين يا إقبال ، يا بعثي من العدمِ
ويا موتي ولا موت .
ويا مرسى سفينتيَ التي عادتْ ولا لوحٌ على لوحِ
ويا قلبي الذي إن متُّ أتركه على الدنيا ليبكيني
ويجأرُ بالرثاء على ضريحي وهو لا دمعٌ ولا صوتُ
أحبّيني ! إذا أُدرجتُ في كفني ... أحبّيني
ستبقى – حين يبلى كلُّ وجهي ، كل أضلاعي
وتأكل قلبيَ الديدانُ ، تشربه إلى القاعِ
قصائدُ .. كنت أكتبها لأجلك في دواويني
أحبيها تحبيني !!

الكويت – المستشفى الأميري ١٩٦٤/٨/٥

نفس وقبر

نفسي من الآمـــال خاوية ٌ
جرداء لا مـــاءٌ ولا عُشُب
ما أرتجيه هو المحال ومـــا
لا أرتجيــه هو الذي يجبُ
قدرٌ رمى فأصاب صادحـــة
في الجوّ خرّتْ وهي تنتحبُ
من ذا يُعيدُ إلى قوادمهـــا
أفق الصبـــاح تضيئه السُّحبُ

* * *

صُلِبَ المسيحُ فأيُّ معجزة
تأتي ؟ وأيُّ دعـــاء ملهوفِ
ستزيح أبوابُ السماء لـــه
أغلاقها ؟! حبْلٌ من الليفِ
هيهات يُرقى للسماء به
ليهـــزّ عرش الله تخريفي
« مولاي مشلولٌ ! » فتحدجني
عَينُ الملاك : « وأي ملهوفِ
لا يشتـكي لله محنتـــه ؟
إرجع لبيتك دون إبطاء »
فبأيّ آمـالٍ أعيش إذن
وأدبُّ حيّـاً بين أحياء
لولا مخافـــة أن يعاقبني
عـــدْلُ السماء لعنتُ آبائي
ولعنتُ ما نسلوا وما ولدوا
من بائسين ومن أذلاّء

الدودة العمياءُ يلسعهـــا
بردٌ يقلّصهـــا ويطويهـــا
أوّاه لـــو ترضى تبادلني
عيشي بعيشٍ كاد يُفنيهـــا
ولو استجاب الله صرخة ذي
بلوى لصحتُ : « وخيرُ ما فيها
موتٌ يجيء كأنـــه سِنةٌ
ويمس آلامي فينهيهـــا »

* * *

كم ليـــلةٍ قمراء يطفئها
ليل النجـــوم ودورةُ الشّهر
محسوبةٌ ، ويلاه ، من عُمري
وهي التي ضاعت على عمري

وثلاثـــةٌ خضراء، أربعةٌ،
نثرتْ أزاهرهـــا وما أدري.

يا ليتهـــا بغـــدٍ تعوّضني
فتمرُّ باكيـــة على قبري

الكويت – المستشفى الأميري ١٩٦٤/١١/١٠

اقبال والليل

وما وَجدُ ثكلى مثلَ وجدي إذا الدجى
تهاوَينَ كالأمطار بالهمّ والسهْدِ
أحن الى دارٍ بعيدٍ مزارُها
وزُغْب جياعٍ يصرخون على بُعدِ
وأشفقُ من صبح سياتي ، وأرتجي
مجيئاً له يجلو من اليأس والوجدِ

***

الليلُ طار وما نهاري حين يُقبلُ بالقصيرِ
الليل طال : نُباحُ آلاف الكلاب من الغيومِ

ينهلُ ، ترفعه الرياح ، يرن في اللّيـْل الضريرِ
وهتافُ حرّاسٍ سهارى يجلسون على الغيومِ
الليل والعُشّاق ينتظرون فيه على سنا النجم الأخيرِ

* * *

يا ليل ضمّخكَ العراقْ
بعبيرِ تُرْبتهِ وهدأةِ مائه بين النخيلِ
إني أحسّك في الكوْيت وأنت تُثقل بالأغاني والهديلِ
أغصانك الكسلى و « يا ليل » طويل
ناحت مطوّقةٌ بباب الطاق في قلبي تذكّر بالفراقْ
في أيّ نجمٍ مطفأ الأنوار يخفق في المجرّه
ألقت بي الأقدار كالحجر الثقيل
فوق السرير كأنه التابوت لولا أنّةٌ ودمٌ
يُراقْ
في غرفةٍ كالقبر في أحشاء مستشفى حواملَ
بالأمرّة .

يا ليل أين هو العراقْ ؟
أين الأحبةُ ؟ أين أطفالي ؟ وزوجي والرفاق ؟
يا أمَّ غيلان الحبيبة صوّبي في الليل نظره
نحو الخليج . تصوّريني أقطع الظلماء وحدي
لولاكِ ما رمتُ الحياة ولا حننتُ إلى الديارْ
حبَّبتِ لي سُدَفَ الحياة ، مسحتها بسنا النهار
لِمَ توصدين الباب دوني ؟ يا لجوّاب القفارْ
وصل المدينة حين أطبقت الدجى ومضى النّهار
والبابُ أغلق فهو يسعى في الظلام بدون قصدِ

* * *

وخوّض في الظلماء سمعي تشدُّه
بجيكور آهاتٌ تحدَّرْنَ في المدْ
بكاءٌ وفلاحون جوعى صغارهم
تصبّرهم عذراءُ تحنو على مهدِ
يغنّي أساها خافقُ النجْم بالأسى
وتروي هواها نسمة الليل بالوردِ

أين الهوى ممّا ألاقي والأسى مما ألاقي؟
يا ليتني طفل يجوع ، يئنّ في ليل العراقِ !
أنا ميّت ما زال يحتضر الحياه
ويخاف من غده المهدّد بالمجاعة والفراقِ
إقبال مدّي لي يديْك من الدجى ومن الفلاه ،
جسّي جراحي وامسحيها بالمحبّة والحنانْ
بكِ ما أفكر لا بنفسي : مات حبُّك في ضحاه
وَطوى الزمان بساط عرسك والصبى في
العنفوان (١)

---

(١) لم تؤرخ هذه القصيدة ويحتمل أنها آخر قصيدة كتبها الشاعر .

ليلو

قَرِّبْ بعينيكَ منّى دونَ اغضاءِ
وخلّني أتملّى طيفَ أهوائي [1]

أبصرتَها ؟ كادت الدنيـــا تفجّر في
عينيك دنيـــا شموس ذات الاءِ

أبصرتَ ليلى فلبنان الشموخ على
عينيك يضحكُ أزهاراً لأضواءِ

إني سألثمها في بؤبؤيك كمـــن
يقبّل القمَرَ الفضيّ في المـــاء

---

(١) من القصائد التي نظمت في الكويت ولا يعرف تاريخها .

ليلى ! هواي الذي راح الزمان به
وكاد يفلت من كفـــي بالداء
حنانهـــا كحنان الأم دثـّرني
فأذهب الداءَ عن قلبي وأعضائي
أختي الـــتي عرضها عرضي وعفتها
تاجٌ أتيــــه به بـــين الأخلاء
عرفتُها فعرفتُ اللهَ عن كَثَبٍ
كأنّ في مقلتيها درب اسرائي
ليلى هوايَ منايَ شعري
روحي الأعزّ عليّ من روحي وآمالي وعُمري
حملت ضفيرتُها هوايَ كأنها أمواجُ نهرٍ
حملته نحو مدى السماءْ
نحو المجرة والنجوم ونحو جيكور الجميلة
فأنا فتى أتصيّد الاحلام يالك من فراشات خضيلة

أتصيَّد الأشعارَ فيها والقوافي والغناءْ
أو تذكرين لقاءنا في غرفة للداء فيها
ظل كظلِّ الليل يخنق ساكنيها

لكننا بالشعر حوّلناه زرعاً من ضياء
بالحب أزهر واللقاء
ما كان أحلى حبنا العربي حب كثّير وجنون قيسٍ
التبغ صحرائي أهيم على رفارفها الحزينه
وهناك نبني خيمتين من التأسي

« ليلى منادٍ دعا ليلى فخفّ له
نشوان في جَنبَات القلب عربيد
كسا النداء اسمها سحراً وحببه
حتى كأن اسمها البشرى أو العيد
هل المنادون أهلوها وإخوتها
أم المنادون عشاق معاميد
إن يشركونيَ في ليلى فلا رجعت
جبال نجد لهم صوتا ولا البيد »

ليلى تعالي نقطع الصحراء في قمراء حلوة
متماسكين يداً الى يد من محب
وترن في الأبعاد غنوة
للرمل همس تحت أرجلنا بها ، للرمل قلب

يهتز منها أو ينام وللنخيل بها أنين .
وتهرعن بعدٍ كلابٌ يا لِغيم من نباحْ
هيهات يعشقه سوى غبش الصباحْ
فأنا وأنتِ نسير حتى تتعبين
« ماء أريد أليس في الصحراء غير صدى وطين ؟ »

وتكركر الصحراء عن ماء وراء فمِ الصخورِ
فأظل بالكفين أسقيك المياه فترتوين
أسقي صداك فترتوين
أوَتذكرين لقاءنا في كل فجر
وفراقنا في كل أمسية إذا ما ذاب قرصُ
الشمس في البحر العقي
تأتين لي وعبير زنبقة يشق لك الطريق فأي عطر !
وتودعين فتهبط الظلماء في قلبي ويطفىء نوره القمر الوضي
فكأن روحي ودعتني واستقلّت عبر بحر
وأظل طول الليل أحلم بالزنابق والعبير
وحفيف ثوبك ، والهدير
يعلو فيغرق ألف زنبقة وثوب من حرير

فهرست

ازهار واساطير

المعبد الغريق

منزل الأقنان

أنشودة المطر

شناشيل ابنة الجلبي